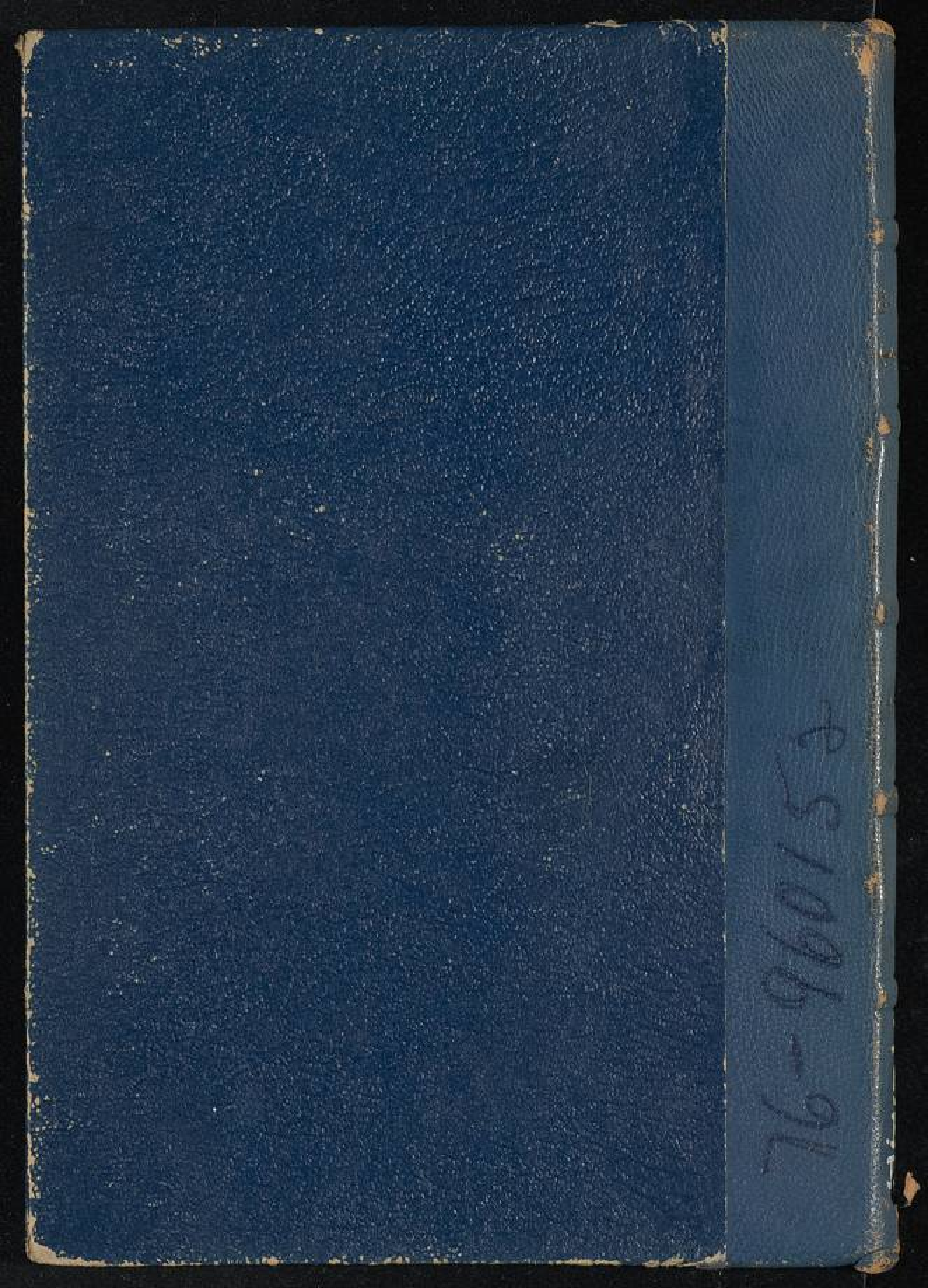
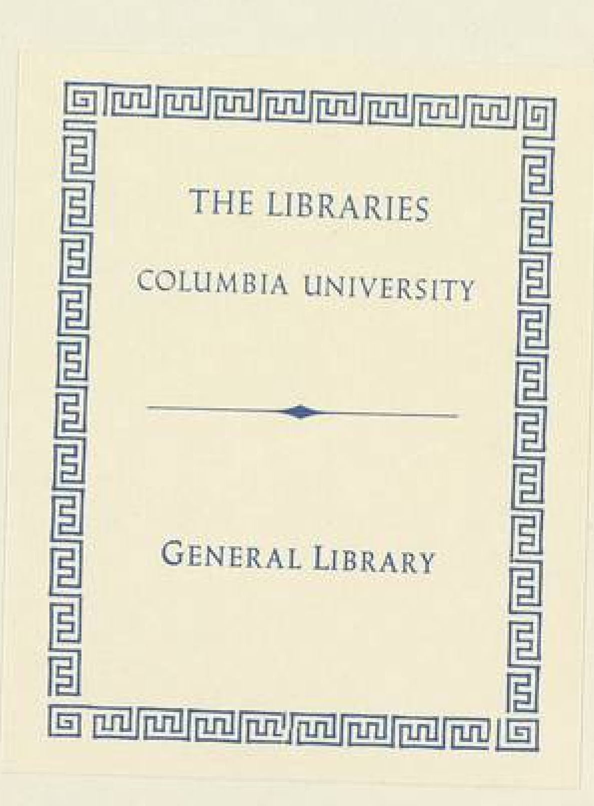



THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY
GENERAL LIBRARY

بغداد

في تاريخ الخلافة العبّاسيّة

أقدم ماكتب

في تاريخ الخليفة المأمون وعصره الذهبي

تأليف

ابي الفضل احمد بن طاهر الكاتب

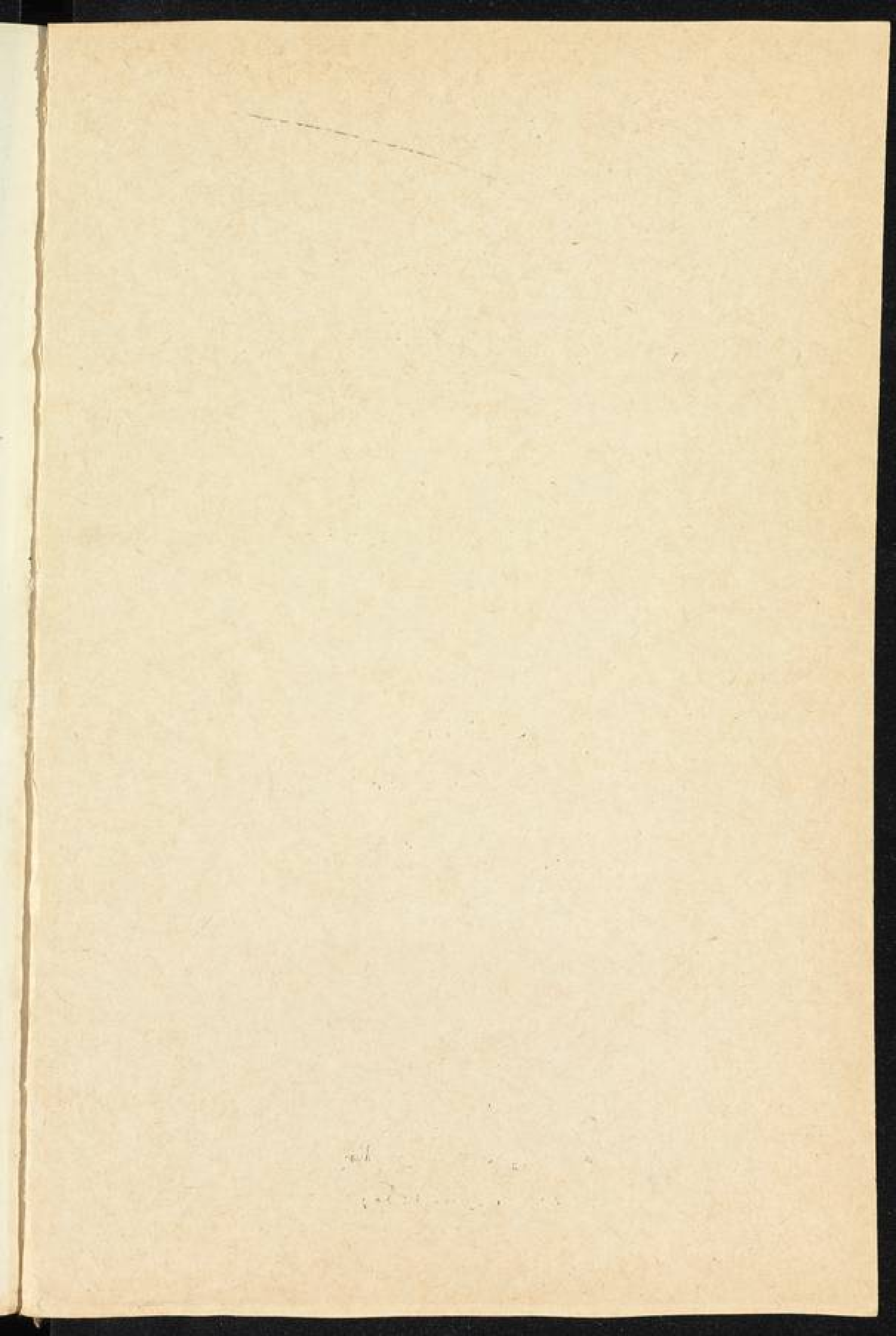
المعروف بابن طيفور

المتوفى سنة ٢٨٠ هـ

١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨ م

يطلب من مكتبة المثنى ببغداد

ومكتبة المعارف ببيروت



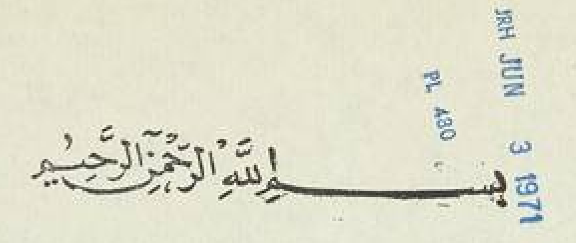
بغداد
في تاريخ الخلافة العباسية

أقدم ما كتب
في تاريخ الخليفة المأمون وعصره الذهبي

تأليف
ابي الفضل احمد بن طاهر الكاتب
المعروف بابن طيفور
المتوفى سنة ٢٨٠ هـ

١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨ م

يطلب من مكتبة المثنى ببغداد
ومكتبة المعارف ببيروت



الحمد لله مالك كل شيء ، له العزة والجبروت ، وبيده الملك والملكوت ، نحمده على جزيل نعمائه ، ونسأله العون والتوفيق والسداد فى كل ما نقصد إليه ، ونصلى ونسلم على أكرم خلقه سيدنا محمد السراج المنير ، المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ؛ فهذا هو الجزء السادس من كتاب « بغداد » لأحمد بن أبى طاهر طيفور ، الذى جمع فيه أخبار المأمون العباسى من دخوله بغداد سنة ٢٠٤ هـ إلى وفاته سنة ٢١٨ هـ ، وقد طبع قبل ذلك مرتين ، والمكتبة العربية فى حاجة ماسة إليه لما له من أهمية ؛ إذ يروى لنا جزءاً مهما من تاريخنا الذهبى لهذا الخليفة العالم الذى ركز حياته لخدمة العلم والعلماء وترجمة كتب الأمم الأخرى إلى العربية ، فامتزجت الثقافات المختلفة ، وحملت العربية إلى العالم ثقافات الأمم ، ومن ذلك يدرك شبابنا اليوم ما قدمه أجدادهم من خدمات للعلم فى وقت كان الجهل يخيم على أجزاء كثيرة من العالم بينما نور المعرفة فى بغداد يبدد دياجير الظلام فيتخذ من هذه الصور الناصعة فى تاريخنا دفعات قوية تدفعنا إلى الأمام لنتفوق ونحتل مكاننا اللائق بنا بين الأمم كما احتله أجدادنا من قبل .

وقد كان من دواعى حرصنا على نشر هذا الجزء أن مؤلفه كتبه بروح محايدة لا يهمه إلا تنقية الأخبار من غير ميل إلى اتجاه معين ، بل كل جهده إبراز الحقيقة من غير تعصب لمذهب أو شخص معين ، فكان الكتاب مرآة صادقة لهذه الفترة التى كتب عنها ، وسنلم بطرف من حياته لندرك مقدار علمه ، ومجاهرته برأيه .

نشأته :

ولد أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور المروزي ببغداد سنة ٢٠٤ هـ وقت دخول المأمون العباسي لها قادماً من خراسان ، ونشأ بها وهي يومئذ تموج بالأدباء والشعراء والمنتديات العلمية والمدارس الفقهية ، ولم يكن علم من العلوم إلا وله أساتذة يدرسونه لتلامذتهم .

في هذا الجو العلمي تربى عالمنا ، فأدلى بدلوه وخاصة في ميدان الأدب والنقد والتاريخ ، فكان صورة صادقة لعصره ، فهو البليغ الشاعر الراوية الذكي اللماح الذي كان يصل بشعره على قلته إلى أعماق نفس سامعه لرقته وعذوبته ، نلمس ذلك فيما حكاه الجهشياري في كتاب الوزراء من أن أحمد بن طاهر مدح الحسن ابن مخلد وزير المعتمد ، فأمر له بمائة دينار وقال : إيت رجاء الخادم فخذها منه ، فلقي أحمد رجاء فقال له : لم يأمرني بشيء ، فكتب إلى الحسن :

أَمَّا رَجَاءٌ فَأَرْجَا ما أَمَرْتَ بِهِ
فَكَيْفَ إِنْ كُنْتَ لَمْ تَأْمُرْهُ يَأْتَمِرُ ؟
بادِرْ بِجُودِكَ مَهْما كُنْتَ مُقْتَدِراً
فَلَيْسَ فِي كُلِّ حَالٍ أَنْتَ مُقْتَدِرُ

فأمر بإضعافها له ، ومن شعره قوله :

حسب الفتى أن يكون ذا حسب من نفسه ليس حَسْبُه حَسَبُهْ
ليسَ الذي يبتدى به نَسَبٌ مثل الذي ينتهي به نسبُهْ

ويقول :

وَمَا الشِّعْرُ إلاَّ السَّيْفُ يَنْبُو وَحَدُّهُ
حُسَامٌ وَيَمْضِي وَهُوَ لَيْسَ بِذِي حَدِّ

وَلَوْ كَانَ بِالإِحْسَانِ يُرْزَقُ شَاعِرٌ
لَا جْدَى الَّذِي يُكْدِي وَأَكْدَى الَّذِي يُجْدِي

وقوله :

قَدْ كُنْتُ أَصْدُقُ فِي وَعْدِي فَصَيَّرَنِي
كَذَّابَةً لَيْسَ ذَا فِي جُمْـلَةِ الأَدَبِ
يَا ذَا كِرَاً خُلْتُ عَنْ عَهْدِي وَعَهْدِكُمُ
فَنُصْرَةُ الصِّدْقِ أَفْضَتْ بِي إِلَى الْـكَذِبِ

ولقوة بصره بالشعر كان كثيراً ما يصدر أحكاماً على الشعراء أشار إليها موشح المرزبانى ، وكانت سبباً فى إفساد الأمر بينه وبين معاصريه من الشعراء .

يقول عن البحترى : ما رأيت أقل وفاء منه ، وذلك لأن أحمد بن الخصيب قد أوصله إلى المستعين وأ كرمه ، وحين غضب المستعين على ابن الخصيب بعد أشهر قلائل انبرى البحترى لهجائه فى قصيدة منها :

لابن الخصيب الويل كيف انبرى بإفكه المُرْدِى وإبطاله

وقد هجا البحترى بقصيدة منها :

وقد قتلناك بالهجاء ولكنك كلب قد التوى ذنبه

وقد فسد ما بينه وبين المبرد حين مر على المبرد وقت الحر الشديد ، ونزل عنده فأ كرمه وقدم له الطعام والماء البارد ، وجلس المبرد يقص عليه من عذب حديثه حتى ينام ، وبينما هو كذلك إذ قال له أحمد : حضرنى بيتان أنشدهما ؟ فقال : ذاك إليك ـ وهو يظن أنه سيمدحه ـ فأنشده :

وَيَوْمٍ كَحَرِّ الشَّوْقِ فِي صَدْرِ عَاشِقٍ عَلَى أَنَّهُ مِنْـهُ أَحَرُّ وَأَوْقَدُ
ظَلِلْتُ بِهِ عِنْدَ الْمُبَرِّدِ قَائِلاً فَمَا زِلْتُ فِي أَلْفَاظِهِ أَتَبَرَّدُ

فقال له المبرد : قد كان يسعك إذا لم تحمد ألا تذم ، ومالك عندى جزاء إلا أن أخرجك ، فساء ما بينهما ، ومما قاله فيه بعد ذلك :

كَمُلَتْ فِى المُبَرِّدِ الآدَابُ ... وَاسْتُقِلَّتْ فِى عَقْلِهِ الأَلْبَابُ

غَيْرَ أَنَّ الفَتَى كَمَا زَعَمَ النَّا ... سُ دَعِىٌّ مُصَحِّفٌ كَذَّابُ

وهذا يدلنا على مقدار صدقه وقوله لما يعتقد ولما يجول فى خاطره ، وقد تقلب بين الفقر والغنى حتى لقى ربه ليلة الأربعاء لأربع بقين من جمادى الأولى سنة ثمانين ومائتين ، ودفن فى مقابر باب الشام .

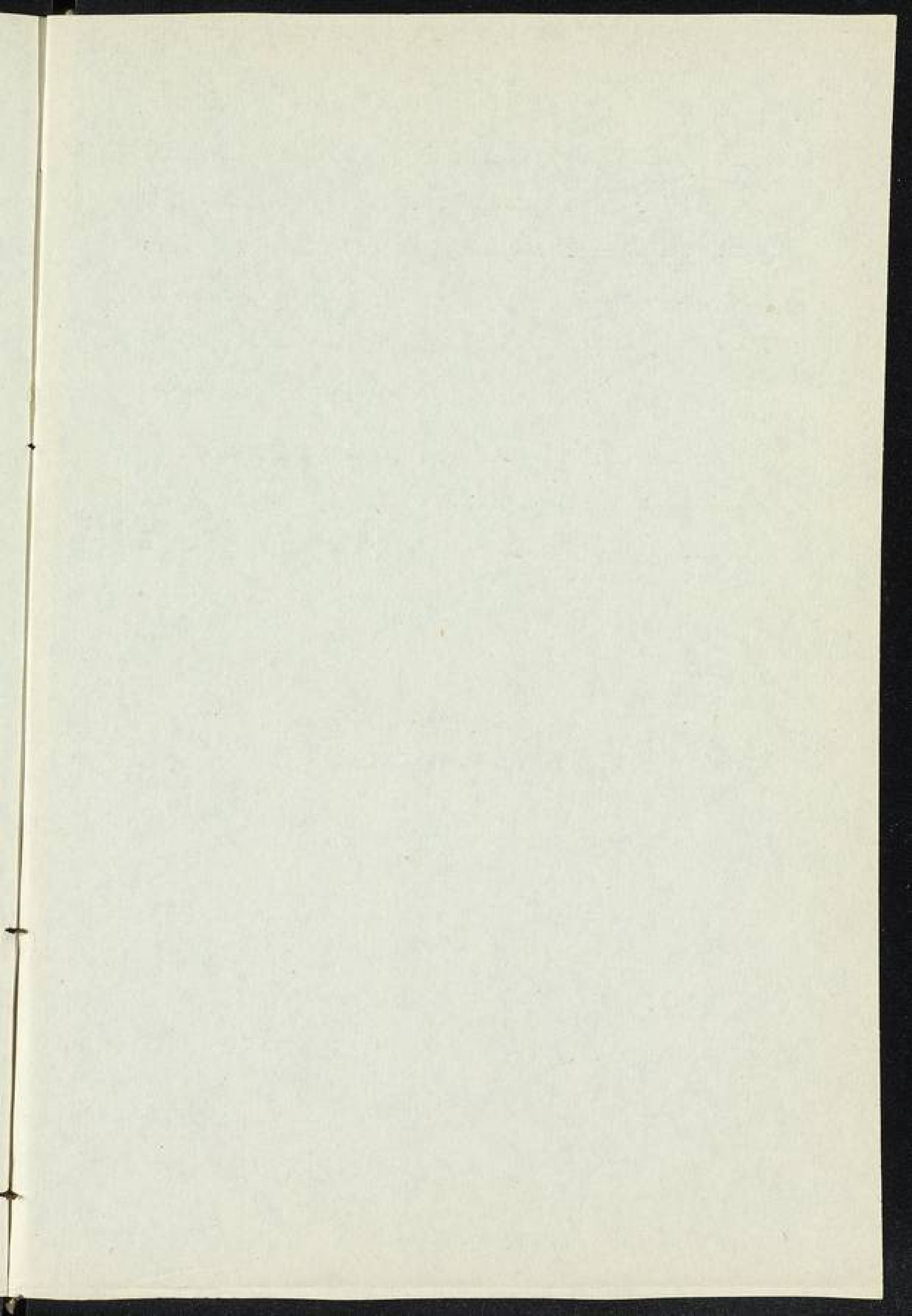
وقد خلف لنا مؤلفات عدة ذكرها ابن النديم وياقوت هى : كتاب المنثور والمنظوم أربعة عشر جزءاً ، والذى بيد الناس ثلاثة عشر جزءاً ، كتاب سرقات الشعراء ، كتاب بغداد ، كتاب الجواهر ، كتاب المؤلفين ، كتاب الهدايا ، كتاب المشتق ، كتاب المختلف من المؤتلف ، كتاب أسماء الشعراء الأوائل ، كتاب الموشى ، كتاب ألقاب الشعراء ، ومن عرف بالكنى ، ومن عرف بالاسم ، كتاب المعروفين من الأنبياء ، كتاب المعتذرين ، كتاب اعتذار وهب من ضرطته ، كتاب من أنشد شعراً وأجيب بكلام ، كتاب الحجاب ، كتاب مرثية هرمز بن كسرى بن أنوشروان ، كتاب خبر الملك العالى فى تدبير المملكة والسياسة ، كتاب المصلح والوزير المعين ، كتاب الملك البابلى والملك المصرى الباغيين ، والملك الحكيم الرومى ، كتاب المزاح والمعاتبات ، كتاب مفاخرة الورد والنرجس ، كتاب مقاتل الفرسان ، كتاب مقاتل الشعراء ، كتاب الخيل ، كتاب المطرد ، كتاب سرقات البحترى من أبى تمام ، كتاب جمهرة بنى هاشم ، كتاب رسالة إلى إبراهيم بن المدبر ، كتاب الرسالة فى النهى عن الشهوات ، كتاب الرسالة إلى على بن يحيى ، كتاب الجامع فى الشعراء وأخبارهم ، كتاب فضل العرب على العجم ، كتاب لسان العيون ، كتاب أخبار المتظرفات ،

كتاب اختيار أشعار الشعراء ، كتاب اختيار شعر بكر بن النطاح ، كتاب المؤنس ، كتاب الغلة والغليل ، كتاب اختيار شعر العتابى ، كتاب اختيار شعر منصور النمرى ، كتاب اختيار شعر أبى العتاهية ، كتاب أخبار بشار واختيار شعره ، كتاب أخبار مروان وآل مروان واختيار أشعارهم ، كتاب أخبار ابن ميادة ، كتاب أخبار ابن هرمة ومختار شعره ، كتاب أخبار ابن الدمينة ، كتاب أخبار وشعر عبد الله بن قيس الرقيات .

ولم يظفر الباحثون منها إلا بالجزء السادس من كتاب « بغداد » الذى نقدمه للقراء ، والجزء الحادى عشر والثانى عشر من كتاب « المنثور والمنظوم » أما بقية كتبه فلم نعثر منها إلا على أسماء شأنها شأن غيرها من كتب كثير من المؤلفين ؟

الناشر

القاهرة فى { ربيع الأول ١٣٨٨ هـ
يونيه ١٩٦٨ م



بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر خلافة عبد الله بن هارون الرشيد المأمون

قال أحمد بن أبي طاهر : قد ذكرنا من خبر محمد ، والمأمون وما كان من اختلافهما والحرب بينهما إلى ما ذكرناه من مقتل محمد بن هارون ، والحرب التي كانت بين محمد بن أبي خالد ، وعيسى بن محمد ، والحسن بن سهل إلى مخرج أبي السرايا ، وذكر إبراهيم بن المهدى إلى آخر حربهم وانقضائها ، وذلك في سنة أربع ومائتين .

وابتدأنا بخبر شخوص المأمون
إلى بغداد من خراسان ، وما كان من أخباره ببغداد
إلى وقت شخوصه عنها ووفاته

ذكر جماعة من الرواة منهم إسحاق بن سليمان الهاشمى ، وأبو حسان الزيادى وابن شبانة[1] المروزى فيما حملوا من كتب التاريخ واتفقوا جميعاً عليه : أن دخول المأمون بغداد مقدمه من خراسان كان في يوم السبت ارتفاع النهار لأربع عشرة ليلة بقيت من صفر سنة أربع ومائتين ، وكان لباسه ولباس أصحابه جميعاً أقبيتهم ، وقلانسهم ، وطراداتهم ، وأعلامهم الخضرة .

قالوا : فلما قدم نزل الرصافة ، وقد كان قبل ذلك قدم إلى النهروان يوم السبت فأقام به ثمانية أيام وخرج إليه أهل بيته ، ووجوه أهل بغداد فسلموا عليه فلما كان

---

(١) المسعودى (١/١١) شبابة ، والصواب شبانة بالنون .

يوم السبت الآخر دخل إلى بغداد ، وكان قد كتب إلى طاهر بن الحسين وكان بالرقة أن يوافيه بالنهروان . فقدم طاهر ودخل عليه وأمره أن ينزل الخيزرانة هو وأصحابه ، ثم إنه تحول فنزل قصره على شاطىء دجلة ، وأمر حميد بن عبد الحميد ، وعلى بن هشام وكل من كان فى عساكرهما أن ينزلوه فى عسكره .

قالوا جميعاً : فكانوا يختلفون إلى المأمون فى كل يوم مسلمين ولباسهم الثياب الخضر ، ولم يكن أحد يدخل عليه إلا فى خضرة ، ولبس ذلك أهل بغداد أجمعون وكانوا يخرقون كل شىء رأوه من السواد على أحد إلا القلانس فإن الواحد بعد الواحد كان يلبسها متخوفا ووجلا . فأما قباء أو علم فلم يكن أحد يجترىء أن يلبس شيئاً من ذلك ولا يحمله . فمكثوا بذلك ثمانية أيام ، وتكلم فيها بنو هاشم من ولد العباس خاصة وقالوا له : يا أمير المؤمنين ، تركت لباس أهل بيتك ودولتهم ولبست الخضرة .

قالوا : وكتب إليه فى ذلك قواد أهل خراسان وتكلم فى ذلك دون الناس جميعاً لما قدم طاهر بن الحسين فأظهر له الإجابة ولما يفعل ، ولما رأى طاعتهم له فى لباس الخضرة وكراهتهم لها جلس يوم السبت وعليه ثياب خضر ، فلما اجتمعوا عنده دعا بسواد فلبسه ، ودعا بخلعة سواد فكساها طاهر بن الحسين ، وخلع على عدة من قواده أقبية وقلانس سوداً ، فلما خرجوا من عنده وعليهم السواد طرح سائر القواد الخضرة ولبسوا السواد .

وقد كان الجند كتبوا إلى المأمون كتباً ، وطرحوا رقاعاً فى المسجد يسألونه أرزاقهم ، وكان قد وعدهم أن يعطيهم أرزاق ستة أشهر ويحاسب كل من أعطاه حميد بن عبد الحميد من الجند طعاماً على ما أخذ ويدفع إليهم تمام رزق ستة أشهر على خواصهم المعروفة .

قالوا : فأعطاهم ذلك يوم الخميس لسبع بقين من صفر فتولى إعطاء أهل الجانب

الغربي حميد ، ووعدهم أن يعطيهم رزق شهرين لتمام ستة أشهر إذا فرغ من إعطائهم هذه الأربعة الأشهر فرضوا بذلك .

قال يحيى بن الحسن : لبس المأمون الخضرة بعد دخوله بغداد تسعة وعشرين يوماً ثم مزقت .

قالوا جميعاً : ولم يزل أمير المؤمنين مقيما ببغداد فى الرصافة حتى بنى منازل على شط دجلة عند قصره الأول وفى بستان موسى فأقام فيه .

قالوا : ولما كان بعد دخول المأمون بأيام وثب ابن لإسحاق بن موسى الهادى يوم السبت لليلة بقيت من شهر ربيع الأول بأبيه وهو الذى كان إبراهيم بن المهدى ولى عهده من بعده هو وخصى لأبيه إسحاق بن موسى فوجياه بسكين حتى قتلاه ، فأخذا ، فأتى بهما المأمون فأمر بقتل الخصى فأخذه عبد الله بن موسى فقتله ، وحبس الابن . فقال أخوه إسحاق : لا نرضى حتى يقتل مع الخصى . فأمر بقتله فأخذه عبد الله بن موسى فضرب عنقه . وكان قتله لهما يوم الأحد لانسلاخ شهر ربيع الآخر .

ذكر إبراهيم بن العباس الكاتب عن عمرو بن مسعدة ، وحدثنى سهل بن عثمان قال : حدثنى الحسن بن النعمان قال : حدثنى أحمد بن أبى خالد الأحول قال: لما قدمنا من خراسان مع المأمون فصرنا فى عقبة حلوان وكنت زميله ، قال لى المأمون : يا أحمد ، إنى أجد رائحة العراق . قال : فأجبته بغير جوابه ، وقلت له : ما أخلقه . فقال : ليس هذا جوابى ولكنى أحسبك سهوت أو كنت مفكراً قال : قلت نعم يا أمير المؤمنين . قال : فيم فكرت ؟ قال : قلت فكرت فى هجومنا على بغداد وليس معنا إلا خمسون ألف درهم مع فتنة غلبت على قلوب الناس واستعذبوها ، فكيف يكون حالنا إن هاج هائج أو تحرك متحرك ؟

قال : فأطرق مليا ثم قال : صدقت يا أحمد ، ما أحسن ما فكرت ولكنى أخبرك : الناس على طبقات ثلاث فى هذه المدينة - يعنى بغداد - ظالم ومظلوم ولا ظالم ولا مظلوم ، فأما الظالم فليس يتوقع إلا عفونا وإمسا كنا ، وأما المظلوم فليس يتوقع أن ينصف إلا بنا ، ومن كان لا ظالماً ولا مظلوماً فبيته يسعه. فوالله ما كان إلا كما قال .

وذكر إسماعيل بن أبى محمد اليزيدى قال : كنا مع المأمون منصرفهمن خراسان إلى بغداد ، فلما دخل قرماسين أقام بها أياما فقال له أصحابه : هذا منزل طيب فلو أقمت بها أياما حتى يأتيك خبر إبراهيم بن المهدى ببعض ما تحب . قال : لا والله ، قالوا : فإننا نتخوف أن يكون دماء فتكون هاهنا حتى يقضى الله من أمره مايقضى قال : أترى إن ثم إبراهيم ريحى يقدم علىّ ؟ لا والله ما ذاك ظنى به . قال : وارتحل ، فما بلغنا حلوان حتى جاءنا الخبر بأنه قد اختفى .

وذكر عمرو بن مسعدة قال : لما سار المأمون إلى الرى منصرفه إلى العراق ذكر على بن صالح صاحب المصلى إسماعيل بن جعفر بن سليمان وكان له صديقاً ، فقال : يا أمير المؤمنين ، رجل من أهلك ركب عظيمة وجاء شيئاً إدّا ، وقد آمنت الأحمر والأسود ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يخصه بأمان يسمه به فإن عفو الله لك بإزاء عفوك عنه ، فقال : اللهم أنت شهيدى أنى قد عفوت عن الأحمر والأسود وأعطيتهم أمانك وذمتك ، وخصصت بذلك إبراهيم بن المهدى ؛ وإسماعيل بن جعفر ، وعممت الناس كلهم حتى ابن دحيم المدنى ، وسعيداً الخطيب . قال : وكان ابن دحيم هذا يصعد منبر المدينة ولا يدع من قول القبيح شيئاً إلا ذكر به المأمون.

وحدثنى الفضل بن محمد العلوى قال : لما قدم المأمون تلقاه عبد الله بن العباس ابن الحسن بن عبيد الله بن العباس بن على بن أبى طالب فقال : جعل الله قدومك يا أمير المؤمنين مفتاح رحمة لك ، وان قدمت عليه من رعيتك ، فقد أشرقت البلاد

حين حللت بها ، وآنس الله بقربك أهلها ، ونصبت الرعية إليك أعينها ، ومدت إلى الله فيك ولك أيديها ، لتصيب من مقدمك عدلا يحييها ، ومن نيل يدك فضلا يغنيها .

وذكر عمرو بن مسعدة قال : لما قدم المأمون بغداد أهدى إليه الفضل بن الربيع فص ياقوت لم ير مثله ؛ قال : وأحب المأمون الفص وجعل يقلبه فى يده وينظر إلى وبيصه ، ويحوله من يد إلى يد وقال : ما أدرى متى رأيت فصاً أحسن من هذا ؟ قال : وأنشأ يحدث القوم الحديث عن فص كان المهدى وهبه للرشيد ؛ فقال : كان أبو مسلم وجه زياد بن صالح إلى الصين فبعث إليه بهذا الفص فصار إلى أبى العباس ، فوهبه إلى عبد الله بن على ، فوهبه عبد الله بن على المهدى ، فوهبه المهدى للرشيد ؛ فبينا الرشيد يناظر يحيى بن خالد يوماً فى قوس جلاهِق إذ ندر الفص من يده فكرر الموضع فلم ير له عين ولا أثر فاغتم الرشيد لذهابه ؛ فقيل له إن صالحاً صاحب المصلى اشترى فصاً من عون العبادى بعشرين ألف دينار ليس لأحد مثله ، فوجه إليه فبعث به ، فلما رآه قال : وأين هذا من فصى ؟ !

قال : ثم قال المأمون : أما والله لأضعن من قدر هذه الحجارة التى لا معنى لها، ورد الفص إلى الفضل وقال لرسوله : قل له وهبت دولتك يا أبا العباس ، فلما رجع الفص إلى الفضل اغتم وقال لرجل من بطانته : أما إنه لا يعيش من يومه هذا إلا أقل من سنة ؛ فما أمسى المأمون حتى أتاه الخبر بها ؛ قال : قال : فسكت عنه ولم يخبر به أحداً ، قال : فلما مات العباس بن المسيب ـ وكان صاحب شرطته ـ ركب المأمون فى جنازته فعرض له بعض أولاد الفضل بن الربيع وهو بباب الشام ، فدعا له وانتسب فقال له المأمون : ادن ، فدنا ، ثم قال له : ادن ، فدنا حتى قرب من ركابه فأدنى منه رأسه كأنه يسر إليه وقال : أعلم أبا العباس أن الوقت قد مضى ؛ قال : فرجع الفتى إلى الفضل فأخبره ، فلم يزل على حذر منه أن يحقدها عليه .

وذكر عن عمرو بن مسعدة قال : استقبل المأمون فى منصرفه من خراسان الطالبيون ببعض طريقه واعتذروا مما كان منهم من الخروج فقال المأمون لمتكلمهم: كف واستمع منى : أولنا وأولكم ما تعلمون ، وآخرنا وآخركم إلى ماترون ، وتناسوا ما بين هذين .

قال ابن أبى طاهر : لما دخل المأمون مدينة السلام تلقته الأنصار فقالت : الحمد لله الذى شد بك الحق وردك إلى دارك مدفوعاً عنك ـ مستجاباً لنا فيك ـ فأنت كما قال ابن عمنا حسان فى ابن عمك رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم دخل المدينة :

وكُنّا حِين تُذْكَرُ مِنكَ نُعْنَى   يَجِلُّ الوصفُ عَن وَصْفِ المَقَالِ
بِحَمدِ الله حينَ حللتَ فِينَا   بِنُورِكَ نَجْتَلِى ظُلَمَ الضَّلالِ
وكنْتَ كَرامةً نَزَلَتْ عَلَيْنَا   بِأَسْعَدِ طَائِرٍ وبِخيرِ حَالِ

قال : أبو زكرياء يحيى بن الحسن بن عبد الخالق : كان قدوم المأمون بغداد فى النصف من ربيع الأول سنة أربع ومائتين ، ودخل بغداد من باب خراسان والحربة بين يديه فى يد محمد بن العباس بن المسيب بن زهير وكان خليفة لأبيه على الحربة والعباس بن المسيب بن زهير وراء ابنه ، وكان منقرساً بين يدى المأمون .

وذكر يحيى ابن الحسن بن عبد الخالق ، عن على بن أبى سعيد أنه حدثه قال : لقى الفضل بن الربيع طاهر بن الحسين عند دخول المأمون بغداد فثنى عنانه معه وقال له : يا أبا الطيب . ما ثنيت عنانى مع أحد قط قبلك إلا مع خليفة ولى حاجة . قال : ما هى ؟ قال : تكلم أمير المؤمنين فى الرضاء عنى وتعجل ذلك . قال : فمضى طاهر من فوره ذلك وكلم أمير المؤمنين فيه . فأمره بإدخال الفضل عليه قال : فقال طاهر : فأدخلته حاسراً لا سيف عليه ، ولا طيلسان ، ولا قلنسوة . فلما توسط

الدار وثب المأمون عن عرشه فصلى ركعتين ، ثم التفت إليه قبل أن يسلم عليه بالخلافة . فقال : أتدرى لم صليت يا فضل ؟ . فقال : لا يا أمير المؤمنين . قال : شكراً لله إذ رزقنى العفو عنك ، قد كلمنى أبو الطيب فيك وقد عفوت عنك . قال : فقال الفضل : لى حاجة يا أمير المؤمنين . قال : ما هى ؟ . قال : الرضاء . قال أجل : لا يكون العفو إلا مع الرضاء . قال : أخرى يا أمير المؤمنين . قال : ماهى ؟ قال : تجعل لى مرتبة فى الدار . قال : عجلت يا فضل أخرج ، فخرج . قال : وقال له يوماً وقد دخل عليه : أخبرنى يا فضل عن شتمك إياى ، ومقاماتك التى كنت تقوم بها على وتثلبنى بها كيف أمنت أن أسرع إلى غضبة من الغضبات فأفعل فعلا أندم عليه حين لا تنفع الندامة . قال : فأنشده لبعض الشعراء فيه :

صَفُوحٌ عَنِ الْأَجْرَامِ حَتَّى كَأَنَّهُ   مِنَ العَفْوِ لَمْ يَعْرِفْ من النَّاسِ مُجْرِمَا
وَلَيْسَ يُبَالِى أَنْ يكونَ به الأذَى   إذَا ما الأذَى لَمْ يَغْشَ بالْكُرهِ مُسْلِما

قال عبد الله بن عمرو : حدثنى جعفر بن المأمون قال : لما دخل المأمون بغداد لقيه الفضل بن الربيع مع طاهر فلما رأى الفضل نزل من قبته وكان عديله على بن هشام ومر يعدو حتى سجد . فقال المأمون : الحمد لله قديما ما كنت أسلم عليه فأفرح برده فسبحان الذى ألهمنى الصفح عنه فلذلك سجدت . قال : فقال طاهر : فعجبت لسعة حلمه .

وذكر زيد بن على بن الحسين قال : لما كان فى العيد بعد قدوم المأمون سنة أربع ومائتين والمأمون يتغدى وعلى مائدته طاهر بن الحسين ، وسعيد بن سلم ، وحميد بن عبد الحميد ، وعلى رأسه سعيد الخطيب وهو يقرظه ويذكر مناقبه ، ويصف سيرته ومجلسه إذ انهملت عينا المأمون بالدموع فرفع يده عن الطعام فأمسك القوم حين رأوه بتلك الحال حتى إذا كف قال لهم : كلوا . قالوا : يا أمير المؤمنين وهل نسيغ طعاما ، أو شرابا وسيدنا بهذا الحال . قال : أما والله ما ذلك من

حدث ، ولا لمكروه هممت به بأحد ولكنه جنس من أجناس الشكر لله لعظمته
وذكر نعمته التى أتمها على كما أتمها على أبوى من قبل ، أما ترون ذاك الذى فى صحن
الدار، يعنى الفضل بن الربيع ، قال : وكانت الستور قد رفعت ووضعت الموائد
للناس على مراتبهم وكان يجلس الفضل مع أصحاب الحرس ، وكان فى أيام الرشيد
وحاله حاله يرانى بوجه أعرف فيه البغضاء والشنآن ، وكان له عندى كالذى لى
عنده ، ولكنى كنت أداريه خوفاً من سعايته ، وحذراً من أكاذيبه ، فكنت
إذا سلمت عليه فرد على أظل لذلك فرحا ، وبه مبتهجا وكان صفوه إلى المخلوع
فحمله على أن أغراه بى ، ودعاه إلى قتلى ، وحرك الآخر ما يحرك القرابة والرحم
الماسة فقال : أما القتل فلا أقتله ولكنى أجعله بحيث إذا قال لم يطع ، وإذا دعا لم
يجب فكان أحسن حالاتى عنده أن وجه مع على بن عيسى قيد فضة بعد ما تنازعا
فى الفضة والحديد ليقيدنى به وذهب عنه قول الله جل وعز : (ثم من بغى عليه
لينصرنه الله[1]) فذاك موضعه من الدار بأخس مجالسها ، وأدنى مراتبها وهذا
الخطيب على رأسى وكان بالأمس يقف على هذا المنبر الذى بإزائى مرة ، وعلى المنبر
الغربى أخرى فيزعم أنى الماءون ولست بالمأمون ، ثم هو الساعة يقرظنى تقريظه
المسيح ، ومحمداً عليهما السلام . قال : فقال طاهر بن الحسين ياسيدنا ، فما عندنا
فيهما ، وقد أباحك الله إراقة دمائهما فحصنتهما بالعفو والحلم . قال : فعلت ذلك
لموضع العفو من الله ثم قال : مدوا أيديكم إلى طعامكم قال : فأكل وأكلوا .

حدثنا أحمد بن إسحاق بن برصوما . قال : حدثنى أيوب بن جعفر بن سليمان
قال : كنا مع المأمون بعد مقدمه بغداد بأشهر يوما وهو راكب والفضل بن الربيع
واقف له على مدرجته فرميناه بأبصارنا ننظر ما يكون منه ، قال : فمر طاهر ومعه
الحربة بين يدى المأمون ، فنظر المأمون إلى الفضل بن الربيع وصرف وجهه عنه ،

---

(١) سورة الحج مدنية : ٦٠ .

ثم أقبل العجم معهم القسى والنشاب وطلع المأمون ينظر إلى الفضل بمؤخر عينه مصروفاً عنه وجهه ، قال : فقال : أولئك العجم كأنهم يريدون أن ينحوه بعنف فأقبل المأمون يكفهم بيده ووجهه محول عنه .

قال أحمد بن إسحاق : وحدثنى بشر السلمانى ، قال : سمعت أحمد بن أبى خالد يقول : كان المأمون إذا أمرنا بأمر فظهر من أحدنا فيه تقصير يقول : أترون إنى لأعرف رجلا ببابى لو قلدته أمورى كلها لقام بها . قال بشر : فقلت لأحمد بن أبى خالد : يا أبا العباس من يعنى ؟ قال : الفضل بن الربيع .

وقال محمد بن إسحاق : حدثنى رجل ممن كان يدخل الدار ذهب عنى اسمه : قال : لما أذن المأمون للفضل بن الربيع فى لبس السواد ومنعه من الركوب بسيف ذى حمائل . فكان يلبس سيفاً بمعاليق، قال : فأنا ذات يوم فى الدار إذ جاء الفضل فوقف على الباب الخارج ودخل على بن صالح وهو الحاجب فقال : يا أمير المؤمنين الفضل بن الربيع بالباب ، فى أى المراتب أنزله ؟ قال : فى أخسها ، قال : فخرج إليه على ماشياً إلى الباب الخارج فقال : يا أبا العباس : انزل فهذه مرتبتك . قال : فجلس وجلست قريباً منه ، وقام المأمون فدخل فلم يمر بالفضل أحد من بنى هاشم والقواد إلا جلس إليه فكان آخر من جاء حميد الطوسى فلم يزل الفضل يحضر الدار كل اثنين وكل خميس فيجلس على البساط فإذا انصرف الناس قعدوا له ، فأنا ذات يوم عنده إذ جاء السندى بن شاهب آخر من جاء . فقال الفضل بيده ما الخبر ؟ وكان السندى بن شاهب جهورى الصوت لا يقدر أن يتكلم سراً ، قال : خبر عجيب قال : ما هو ؟ قال : سمعته اليوم قدم على بن أبى طالب على العباس بن عبد المطلب وما ظننت أنى أعيش حتى أسمع عباسياً يقول هذا . فقال له الفضل : تعجب من هذا ؟ هذا والله كان قول أبيه قبله .

قال أبو جعفر أحمد بن إسحاق : وأول غضب المأمون على الفضل أن الرشيد

كان أوصى الفضل بن الربيع إن حدث به حدث أن يجعل خزائنه ، وأمواله وسلاحه ، وجميع عسكره إلى المأمون ، فلما توفى الرشيد حمل ذلك كله إلى محمد .

وحدثنى الحسن بن عبد الخالق قال : حدثنى محمد بن أبى عوف وكان منقطعاً إلى على بن صالح قال : حضرت على بن صالح عشية فى أول مدخل المأمون بغداد فجاء آذنه فقال له : بالباب أبو القاسم اللهبى ؛ ومحمد بن عبد الله العثمانى ، ومصعب ابن عبد الله الزبيرى قال : فأذن لأبى القاسم اللهبى فدخل فأجلسه فى صدر مجلسه . ثم أذن للعثمانى والزبيرى فأقعد العثمانى عن يمينه ، والزبيرى عن يساره ثم تحدثوا فذكروا الفضل بن الربيع . فقال اللهبى : أحسن الله جزاء الفضل عنا فقد كان براً بنا ، وقال العثمانى : كان والله ما علمنا قضَّاء لحوائجنا عارفاً بأقدارنا ، موجباً لحقوقنا وقال الزبيرى : لقد كانت يده عندنا وعند آبائنا ، فقال على بن صالح : أما إذا ذكرتم ذلك فإنى كنت عند أمير المؤمنين أعزه الله أمس فقال لى يا على : متى عهدك بصديقك ؟ قال : فقلت أطال الله بقاء أمير المؤمنين صديقى كثير فعن أيهم يسألنى أمير المؤمنين ؟ قال : عن الفضل بن الربيع . قال : قلت أمس الأدنى وجد علة فى يومه فأتيته عائداً . قال : ولم تأته إلا فى يوم علته ؟ قال قلت : كذا عودته . قال : فكأنى إذا جلس الآن وجلست أنت وسعيد بن سلم ، وعبد الله بن مالك وجعل وسادة على ركبتيه ثم قال وقد وضع يديه عليها: قال لى المنصور وقلت له فأما الرشيد فلا يحتاج إلى كلام فيه قلت : أدنى ذلك أمس ما زال يحدثنا عن المنصور وعن مكانه ومكان أبيه منه . قال : فقال له المأمون : ما أعجب أمور الخلفاء ينبتون الرجل ثم يحظونه فلا يبقون غاية من الأمور إلا بلغوه إياها فى مقدار قريب . قال ثم أمسك وأمسكت ثم قال : يا على كأنى فى نفسك الساعة تقول كيف أخطيت الفضل بن الربيع ؟ نعم . كان يدبر الخطأ فيقع صواباً ، ويبعث بالجيش الضعيف فيقع به النصر وأدبر أنا فيقع بغير ذلك ، فلما وقفت على البصيرة

من أمرى ، وفكرت فى نفسى ، وعملت بالأحزم فى ذلك ملت إلى الحزم فوردت العراق ، وأن الفضل بن الربيع بقية الموالى فلا تخبره بذلك عنى فإنى أكره أن يبلغه عنى ما يسره .

وحدثنى يحيى بن الحسن قال : كان على بن صالح إذا جاءه خبر يسره من قبل المأمون فى الفضل قال لخادمه يسر : قال لنجاح خادم الفضل كذا ، وكذا . لئلا يحدث إن وقعت يمين .

وحدثنى يحيى بن الحسن قال : كان الفضل يقول فى أيام المأمون : ما بقى لى من عقلى أحب إلى مما ذهب من مالى . قال : وأخبرنى أبو الحسن بن عبد الخالق قال : كان الفضل يقول : لا يسود الرجل حتى يشتم ، ويعرض ، ويحلم . وحدثنى يحيى بن الحسن قال : رأيت الفضل بن الربيع وقد دخل المقصورة يوم الجمعة أيام المأمون فقدم دابته حيث خرج فوق مرتبته . فقال يا غلام : أردد الدابة لست أركب من هاهنا .

وحدثنى يحيى ، قال : حدثنى أبو الحسن بن عبد الخالق قال : كنت عند الفضل ابن الربيع ذات عشية فى أيام المأمون وهو فى منظرته التى تشرع إلى الميدان ومعه فى مجلس المنظرة امرأة تحدثه لا أدرى من هى وهو مقبل عليها وذلك فى الدار الذى حوّله المأمون إليها وهى دار العباس ابنه وكان يؤدى عنها ألفاً فى الشهر إذ دخل عليه أبو حليم خادمه فقال : أبو العتاهية بالباب ، قال : أدخله ، قال : فدخل فحادثه ساعة ثم قال له : يا أبا إسحاق فى قلبك من عتبة شىء ؟ قال : ذهب ذاك وخرج ، قال : فبقيت منه باقية ؟ قال : لا والله ، قال : فهذه والله عتبة ، قال : فنظر إليها وخرج يعدو وترك نعليه .

حدثنى أحمد بن إسحاق بن إبراهيم بن ميمون قال : حدثنى أبى قال : لما قدم

المأمون بغداد بعثت أم جعفر إلى أبى العتاهية أحب : أن تقول أبياتاً تعطف بها أمير المؤمنين علىّ ، فبعث إليها بهذه الأبيات :

أَلاَ إِنَّ رَيْبَ الدَّهْرِ يُدْنِى وَيُبْعِدُ ... وَيُؤْنِسُ بِالأُلاَّفِ طَوْراً وَيُفْقِدُ
أَصَابَتْ لِرَيْبِ الدَّهْرِ مِنِّى يَدِى يَدِى ... فَسَلَّمْتُ لِلأَقْدَارِ وَاللهَ أَحْمَدُ
وَقُلْتُ لِرَيْبِ الدَّهْرِ إِنْ ذَهَبَتْ يَدٌ ... فَقَدْ بَقِيَتْ وَاللهِ يَا دَهْرُ لِى يَدُ
إِذَا بَقِىَ المَأْمُونُ لِى فَالرَّشِيدُ لِى ... وَلِى جَعْفَرٌ لَمْ يُفْقَدَا وَمُحَمَّدُ

قال : فبعثت بها إلى المأمون ، فلما قرأها بكى وزاد فى ألطافها ورق لها ، وعطف عليها .

وقال أصحاب التاريخ : لما دخل المأمون بغداد أقام بالرصافة إلى أن بنى منزله على شط دجلة عند قصره الأول فانتقل إليه ، وكان يسأل عن أمور الناس وما يصلحها ، فرفع إليه فى شهر رمضان أن التجار يعتدون على ضعفاء الناس فى الكيل ، فأمر بقفيز يسع ثمان مكا كيك سرد مرسل وصير فى وسطه عموداً وسمى الملجم ، وأمر التجار يعيروا مكا كيكهم عليها صغارها وكبارها ، ففعلوا ذلك ورضى الناس .

قال : ولما كان يوم الفطر خرج فصلى بالناس فى عيساباذ ، وعبأ الجند تعبئة لم ير مثلها قبل ذلك لأحد من الخلفاء من إظهار السلاح وكثرته وكثرة الجند ، ولم يصل بالناس صلاة العيد حتى قرب نصف النهار .

وذكر أبو حسان الزيادى وغيره من أصحاب الأخبار أنه ولى مكة والمدينة فى سنة أربع ومائتين عبد الله بن الحسن بن عبيد الله بن العباس بن على بن أبى طالب عند قدومه بغداد ، فلما حضر الموسم كتب إليه بالولاية على الموسم وأن يقيم الحج بالناس .

قالوا : ولما دخلت سنة خمس ومائتين ولى أمير المؤمنين طاهر بن الحسين الجزيرة والشرط والجانبين ، وكان ذلك يوم الأحد ، وقعد طاهر للناس من عين اليوم الذى ولى فيه ، وكان يوم عاشوراء .

فحدثنى يحيى بن الحسن بن عبد الخالق قال : لما انقضت سنة أربع ومائتين وعلى شرطة المأمون العباس بن المسيب بن زهير وكان منقرساً ، فقال له المأمون : قد كبرت وثقلت عن حمل الحربة . قال : فهذا ابنى يا أمير المؤمنين مكانى وهى صناعتى وصناعة أبى ، وقد علمت أن الرشيد يتبرك بحمل الحربة فى يد المسيب ونحن أهلها . قال : فقد رأيت تولية طاهر . قال : فرأى أمير المؤمنين أفضل وأصوب . قال : فولى طاهر بن الحسين .

وقال يحيى : فكتب طاهر إلى الفضل بن الربيع ، وكان بينهما صداقة : إن فى رأيك البركة ، وفى مشورتك الصواب ، فإن رأيت أن تختار لى رجلين للجسر . فكتب إليه : قد وجدتهما لك وهما : خيار السندى بن يحيى ، وعياش ابن القاسم فولاهما الجسرين .

قال : وكان المأمون فى اليوم الذى ولى طاهراً فيه الشرطة قد ولى جماعة من الهاشميين كور الشام كورة كورة فلم يتم لأحد منهم شىء من ولايته حتى انقضت السنة .

قال يحيى البوشنجى القصير حاجب ذى اليمينين طاهر بن الحسين قال : لما ولى طاهر بن الحسين الشرطة رفع إليه أن فى الحبس رجلا تنصر ، فأمر يحيى هذا أن يحمل السيف والنطع ويأتى به دار أمير المؤمنين إلى مجلسه ، ثم أتى دار أمير المؤمنين ، فدعا بالرجل فقال : يا عدو الله تنصرت بعد الإسلام ؟ قال : أصلح الله الأمير ، والله ما تنصرت وما أنا إلا مسلم ابن مسلم ، ولكن حبست

فى كساء بدرهمين سنتين فلما رأيت أمرى قد طال وليس لى مذكر يذكرنى قلت إنى مصرانى ، وأنت أيها الأمير مصرانى ، وهذا مصرانى ، وأنا رجل من أصحابك أيها الأمير . فكبر طاهر ودخل على المأمون فأخبره الخبر ، وأمر أن يوهب له ثلثمائة درهم وأن يخلى سبيله ، فأمر طاهر بذلك . فقال الرجل : لا والله أيها الأمير ما أقدر أن أمشى فادع لى بحمار ، فدعا له بحمار وخلى سبيله .

وذكر أبو حسان الزيادى : أن العباس بن عبد الله المأمون قدم من خراسان فى سنة خمس ومائتين ، وكان دخوله بغداد يوم الخميس لأربع عشرة ليلة بقين من شعبان وقدم معه من خراسان موسى وعبد الله ابنا محمد المخلوع فى ذلك اليوم ، واستقبله وجوه الناس من بنى هاشم والقواد حتى دخل على أمير المؤمنين .

حدثنا أبو زكرياء يحيى بن الحسن قال : أخبرنى محمد بن إسحاق بن العباس ابن محمد قال : دخل طاهر بن الحسين على المأمون وعنده عبد الله بن موسى الهادى ، فقال له المأمون : مرحباً بك يا ذا اليمينين . فقال له طاهر : لكن الله جعل لأمك زوجين . قال : ويلك تعيرنى بخليفتين . قال : فأمر المأمون بعبد الله ابن موسى فأقيم ، وكانت أم عبد الله أمة العزيز أم ولد موسى الهادى ثم تزوجها هارون الرشيد . قال : وقال بعض أصحاب المأمون يوماً فى سنة خمس ومائتين ، وقد خرج إلى منتزه له ومعه طاهر بن الحسين ، فبينا هو يسايره إذ قال له : يا أبا الطيب ، ما أطول صحبة هذا البرذون لك ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، بركة الدابة طول صحبتها ، وقلة علفها . قال : فكيف سيره ؟ قال : سيره أمامه وسوطه عنانه وما ضرب قط إلا ظالماً .

حدثنى الفضل بن محمد العلوى قال : قال عبيد الله بن الحسن المأمون لما دخل بغداد وطاهر يساير المأمون ، ملأك الله يا أمير المؤمنين النعمة — وجعله مقدم سلامة ، وأدام لك العز والسلامة — والحمد لله الذى تلاقانا عند ظهور الفتنة

وشمولها — وتراخى دارنا عنك واغترابها — بذى اليمينين صنيعتك — وسيفك المسلول على أهل معصيتك — فجمعنا على طاعتك — حتى أنا بحمد الله من عند أخرانا كالنبال المطرورة نصالها — المقومة صعارها — إن نفرتها حنت لك وإن أزلتها عن كبد قوسك شكّت عدوك ـ فنسأل الله أن يحسن جزاءك ـ عنا ـ وجزاؤه على ما حفظ فينا ـ من غيبك ـ وركب منا من منهجك وقصدك . قال : المأمون لطاهر بن الحسين يا أبا الطيب صف لى أخلاق المخلوع . قال : كان يا أمير المؤمنين واسع الطرب ، ضيق الأدب ، يبيح نفسه ما تعافاه همم ذوى الأقدار ، قال : فكيف كانت حروبه ؟ قال كان يجمع الكتائب ويفضها بسوء التدبير . قال : فكيف كنتم له ؟ قال : كنا أسوداً تبيت وفى أشداقها غلاق النا كثين . وتصيح وفى صدورها قلوب المارقين . قال : أما إنه أول من يؤخذبدمه يوم القيامة ثلاثة لست أنا ولا أنت رابعهم ولا خامسهم وهم : الفضل بن الربيع ، وبكر بن المعتمر ، والسندى بن شاهك هم والله ثأر أخى وعندهم دمه .

وحدثنى محمد بن عيسى كاتب محمد بن عبد الله بن طاهر قال : لما دخل المأمون بغداد . ضمن لطاهر بن الحسين قضاء كل ما يسأله من حاجة فما سأله حاجة لنفسه ولا لولده ولكنه سأله العفو عن المجرمين فى الفتنة وإلحاقهم بما كانوا عليه قبله فى دواوينهم وطبقات عطائهم وأن يضاعف أجر المحسنين ففعل ذلك ، ثم دعاه لرفع حوائجه فلم يسأله شيئاً إلا إقامة الدولة لأهلها ورد لباس السواد ، وإطراح الخضرة فأجابه إلى ما سأل من ذلك .

وحدثنا يحيى بن الحسن قال : حدثنى أبو زيد الحامض قال : حدثنى حماد بن الحسن قال : حدثنى بشير بن غياث المريسى قال : حضرت عبد الله المأمون أنا ، وثمامة ، ومحمد بن أبى العباس ، وعلى بن الهيثم فتناظروا فى التشيع فنصر محمد بن أبى العباس الإمامية ونصر على بن الهيثم الزيدية وجرى الكلام بينهما إلى أن قال

محمد لعلى يا نبطى ما أنت والـكلام ؟ قال : فقال المأمون ـ وكان متـكئاً فجلس ـ الشتم عى ، والبذاء لؤم إنا قد أبحنا الـكلام وأظهرنا المقالات فمن قال بالحق حمدناه ، ومن جهل ذلك وقفناه ومن جهل الأمرين حكمنا فيه بما يجب فاجعلا بينـكما أصلا فإن الـكلام فروع فإذا افترعتم شيئاً رجعتم إلى الأصول قال : فإنا نقول لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم واذكروا الفرائض والشرائع فى الإسلام وتناظروا بعد ذلك . فأعاد محمد لعلى بمثل المقالة الأولى فقال على : والله لولا جلالة مجلسه ، وما وهب الله من خلافته ورأفته ، ولولا ما نهى عنه لأعرقت جبينك وبحسبك من جهلك غسلك المنبر بالمدينة . قال : فجلس المأمون وكان متـكئاً فقال : وما غسلك المنبر ألتقصير منى فى أمرك أم لتقصير المنصور كان فى أمر أبيك لولا أن الخليفة إذا وهب شيئاً استحى أن يرجع فيه لـكان أقرب شىء بينى وبينك إلى الأرض رأسك قم وإياك وما عدت . قال : فخرج محمد بن أبى العباس ومضى إلى طاهر بن الحسين وكان زوج أخته فقال له كان من قصتى كيت وكيت وكان يحجبه على النبيذ فتح الخادم ، وياسر يتولى الخلع وحسين يسقى ، وأبو مريم غلام سعيد الجوهرى يتخلف فى الحوائج ، فركب طاهر إلى الدار فدخل فتح فقال : طاهر بالباب . فقال إنه ليس من أوقاته . إئذن له فدخل طاهر فسلم فرد عليه السلام وقال : اسقوه رطلا فأخذه فى يده اليمنى وقال له : اجلس فخرج وشربه ، ثم عاد وقد شرب المأمون رطلا آخر فقال : اسقوه الثانى . ففعل كفعله الأول . ثم دخل فقال له المأمون اجلس فقال : يا أمير المؤمنين ليس لصاحب الشرطة أن يجلس بين يدى سيده . قال المأمون ذاك فى مجلس العامة فأما مجلس الخاصة فطلق . قال : وبكى المأمون وتغرغرت عيناه فقال له طاهر : يا أمير المؤمنين لم تبـكى لا أبكى الله عينك ، فوالله لقد دانت لك البلاد ، وأذعن لك العباد ، وصرت إلى المحبة فى كل أمرك . فقال : أبكى لأمر ذكره ذل ، وستره حزن ، ولن يخلو أحد من شجن فتـكلم بحاجة إن كانت لك . قال يا أمير المؤمنين :

محمد [بن أبى العباس] أخطأ فأقله عثرته وارض عنه . قال : قد رضيت عنه وأمرت بصلته ورد مرتبته ولولا أنه ليس من أهل الأنس لأحضرته . قال : وانصرف طاهر فأعلم ابن أبى العباس ذلك ثم دعا بهارون بن جيغويه فقال : إن للكتاب عشيرة وإن أهل خراسان يتعصب بعضهم لبعض نخذ معك ثلاثمائة ألف درهم فأعط الحسين الخادم مائتى ألف ، وأعط كاتبه محمد بن هارون مائة ألف وسله أن يسأل المأمون لم بكى ؟ قال : ففعل ذلك . قال : فلما تغدى قال : يا حسين اسقنى . قال : لا ، والله لا سقيتك أو تقول لى لم بكيت حين دخل عليك طاهر ؟ قال : يا حسين وكيف عنيت بهذا حتى سألتنى عنه ؟ قال : لغمى بذلك . قال : هو أمر إن خرج من رأسك قتلتك . قال : يا سيدى ومتى أخرجت لك سراً ؟ قال : إنى ذكرت محمداً أخى وما ناله من الذلة فخنقتنى العبرة فاسترحت إلى الإفاضة ولن يفوت طاهراً منى ما يكره ، قال : فأخبر حسين طاهراً بذلك فركب طاهر إلى أحمد بن أبى خالد فقال له : إن الثناء منى ليس برخيص ، وإن المعروف عندى ليس بضائع ، فغيبنى عن عينه . فقال له : سأفعل فبكر على غداً . قال : وركب ابن أبى خالد إلى المأمون فلما دخل عليه قال له : ما نمت الليلة . قال : ولم ويحك . قال : لأنك وليت غسان خراسان وهو ومن معه أكلة رأس فأخاف أن يخرج عليك خارجة من الترك فتصطلمه . فقال : لقد فكرت فيما فكرت فيه . قال : فمن ترى ؟ قال : طاهر بن الحسين . قال : ويلك يا أحمد هو والله خالع . قال : أنا الضامن له . قال له : فأنفذه . قال : فدعا بطاهر من ساعته فنزل فى بستان خليل بن هاشم فحمل إليه فى كل يوم أقام فيه مائة ألف فأقام شهراً فحملت إليه عشرة آلاف ألف التى تحمل إلى صاحب خراسان .

قال أبو حسان الزيادى : وكان قد عقد له على خراسان والجبال من حلوان إلى خراسان وقد كان شخوصه من بغداد يوم الجمعة لليلة بقيت من ذى القعدة

سنة خمس ومائتين ، وقد كان عسكر قبل ذلك بشهرين فلم يزل مقيماً فى عسكره .
قال أبو حسان : وكان سبب ولايته فيما أجمع الناس عليه أن عبد الرحمن المطوعى
[جمع جوعا بنيسابور ليقاتل بهم الحرورية[١]] بغير أمر والى خراسان فتخوفوا
أن يكون ذلك لأجل عمل عمله وكان غسان بن عباد يتولى خراسان من قبل
الحسن بن سهل وهو ابن عم الفضل بن سهل . وذكر أبو العباس محمد بن على بن
طاهر عن على بن هارون أن طاهر بن الحسين قبل خروجه إلى خراسان وتوليته
لها ندبه الحسن بن سهل للخروج إلى محاربة نصر بن شبث فقال : حاربت خليفة
وسقت الخلافة [إلى خليفة] وأومر بمثل هذا وإنما كان ينبغى أن توجه لهذا
قائداً من قوادى فكان سبب المصارمة بين طاهر والحسن . قال : وخرج طاهر
إلى خراسان لما تولاها وهو لا يكلم الحسن بن سهل فقيل له فى ذلك فقال :
ما كنت لأحل عقدة عقدها لى فى مصارمته .

***

ذكر خروج عبد الله بن طاهر

إلى مضر لمحاربة نصر بن شبث
واستخلافه إسحاق بن إبراهيم على مدينة السلام

حدثنى يحيى بن الحسن بن عبد الخالق قال : لما كان فى شهر رمضان من سنة
خمس أو ست دعا المأمون عبد الله بن طاهر فلما دخل عليه قال له : يا عبد الله إنى
استخير الله منذ شهر وأرجو أن يخير الله لى ، ورأيت الرجل يصف ابنه ليطريه
لرأيه فيه وليرفعه ورأيتك فوق ما قال أبوك فيك وقد مات يحيى بن معاذ
واستخلف ابنه أحمد بن يحيى وليس بشىء ، وقد رأيت توليتك مضر ومحاربة
نصر بن شبث . فقال : السمع والطاعة يا أمير المؤمنين ، وأرجو أن يجعل الله

(١) من تاريخ ابن جرير .

لأمير المؤمنين الخيرة وللمسلمين . قال : فعقد له . ثم أمر أن تقطع حبال القصارين عن طريقه [وتنحى[١]] عن الطرقات [المظال] لئلا يكون فى طريقه ما يرد لواءه ثم عقد له لواء [مكتوباً] عليه بصفرة ما يكتب عن الألوية وزاد فيه المأمون يا منصور . وخرج ومعه الناس فصار إلى منزله . ولما كان من غد ركب إليه الناس وركب الفضل بن الربيع فأقام عنده الليل . قال : فقام الفضل فقال عبد الله : يا أبا العباس قد تفضلت وأحسنت وقد تقدم أبى وأخوك إلى أن لا أقطع أمراً دونك ، وأحتاج أن استطلع رأيك واستضىء بمشورتك ، فإن رأيت أن تقيم عندى إلى أن نفطر فافعل ؟ قال : فقال الفضل : إن لى حالات ليس يمكننى معها الإفطار ههنا . قال : إن كنت تكره طعام أهل خراسان فابعث إلى مطبخك يأتوا بطعامك فقال له : إن لى ركعات بين العشاء والعتمة . قال : فى حفظ الله ، قال : وخرج معه إلى صحن داره يشاوره فى خالص أموره .

قال وكان خروج عبد الله الصحيح إلى مضر لقتال نصر بن شبث بعد خروج أبيه إلى خراسان بستة أشهر واستخلف إسحاق بن إبراهيم على بغداد والسندى ابن يحيى على الجانب الشرقى ، وعياش بن القاسم على الجانب الغربى قال : ولما ولى طاهر ابنه عبد الله ديار ربيعة كتب إليه كتاباً نسخته :

عليك بتقوى الله وحده ، لا شريك له ، وخشيته ومراقبته ، ومزايلة سخطه ، وحفظ رعيتك ، ولزوم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمعادك وما أنت صائر إليه وموقوف عليه ، ومسئول عنه ، والعمل فى ذلك كله بما يعصمك الله ، وينجيك يوم لقائه من عذابه وأليم عقابه ، فإن الله قد أحسن إليك وواجب عليك الرأفة بمن استرعاك أمرهم من عباده ، وألزمك العدل عليهم ، والقيام بحقه وحدوده

---

(١) هكذا فى ابن جرير وفى الأصل (تسقط) .

فيهم ، والذب عنهم والدفع عن حريمهم وبيضتهم ، والحقن لدمائهم ، والأمن لسبلهم ، وإدخال الراحة عليهم فى معايشهم ، ومؤاخذك بما فرض عليك من ذلك وموقفك عليه وسائلك عنه ومثيبك عليه بما قدمت وأخرت ، ففرغ لذلك فكرك ، وعقلك ، وبصرك ، ورؤيتك ولا يذهلك عنه ذاهل ، ولا يشغلك عنه شاغل ، فإنه رأس أمرك ، وملاك شأنك ، وأول ما يوفقك الله به لرشدك . وليكن أول ما تلزم به نفسك ، وتنسب إليه فعالك المواظبة على ما افترض الله عليك من الصلوات الخمس والجماعة عليها بالناس قبلك فى مواقيتها وعلى سنتها فى إسباغ الوضوء لها ، وافتتاح ذكر الله فيها ، وترتل فى قراءتك وتمكن فى ركوعك وسجودك ، وتشهدك ، ولتصدق فيها لربك نيتك ، واحضض عليها جماعة من معك ، وتحت يدك ، وادأب عليها فإنها كما قال الله : تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، ثم أتبع ذلك الأخذ بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمثابرة على فرائضه [خلائقه] واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده ، وإذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله وتقواه ، ولزوم ما أنزل الله فى كتابه من أمره ونهيه ، وحلاله وحرامه ، وائتمان ما جاءت به الآثار عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قم فيه بما يحق لله عليك ، ولا تمل عن العدل فيما أحببت أو كرهت لقريب من الناس أو بعيد ، وآثر الفقه وأهله ، والدين وحملته ، وكتاب الله والعاملين به ، فإن أفضل ما تزين به المرء الفقه فى دين الله والطلب له ، والحث عليه ، والمعرفة بما يتقرب فيه منه إلى الله فإنه الدليل على الخير كله ، والقائد له والآمر به ، والناهى عن المعاصى والموبقات كلها ، وبها مع توفيق الله تزداد العباد معرفة بالله تعالى ذكره وإجلالا له ، ودركا للدرجات العلى فى المعاد مع ما فى ظهوره للناس من التوقير لأمرك ، والهيبة لسلطانك ، والأنسة بك ، والثقة بعدلك .

وعليك بالاقتصاد فى الأمور كلها ، فليس شىء أبين نفعاً ، ولا أحضر أمناً ،

ولا أجمع فضلا من القصد ، والقصد داعية إلى الرشد ، والرشد دليل على التوفيق ، والتوفيق منقاد إلى السعادة. وقوام الدين والسنن الهادية بالاقتصاد، فآثره فى دنياك كلها ،ولا تقصر فى طلب الآخرة ، وطلب الأجر والأعمال الصالحة ، والسنن المعروفة، ومعالم الرشد ، فلا غاية للاستكثار من البر والسعى له إذا كان يطلب به وجه الله ومرضاته ، ومرافقة أوليائه فى دار كرامته ، واعلم أن القصد فى شأن الدنيا يورث العز ويحصن من الذنوب وإنك لن تحوط نفسك ومن يليك ، ولا تستصلح أمورك بأفضل منه فأته واهتد به تتم أمورك وتزد به مقدرتك ، وتصلح به خاصتك وعامتك وأحسن الظن بالله جل ذكره يستقم لك رعيتك ، والتمس الوسيلة إليه فى الأمور كلها تستدم به النعمة عليك ، ولا تتهمن أحداً من الناس فيما توليه من عملك قبل تكشف أمره بالتهمة ، فإن إيقاع التهم بالبرآء والظنون السيئة بهم مأثم ، واجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك ويطرد عنك سوء الظن بهم وارفضه عنهم ، يعنك ذلك على اصطناعهم ورياضتهم ، ولا يجدن عدو الله الشيطان فى أمرك مغمزاً فإنه إنما يكتفى بالقليل من وهنك فيدخل عليك من الغم فى سوء الظن ما ينغصك لذاذة عيشك . واعلم أنك تجد بحسن الظن قوة وراحة ، وتكفى به ما أحببت كفايته من أمورك ، وتدعو به الناس إلى محبتك ، والاستقامة فى الأمور كلها لك ، ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك ، والرأفة برعيتك أن تستعمل المسألة والبحث عن أمورك ، والمباشرة لأمور الأولياء ، والحياطة للرعية ، والنظر فيما يقيمها ويصلحها ، بل لتكن المباشرة لأمور الأولياء ، والحياطة للرعية ، والنظر فى حوائجهم ، وحمل مؤوناتهم آثر عندك وأوجب إليك مما سوى ذلك ، فإنه أقوم للدين ، وأحيا لاسنة ، وأخلص نيتك فى جميع هذا ، وتفرد بتقويم نفسك تفرد من يعلم أنه مسئول عما صنع ، ومجزى بما أحسن ، ومأخوذ بما أساء ، فإن الله جعل الدين حرزاً وعزاً ، ورفع من اتبعه وعززه فاسلك بمن تسوسهم وترعاهم نهج الدين وطريقة الهدى .

وأقم حدود أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوا ، ولا تعطل ذلك ولا تهاون به ، ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة فإن تفريطك فى ذلك مما يفسد عليك حسن ظنك ، واعزم على أمرك فى ذلك بالسنن المعروفة ، وجانب البدع والشبهات يسلم لك دينك ، وتقم لك مروتك ، وإذا عاهدت عهداً فوف به ، وإذا وعدت بالخير فأنجزه ، واقبل الحسنة وانتفع بها وأغمض عن عيب كل ذى عيب من رعيتك ، واشدد لسانك عن قول الكذب والزور ، وأبغض أهله ، وأقص أهل النميمة فإن أول فساد أمرك فى عاجل الأمور وآجلها تقريب الكذبة وأهل الجراة على الكذب لأن الكذب رأس المآثم ، والزور [والنميمة خاتمتها لأن] صاحب النميمة لا يسلم له صاحب ، ولا يستقم لمطيعه أمر ، وأحبب أهل الصلاح والصدق وأعن الأشراف بالحق ، وواس الضعفاء ، وصل الرحم ، وابتغ بذلك وجه الله ، وعزة أمره والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة منه ، واجتنب سوء الأهواء والجور واصرف عنهما رأيك ، وأظهر براءتك من ذلك لرعيتك . وأنعم بالعدل سياستهم وقم بالحق فيهم وبالمعرفة التى تنتهى بك إلى سبيل الهدى . واملك نفسك عند الغضب وآثر الوقار والحلم ، وإياك والحدة ، والطيرة والغرور فيما أنت بسبيله . وإياك [أن] تقول إنى مسلط أفعل ما أشاء فإن ذلك سريع فيك إلى نقص الرأى ، وقلة اليقين بالله وحده لا شريك له ، أخلص الله لنا ولك النية فيه ، واليقين به .

واعلم أن الملك لله يعطيه من يشاء وينزعه ممن يشاء ، ولن تجد تغيراً لنعمه وحلول نقمه إلى أحد أسرع منه إلى حملة النعمة من أصحاب السلطان ، والمبسوط لهم فى الدولة إذا كفروا بنعمة الله وإحسانه واستطالوا بما آتاهم الله من فضله . ودع عنك شره نفسك ولتكن ذخائرك وكنوزك التى تذخر وتكنز البر والتقوى والمعدلة واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم ، والتفقد لأمورهم ، والحفظ لدهمائهم ، والإغاثة لملهوفهم .

واعلم أن الأموال إذا كثرت وذخرت فى الخزائن لا تثمر ، وإذا كانت فى صلاح الرعية وإعطاء حقوقهم ، وكف المؤونة عنهم نمت ، وزكت وصلحت به العامة ، وتزينت به الولاة ، وطاب به الزمان ، وأعقب فيه العز والمنعة . فليكن أكثر خزائنك تفريق الأموال فى عمارة الإسلام وأهله ، ووفر منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم ، وأوف رعيتك من ذلك حصصهم ، وتعهد ما يصلح أمورهم ومعايشهم فإنك إذا فعلت قرت النعمة عليك ، واستوجبت المزيد من الله . وكنت بذلك على جباية خراجك وجمع أموال رعيتك وعملك أقدر ، وكان الجمع لما شملهم من عدلك وإحسانك أساس لطاعتك ، وأطيب أنفساً لكل ما أردت فأجهد نفسك فيما حددت لك فى هذا الباب ، ولتعظم خشيتك فيه فإنما يبقى من المال ما أنفق فى سبيل حقه . واعرف للشاكرين شكرهم وأثبهم عليه ، وإياك أن تنسيك الدنيا وغرورها هول الآخرة فتتهاون بما يحق عليك فإن التهاون يورث التفريط ، والتفريط يورث البوار ، وليكن عملك لله وفيه تعالى وارج الثواب فإن الله قد أسبغ عليك نعمته وأظهر عليك فضله فاعتصم بالشكر وعليه فاعتمد يزدك الله خيراً وإحساناً ، فإن الله يثيب بقدر شكر الشاكرين ، وسيرة المحسنين ، واقض الحق فيما حمل من النعيم وألبس من العافية والكرامة ، ولا تحقرن ذنباً ، ولا تمايلن حاسداً ، ولا ترحمن فاجراً ، ولا تصلن كفوراً ، ولا تداهنن عدواً ، ولا تصدقن نماماً ، ولا تأمنن غداراً ، ولا توالين فاسقاً ، ولا تتبعن غاوياً ، ولا تحمدن مرائياً ، ولا تحقرن إنساناً ، ولا تردن سائلا فقيراً ، ولا تجيبن باطلا ، ولا تلاحظن مضحكاً ، ولا تخلفن وعداً ، ولا ترهبن فخراً ولا تعملن غضباً ، ولا تأتين بذخاً ، ولا تمشين مرحاً ، ولا تركبن سفهاً ، ولا تفرطن فى طلب الآخرة ولا تدفع الأيامى عباساً ، ولا تغمضن عن ظالم رهبة منه ومحاباة ، ولا تطلبن ثواب الآخرة فى الدنيا .

وأكثر مشاورة الفقهاء واستعمل نفسك بالحلم . وخذ عن أهل التجارب

وذوى العقل والرأى والحكمة ، ولا تدخلن فى مشورتك أهل الدقة والبخل ، ولا تسمعن لهم قولا ، فإن ضررهم أكثر من منفعتهم ، وليس شىء أسرع فساداً لما استقبلت فى أمر رعيتك من الشح ، واعلم أنك إذا كنت حريصاً كنت كثير الأخذ ، قليل العطية ، وإذا كنت كذلك لم يستقم لك أمرك إلا قليلا فإن رعيتك إنما تعتقد على محبتك بالكف عن أموالهم ، وترك الجور عليهم ، ويدوم صفاء أوليائك لك بالإفضال عليهم ، وحسن العطية لهم ، واجتنب الشح واعلم أنه أول ما عصى به الإنسان ربه ، وأن العاصى منزله خزى وهو قول الله عز وجل فى كتابه : (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون[1]) فسهل طريق الجود بالحق ، واجعل للمسلمين كلهم من نيتك حظاً ونصيباً ، وأيقن أن الجود أفضل أعمال العباد ، واعدد لنفسك خلقاً وارض به عملا ومذهباً ، وتفقد أمور الجند فى دواوينهم ومكاتبهم ، وأدرر عليهم أرزاقهم ووسع عليهم فى معايشهم يذهب الله بذلك فاقتهم ، ويقوى لك أمرهم ، ويزيد به قلوبهم فى طاعتك وأمرك إخلاصاً وانشراحا ، وحسب ذى السلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيته ذا رحمة فى عدله ، وحيطته ، وإنصافه ، وعنايته ، وشفقته ، وبره وتوسعته ، فزايل مكروه أحد البابين باستشعار فضيلة الباب الآخر ، ولزوم العمل به تلق إن شاء الله نجاحا ، وصلاحا ، وفلاحا .

واعلم أن القضاء من الله بالمكان الذى ليس به شىء من الأمور لأنه ميزان الله الذى يعتدل عليه أحوال الجميع فى الأرض وبإقامة العدل فى القضاء والعمل تصلح الرعية ، وتأمن السبل ، وينتصف المظلوم ؛ ويأخذ الناس حقوقهم ، وتحسن المعيشة ، ويؤدى حق الطاعة ، ويرزق الله العافية والسلامة ، ويقوم الدين ، وتجرى

---

(١) سورة الغاشية ١٦ .

السنن والشرائع ، وعلى مجاريها ينتجز الحق والعدل فى القضاء ، واشتد فى أمر الله وتورع عن النطف ، وامض لإقامة الحدود ، وأقلل العجلة ، وابعد من الضجر والقلق ، واقنع بالقسم ، ولتسكن ريحك ، ويقر جدك ، وانتفع بتجربتك وانتبه فى صمتك واسدد فى منطقك ، وأنصف الخصم ، وقف عند الشبهة ، وأبلغ فى الحجة ، ولا يأخذك فى أحد من رعيتك محاباة ، ولا محاماة ، ولا لومة لائم ، وتثبت ، وتأن ، وراقب ، وانظر ، وتدبر ، وتفكر ، واعتبر ، وتواضع لربك وارأف بجميع الرعية ، وسلط الحق على نفسك ، ولا تسرعن إلى سفك دم ، فإن الدماء من الله بمكان عظيم انتهاكا لها بغير حقها ، وانظر هذا الخراج الذى قد استقامت عليه الرعية ، وجعله الله للاسلام عزاً ورفعة ، ولأهله سعة ومنعة ، ولعدوه وعدوهم كبتاً وغيظاً ، ولأهل الكفر من معاهدتهم ذلا وصغاراً ، فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية ، والعموم فيه ، ولا ترفعن منه شيئاً عن شريف لشرفه ، ولا عن غنى لغناه ، ولا عن كاتب لك ، ولا أحد من خاصتك ، ولا تأخذن منه فوق الاحتمال له ، ولا تكلفن أمراً فيه شطط ، واحمل الناس كلهم على مر الحق ، فإن ذلك أجمع لألفتهم ، وألزم لرضى العامة .

واعلم أنك جعلت بولايتك خازناً ، وحافظاً ، وراعياً ، وإنما سمى أهل عملك رعيتك لأنك راعيهم وقيمهم تأخذ منهم ما أعطوك من عفوهم ومقدرتهم ، وتنفقه فى قوام أمرهم وصلاحهم ، وتقويم أودهم فاستعمل عليهم فى كور عملك ذوى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل ، والعلم بالسياسة والعفاف ووسع عليهم فى الرزق فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأسند إليك ، ولا يشغلنك عنه شاغل ، ولا يصرفنك عنه صارف فإنك متى آثرته وقمت فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربك ، وحسن الأحدوثة فى عملك واحترزت المحبة

من رعيتك وأعنت على الإصلاح فدرت الخيرات ببلدك وفشت العمارة بناحيتك وظهر الخصب فى كورك ، فكثر خراجك ، وتوفرت أموالك ، وقويت بذلك على ارتباط جندك ، وإرضاء العامة بإضافة العطاء فيهم من نفسك ، وكنت محمود السياسة ، ومرضى العدل فى ذلك عند عدوك ، وكنت فى أمورك كلها ذا عدل وقوة ، وآلة وعدة ، فنافس فى هذا ولا تقدم عليه شيئاً تجد مغبة أمرك إن شاء الله ، واجعل فى كل كورة من عملك أميناً يخبرك أخبار عمالك ، ويكتب إليك بسيرهم وأعمالهم حتى كأنك مع كل عامل فى عمله معاين لأموره كلها وإن أردت أن تأمره بأمر فانظر فى عواقب ما أردت من ذلك فإن رأيت السلامة فيه والعافية ورجوت فيه حسن الدفاع والنصح والصنع فأمضيه ، وإلا فتوقف عنه وارجع أهل البصر والعلم به . ثم خذ فيه عدته فإنه ربما نظر الرجل إلى أمر من أمره قد واتاه على ما يهوى فقواه ذلك وأعجبه ، وإن لم ينظر فى عواقبه أهلكه ونقض عليه أمره ، فاستعمل الحزم فى كل ما أردت ، وباشره بعد عون الله بالقوة ، وأكثر استخارة ربك فى جميع أمورك ، وافرغ من عمل يومك ولا تؤخره لغدك ؛ وأكثر مباشرته بنفسك فإن لغد أموراً وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذى أخرت ؛ واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه ؛ وإذا أخرت عمله اجتمع عليك أمور يومين فيشغلك ذلك حتى تعرض عنه ؛ وإذا أمضيت لكل يوم عمله أرحت نفسك ، وبدنك وأحكمت أمور سلطانك ، وانظر أحرار الناس وذوى الشرف منهم ثم استيقن صفاء طويتهم وتهذيب مودتهم لك ؛ ومظاهرتهم بالنصح والمخالصة على أمرك ؛ فاستصلحهم وأحسن إليهم . وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة فاحتمل مؤونتهم وأصلح حالهم ، حتى لا يجدوا لخلتهم مساً ، وأفرد نفسك للنظر فى أمور الفقراء والمساكين ، ومن لا يقدر على رفع مظلمته إليك ، والمحتقر الذى لا علم له بطالب حقه فسل عنه أخفى مسائله ، ووكل بأمثاله

أهل الصلاح من رعيتك ، ومرهم برفع حوائجهم وحالاتهم إليك لتنظر فيها بما يصلح الله أمرهم ، وتعاهد ذوى البأساء ويتاماهم وأراملهم واجعل لهم أرزاقا من بيت المال اقتداء بأمير المؤمنين أعزه الله فى العطف عليهم والصلة لهم ، ليصلح الله بذلك عيشهم ، ويرزقك به بركة وزيادة ، وأجر للأضراء من بيت المال ، وقدم حملة القرآن منهم والحافظين لأكثره فى الجراية على غيرهم ، وانصب لمرضى المسلمين دوراً تؤويهم ، وقواما يرفقونهم ؛ وأطباء يعالجون أسقامهم ، وأسعفهم بشهواتهم ما لم يؤد ذلك إلى سرف فى بيت المال .

واعلم أن الناس إن أعطوا حقوقهم ، وأفضل أمانيهم لم يرضهم ذلك ، ولم تطب أنفسهم دون رفع حوائجهم إلى ولاتهم طمعاً فى نيل الزيادة ، وفضل الترفق منهم ، وربما برم المتصفح لأمور الناس بكثرة ما يرد عليه ويشغل ذهنه وفكره منها ما يناله به مؤونة ومشقة . وليس من يرغب فى العدل ، ويعرف محاسن أموره فى العاجل ، وفضل ثواب الآجل كالذى يستقبل ما يقربه إلى الله عز وجل . ويلتمس رحمته به ، وأكثر الإذن للناس عليك ، وأبرز لهم وجهك ، وسكن لهم أحراسك واخفض لهم جناحك ، وأظهر لهم بشرك ، ولاين لهم فى المسألة والمنطق واعطف عليهم بجودك وفضلك ، وإذا أعطيت فأعط بسماحة وطيب نفس والتماس للصنيعة والأجر غير مكدر ولا منان ؛ فإن العطية على ذلك تجارة مربحة إن شاء الله .

واعتبر بما ترى من أمور الدنيا ومن مضى قبلك من أهل السلطان والرئاسة فى القرون الخالية ، والأمم البائدة . ثم اعتصم فى أحوالك كلها بأمر الله ، والوقوف عند محبته ، والعمل بشريعته وسنته ، وإقامة دينه وكتابه ، واجتنب ما فارق ذلك وخالفه ودعا إلى سخط الله ، واعرف ما تجمع عمالك من الأموال

وينفقون منها ، ولا تجمع حراماً ولا تنفق إسرافاً ، وأكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم ، وليكن أكرم دخلائك وخاصتك عليك من إذا رأى عيباً فيك لم تمنعه هيبتك من إنهاء ذلك إليك فى سر ، وإعلامك ما فيه من النقص فإن أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك ، وانظر عمالك الذين بحضرتك وكتابك فوقت لكل رجل منهم فى كل يوم وقتاً يدخل عليك فيه بكتبه ومؤامراته وما عنده من حوائج عمالك وأمور كورك ورعيتك ، ثم فرغ لما يورده عليك من ذلك سمعك وبصرك ، وفهمك ، وعقلك وكرر النظر إليه والتدبير له ، فما كان موافقاً للحزم والحق فأمضه واستخر الله فيه ، وما كان مخالفاً ذلك فاصرفه إلى التثبت فيه ، والمسألة عنه ، ولا تمنن على رعيتك ، ولا غيرهم بمعروف تأتيه إليهم ، ولا تقبل من أحد منهم إلا الوفاء والاستقامة والعون فى أمور أمير المؤمنين ، ولا تصنعن المعروف إلا على ذلك .

وتفهم كتابى إليك وأكثر النظر فيه والعمل به ، واستعن بالله على جميع أمورك واستخره فإن الله جل وعز مع الصلاح وأهله ، وليكن أعظم سيرتك ، وأعظم رغبتك ما كان لله جل وعز رضى ، ولدينه نظاماً ، ولأهله عزاً وتمكينا ، وللملة والذمة عدلا وصلاحا ، وأنا أسأل الله أن يحسن عونك ، وتوفيقك ، ورشدك ، وكلاءتك . وأن ينزل عليك فضله ورحمته بتمام فضله عليك وكرامته لك حتى يجعلك أفضل أمثالك نصيباً ، وأوفرهم حظاً ، وأسناهم ذكراً وأمراً ، وأن يهلك عدوك ، ومن ناوأك وبغى عليك ويرزقك من رعيتك العافية ، ويحجز الشيطان عنك ووساوسه حتى يستعلى أمرك بالعز والقوة والتوفيق إنه قريب مجيب .

قال : ولما عهد طاهر بن الحسين إلى عبد الله ابنه هذا العهد تنازعه الناس

وكتبوه وتدارسوه ، وشاع أمره حتى بلغ المأمون فدعا به وقرىء عليه وقال : ما بقى أبو الطيب شيئاً من أمر الدين والدنيا ، والتدبير والرأى ، والسياسة وإصلاح الملك والرعية ، وحفظ البيعة ، وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا وقد أحكمه وأوصى به وتقدم فيه . وأمر أن يكتب بذلك إلى جميع العمال فى نواحى الأعمال . وتوجه عبد الله إلى عمله فسار بسيرته واتبع أمره وعمل بما عهد إليه .

وذكر أبو حسان الزيادى وغيره : أن طاهراً لما تولى خراسان كان خروجه من بغداد يوم الأحد لليلة بقيت من ذى القعدة ، وكان عسكر قبل ذلك بشهرين فلم يزل مقيما فى عسكره حتى خرج فى هذا اليوم ، وإنما كان سبب ولايته أنه قتل عبد الرحمن المطوعى الحرورى بغير أمر والى خراسان فتخوفوا أن يكون لذلك أصل وكان والى خراسان غسان بن عباد ابن عم الفضل بن سهل .

وقال محمد بن موسى الخوارزمى المنجم : عقد المأمون لواء ذى اليمينين طاهر بن الحسين على المغرب كله بعد قدومه مدينة السلام بشهر ، وكان طاهر كلم المأمون فى لباس الخضرة فطرحها بعد دخوله بغداد بثمانية أيام ، ولما تولى طاهر ببغداد الشرطة لإحدى عشرة ليلة بقيت من ذى القعدة . ثم ولى طاهر خراسان فى سنة خمس ومائتين فى ذى القعدة وخرج طلحة بن طاهر على مقدمته إلى خراسان ؛ ثم كان خروجه من بغداد إلى خراسان فى ذى الحجة ، وكان خروج أبى العباس عبد الله بن طاهر بعد خروج طاهر إلى خراسان إلى الجزيرة لمحاربة نصر بن شبث العقيلى ، وكان ظفر عبد الله بن طاهر بنصر بن شبث وإدخاله مدينة السلام يوم الاثنين للنصف من رجب سنة تسع ومائتين .

قال القاسم بن سعيد : سمعت الفضل بن مروان يقول ركب طاهر بن الحسين ويحيى بن معاذ ، وأحمد بن أبى خالد يوماً من الأيام بعد دخول المأمون بغداد حراقة وعصفت عليهم الريح عصفاً شديداً وقد قربوا من دار أبى إسحاق فقالوا :

نخرج إلى أبى إسحاق فإن الريح قد منعتنا من السير . قال : فخرجوا إلى أبى إسحاق فقامت عليه القيامة لمفاجأتهم إياه . قال : ولم يكن تغدى بعد فوظيفته على حالها قال الفضل : فوجهت فى الازدياد ، وأمرت بطبق صغير فيه رغيف أو اثنان وفروج وما أشبه ذلك فوضع بين أيديهم ليتشاغلوا به إلى أن يدرك ما تقدمت فى تهيئته . قال : فقال أحمد بن أبى خالد : ليس هذا وقت طعام ارفعوا هذا الساعة . فقال طاهر : أما إذ كان هذا ليس وقت طعام لأحمد بن يزيد فليس وقت طعامنا نحن إلا بعد ثلاثة أيام . قال : ثم أدرك الطعام فكان الأمر جميلا جداً . وبلغ المأمون فسأل أبا إسحاق عنه . فأخبره فجعل يقول : لقد احتال الفضل وملح طاهر .

سيرة المأمون ببغداد

وطرائف من أخباره وأخبار أصحابه ، وقواده ، وكتابه ، وحجابه

قال جعفر بن محمد الأنماطى : لما دخل المأمون بغداد وقرّبها قراره وأمر أن يدخل عليه من الفقهاء ، والمتكلمين ، وأهل العلم جماعة يختارهم لمجالسته ومحادثته وكان يقعد فى صدر نهاره على لبود فى الشتاء ، وعلى حصر فى الصيف ليس معهما شىء من سائر الفرش ، ويقعد للمظالم فى كل جمعة مرتين لا يمتنع منه أحد . قال : واختير له من الفقهاء لمجالسته مائة رجل فما زال يختارهم طبقة بعد طبقة حتى حصل منهم عشرة كان أحمد بن أبى دواد أحدهم ، وبشر المريسى . قال جعفر بن محمد الأنماطى وكنت أحدهم . قال : فتغدينا يوماً عنده فظننت أنه وضع على المائدة أكثر من ثلاثمائة لون فكلما وضع لون نظر المأمون إليه فقال : هذا يصلح لكذا وهذا نافع لكذا ، فمن كان منكم صاحب بلغم ورطوبة فليجتنب هذا . ومن كان صاحب صفراء فليأكل من هذا ؛ ومن غلبت عليه السوداء فليأكل من هذا ، ومن أحب الزيادة فى لحمه فليأكل من هذا ، ومن كان قصده قلة الغذاء فليقتصر على هذا

قال : فو الله ما زالت تلك حاله فى كل لون يقدم حتى رفعت الموائد . قال : فقال له يحيى بن أكثم : يا أمير المؤمنين ، إن خضنا فى الطب كنت جالينوس فى معرفته ، أو فى النجوم كنت هرمس فى حسابه ، أو فى الفقه كنت على بن أبى طالب صلوات الله عليه فى علمه ، أو ذكر السخاء فأنت فوق حاتم فى جوده ، أو ذكرنا صدق الحديث كنت أبا ذر فى صدق لهجته ، أو الكرم كنت كعب بن مامة فى إيثاره على نفسه قال : فسر بذلك الكلام . وقال: يا أبا محمد ، إن الإنسان إنما فضل على غيره من الهوام بفعله ، وعقله ، وتمييزه . ولولا ذلك لم يكن لحم أطيب من لحم . ولا دم أطيب من دم .

وذكر لنا عبد الله بن محمد الفارسى ، عن ثمامة بن أشرس قال : لما قدم المأمون من خراسان وصار إلى بغداد أمر أن يسمى قوم من أهل الأدب يجالسونه ، ويؤامرونه فذكر له جماعة منهم الحسين بن الضحاك وكان من جلساء محمد المخلوع فقرأ أسماءهم حتى بلغ إلى اسم الحسين فقال : أليس الذى يقول فى المخلوع :

هَلَّا بَقِيتَ لِسَدِّ فَاقَتِنَا   فِينَا وَكَانَ لِغَيْرِكَ التَّلَفُ
فَلَقَدْ خَلَفْتَ خَلَائِفًا سَلَفُوا   وَلَسَوْفَ يُعُوزُ بَعْدَكَ الخَلَفُ

لا حاجة لى به لا يرانى والله إلا فى الطريق ، ولم يعاقب الحسين على ما كان منه فى هجائه له والتعريض به .

وحدث محمد بن عيسى ، عن عبد الله بن طاهر قال : كان المأمون إذا أمر أصحابه أن يعودوا للغداء والمقام قال لبعض علمائه : أعلم الخباز أنا قد أمرناهم بالعود . قال : فرآهم كأنهم يعجبون من ذلك فقال : أظنكم أنكرتم ماتسمعون ؟ قالوا : نعم يا أمير المؤمنين لأنا لا نشك أن كلما نحتاج إليه عتيد . قال : يهيء لنا ما يهيء فيكون فضله للغلمان فإذا احتبسناكم استغرقتم ما يكون لهم فنأمرهم أن يزدادوا ما يفضل عنا لهم .

قال : وعاتب المأمون المطلب بن عبد الله بن مالك فأجابه المطلب بالنفى عن نفسه . فقال : تقول هذا وأنت أول كل فتنة وآخرها ومن فعلك وفعلك . فقال له المطلب : يا أمير المؤمنين لا يدعونك استبطاؤك نفسك إلى كثرة التجنى على مما لعلى برىء منه . قال : أستغفر الله ، أرضيت ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين .

وذكر عن ثمامة قال : ارتد رجل من أهل خراسان فأمر المأمون بحمله إلى مدينة السلام فلما أدخل عليه أقبل بوجهه إليه ثم قال له : لأن أستحييك بحق واجب أحب إلى من أن أقتلك بحق ، ولأن أدفع عنك بالتهمة وقد كنت مسلماً بعد أن كنت نصرانياً وكنت فى الإسلام أفيح[مكاناً] وأطول أياماً فاستوحشت مما كنت به آنساً ، ثم لم تلبث أن رجعت عنا نافراً نخبرنا عن الشىء الذى أوحشك من الشىء الذى صار آنس لك من ذلك القديم وأنسك الأول فإن وجدت عندنا دواء داءك تعالجت به إذ كان المريض يحتاج إلى مشاورة الأطباء ، فإن أخطأك الشفاء ، ونبا عن داءك الدواء وكنت قد أعذرت ، ولم ترجع عن نفسك بلائمة فإن قتلناك بحكم الشريعة ترجع أنت فى نفسك إلى الاستبصار والثقة ، وتعلم أنك لم تقصر فى اجتهاد ، ولم تدع الأخذ بالحزم . فقال المرتد : أوحشنى ما رأيت من كثرة الاختلاف فى دينكم . قال المأمون : فإن لنا اختلافين . أحدهما : كالاختلاف فى الأذان ، وتكبير الجنائز والاختلاف فى التشهد ، وصلاة الأعياد وتكبير التشريق ، ووجوه القراءات ، واختلاف وجوه الفتيا وما أشبه ذلك وليس هذا باختلاف إنما هو تخير وتوسعة وتخفيف من المحنة . فمن أذن مثنى ، وأقام فرادى ، لم يؤثم . من أذن مثنى وأقام مثنى ولا يتعايرون ولا يتعايبون ، أنت ترى ذلك عياناً ، وتشهد عليه بياناً . والاختلاف الآخر : كنحو الاختلاف فى تأويل الآية من كتابنا ، وتأويل الحديث عن نبينا صلى الله عليه وسلم مع إجماعنا على أصل التنزيل ، واتفاقنا على عين الخبر : فإن كان الذى أوحشك هذا حتى أنكرت كتابنا ، فقد ينبغى أن يكون اللفظ بجميع ما فى التوراة والإنجيل

متفقاً على تأويله كالاتفاق على تنزيله ، ولا يكون بين الملتين من اليهود والنصارى اختلاف فى شىء من التأويلات ، وينبغى لك ألا ترجع إلا إلى لغة لا اختلاف فى ألفاظها ، ولو شاء الله أن ينزل كتبه ويجعل كلام أنبياءه ، وورثة رسله لاتحتاج إلى تفسير لفعل . ولكنا لم نر شيئا من الدين والدنيا دفع إلينا على الكفاية ، ولو كان الأمر كذلك لسقطت البلوى والمحنة ، وذهبت المسابقة والمنافسة ولم يكن تفاضل ، وليس على هذا بنى الله جل وعز الدنيا . فقال المرتد : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن المسيح عبد الله ورسوله ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم صادق ، وأنك أمير المؤمنين حقا . قال : فانحرف المأمون نحو القبلة فخر ساجداً ثم أقبل على أصحابه فقال : وفروا عليه عرضه . ولا تبروه فى يومه ريثما يعتق إسلامه كيلا يقول عدوه أنه يسلم رغبة ، ولا تنسوا نصيبكم من بره ونصرته وتأنيسه والفائدة عليه .

حدثنى عبد الله بن غسان بن عباد : أن أباه قدم من السند بسبعة آلاف ألف فعرضها على المأمون وقال : هذا المال فضل معى عن النفقة . فقال له المأمون : خذه فهو لك قال : لا والله يا أمير المؤمنين لا أقبله . فقال : خذ منه خمسة آلاف ألف فامتنع من ذلك فأمره أن يأخذ أربعة آلاف ألف وقال : لا أشفعك فى امتناعك من ذلك . فأخذها وفرق المال على ولد المأمون ، وأمهات أولاده ، وحشمه فارتجع المأمون المال وقال : إنما دفعناه إليك لتنتفع به ليس لتنفعنا به . فكنت أنا ممن ارتجع منه من هذا المال ثلاثين ألف درهم .

وقال أحمد بن أبى طاهر : قال محمد بن سعد كاتب الواقدى : رفع الواقدى رقعة إلى المأمون يشكو عليه الدين فوقع فيها بخطه : فيك خلتان : السخاء ، والحياء فأما السخاء فهو الذى أطلق يديك بما ملكت ، وأما الحياء فهو الذى حملك على ذكر بعض دينك . وقد أمرنا لك بضعف ما ذكرت ، فإن قصرنا عن بلوغ

حاجتك فبجنايتك على نفسك ، وإن كنا بلغنا بغيتك فزد فى بسط يدك فإن
خزائن الله مفتوحة ، ويده بالخير مبسوطة .

وذكر عن ثمامة قال : لما دخل المأمون مدينة السلام حضرت مجلسه يوما وقد
جاءوه برجل زعم أنه خليل الرحمان فقال لى المأمون : سمعت أحداً أجرأ على الله
من هذا ؟ فقلت : إن رأى أمير المؤمنين أن يأخذ لى فى مناظرته ؟ قال شأنك به .
قال فقلت له : يا هذا : إن إبراهيم كانت معه براهين وآيات . قال : وما كانت
براهينه وآياته ؟ . قلت أضرمت له نار وألقى فيها فصارت عليه برداً وسلاما فنحن
نضرم لك ناراً ونطرحك فيها فإن كانت عليك برداً وسلاما صدقناك وآمنا بك .
قال : هات غير هذا . قلت : براهين موسى . قال وما براهينه ؟ قلت عصاه التى
ألقاها فإذا هى حية تسعى ، وفلق بها البحر فصار يبسا ، وألقاها فالتقفت ما أفك
السحرة قال : هات غير هذا . قلت : براهين عيسى . قال : وما هى ؟ قلت : يحيى
الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص ويخبر بما فى الضمير . قال : ما معى من هذا
الضرب شىء وقد قلت لجبريل إنكم توجهونى إلى شياطين فأعطونى حجة أذهب
بها وإلا لم أذهب فقال لى جبريل وغضب : قد جئت بالشر من الساعة اذهب أولا
فانظر ما يقول لك القوم ؟ فضحك المأمون وقال : هذا طيب. قلت يا أمير المؤمنين
هذا رجل هاج به المرة وأعلام ذلك بينة فيه . قال : صدقت . وأمر به إلى الحبس ،
وأن يعالج من مرة إن كان به .

قال بعض أصحابنا ، عن أبيه ، قال : بينا الحسن اللؤلؤى فى مجلس المأمون
وهو يطارحه شيئا من الفقه والمسائل إذ نعس المأمون فقال له اللؤلؤى[1] : أنمت

---

(١) كانت وفاة اللؤلؤى سنة ٢٠٤ هـ قبل دخول المأمون بغداد فالخبر رواية مجهول
عن مجهول والخبر بعده ترقيع للكذب (ز)

يا أمير المؤمنين ؟ ففتح المأمون عينه ثم قال : سوقى والله يا غلام خذ بيده فجاء الغلمان فأقاموه . وقال : لا يدخل مثل هذا علىّ . قال : فتمثل بعض أصحابه :

وَهَلْ يُنْبِتُ الخطى إلاَّ وشيجُهُ   وَتَنْبُتُ إلاَّ فى مَغارسها النَّخْلُ

وذكر القاسم بن سعيد أن هذا الخبر كان والمأمون ولى عهد بالرقة فى حياة الرشيد فبلغ الرشيد ذلك فتمثل ببيت زهير .

وحدثنى أبو الحسن على بن محمد ختن على بن الهيثم وكيل ولد المأمون . قال أخبرنى هارون بن المأمون بن سندس وكان يت الاعتزال أن المأمون قال له لأجمعن بينك وبين بشر فإن وجبت عليك الحجة ضربت عنقك ، وكان هارون يقول : لم أزل أتجنب مجالس بشر عند المأمون إلى أن فرق الدهر بيننا .

حدثنى الرامهرمزى وكان قدريا ، عن محمد بن إسحاق بن إبراهيم اليزيدى أنه سمع ثمامة يقول : إن المأمون عامى لتركه القول بالقدر .

حدثنا أحمد بن إسحاق بن جرير المروزى قال : سمعت إبراهيم بن السندى يقول : بعث المأمون إلىّ فأتيته فقال يا إبراهيم إنى أريدك لأمرجلل والله ماشاورت فيك أحداً ، ولا أشاور بك على أحد فاتق الله ولا تفضحنى . قال : قلت يا أمير المؤمنين : والله لو كنت شر من ذرأه الله لقدح فىّ هذا الكلام من مولاى فكيف ونيتى فى طاعته نية العبد الذليل لمولاه فقال : قد رأيت توليتك خبر ما وراء بابى إلى مصر فانظر أن تعمل بما يجب لله عليك ولا تراقب أحداً غيره . قلت : فإنى أستعين بالله على مرضاته وأستوفقه لطاعة مولاى ثم نهضت فبثثت أصحاب الأخبار فى أرباع بغداد فرفع إلى أن صاحب الحرس أخذ امرأة مع رجل نصرانى من تجار الكرخ فهجم عليهما فافتدى النصرانى نفسه بألف دينار . قال : فرفعت الخبر بهذا إلى المأمون فدعا المأمون عبد الله بن طاهر وهو ببغداد فقال :

أنظر فى هذا الخبر الذى رفعه إبراهيم بن السندى فقرأه فقال : يا أمير المؤمنين رفع إليك الباطل والزور وجعل يغريه بى ويحمله على وكان المأمون لين المكسر . قال : فأثر ذلك فى قلبه فبعث إلى فقال : يا إبراهيم، ترفع إلى الكذب وتحملنى على عمالى، قال : فكتبت رقعة ووجهتها إلى فتح غلامه ليوصلها إليه وقلت فيها يا أمير المؤمنين متى وقف صاحب خبر على ما وقفت عليه، ولو كانت الأخبار لاتصح إلا بشاهدى عدل ما صح خبر ولا كتبت به ، ولكن مجىء الأخبار إن لم يحضرها أقوام على غير تواطىء ولا تشاعر من كانوا ومن حيث كانوا ، وإنما يحضر الأخبار الطفل والمرأة والمحتال والذمر وابن السبيل فإن كان أحب الأمرين إلى أمير المؤمنين ألا نكتب بخبر ولا نرفعه حتى يصح بالعدول ويصح بالبراهين فعلت ذلك . وعلى أن لا يتهيأ ذلك فى سنة إلا مرة أو مرتين .

قال : فلما قرأ المأمون الرقعة جاءنى رسوله مع طلوع الفجر فقال : أجب . فأتيته بعد أن صليت فدخلت من باب الحمام فلما رآنى قال : اطمأن ثم قام وقد طلعت الشمس فصلى ركعتين أطال فيهما ثم سلم والتفت إلى وما فى مجلسه أحد ثم قال : يا إبراهيم إنى إنما قمت إلى الصلاة ليسكن بهرك ، ويفرج روعك ، وتقوى متنك ، وتمكن فى قعودك. قال : وكنت قعدت على ركبتى فقلت : والله . والله لا أضع قدر الخلافة ولا أجلس إلا جلوس العبد بين يدى مولاه . قال : فقام فصلى ركعتين دون الأولتين ثم سلم وحمد الله وأثنى عليه وقال : هذه رقعتك فى ثنى وسادتى قد قرأتها الليلة أربع مرات وقد صدقت فيما قلت إلا أنى آمر وأدارى عمالى وعمالهم مدارة الخائف والله ما أجد إلى حملهم على المحجة البيضاء سبيلا فاعمل لى على حسب ما ترانى أعمل وإنْ لهم تسلم لك أيامك ، وبعض دينك وفى حفظ الله إذا شئت . قال: فانصرفت ودعوت أصحاب الأخبار فقلت داروا هؤلاء القوم وارفقوا بهم .

وذكر إبراهيم بن السندى قال : وجدنا رقاعاً فى طرقات بغداد فيها شتم

للسلطان وكلام قبيح فكرهت رفعها على جهرتها لما فيها . وكرهت أن أطوى ذكرها وأنا صاحب خبر فينقلها من جهة أخرى فيلحقنى ما أكره فكتبت : إنا أصبنا يا أمير المؤمنين رقاعاً فيها كلام السفهاء والسفلة ، وفيها تهدد ووعيد ، وبعضها عندنا محفوظة إلى أن يأمر أمير المؤمنين فيها بأمره . فكتب إلى بخطه : هذا أمر إن أكبرناه كثر غمنا به . واتسع علينا خرقه فمر أصحاب أخبارك متى وجدوا من هذه الرقاع رقعة أن يمزقوها قبل أن ينظروا فيها ، فإنهم إذا فعلوا ذلك لم ير لها أثر ولا عين . قال إبراهيم : ففعلنا ذلك فكان الأمر كما قال

حدثنى عمرو بن سليمان بن بشير بن معاوية قال : أخبرنى أبى أن المأمون ولى إبراهيم بن السندى الخبر بمدينة السلام ، وعياش بن القاسم يتولى الجسرين قبل عبد الله بن طاهر أيام المأمون. قال : فركب إبراهيم إلى الجسر فى أول يوم تولى فدعا عياش بقوم من أهل الجرائم للعرض فمر به رجل من الأبناء فشتمه وتناوله فرد الرجل عليه مثل ذلك فاختلط عياش من رده عليه وشتمه أقبح الشتم فرد عليه الرجل أيضاً مثل ذلك فقال له إبراهيم بن السندى : ليس لك أن تشتمه إنما لك ان تمتثل ما أمرت به وما لك أن تتعدى ذلك إلى شتمه فيلزمك الحد له . فقال له عياش : إنما أنت صاحب خبر تكتب ما تسمع وما ترى ، وليس لك أن تتكلم فى مجلسى وأمرى ونهى فإن أمسكت وإلا أمرت من يجر برجلك حتى يرمى بك فى دجلة . قال : فقام إبراهيم من المجلس مغضباً فقال لعياش : سأعرفك نبأ ما تكلمت به وصار من فوره إلى دار أمير المؤمنين فخرج إليه فتح . فقال له : مالك ؟ فقال له : إن عياش بن القاسم فعل كذا ، وكذا . وقص عليه قصته إلى آخرها . فقال فتح لإبراهيم : فتحب أن أنهى ذلك إلى أمير المؤمنين ؟ قال : نعم لم أحضر إلا لهذا . فدخل فتح إلى المأمون فقال : أما وراءك ؟ قال : إبراهيم بن السندى مولاك يخبر بكذا ، وكذا . قال : أحضر إسحاق بن إبراهيم . قال

فأحضر إسحاق وإبراهيم جالس . فقال المأمون لإسحاق : ألا تأخذ على أيدى عمالك وتنهاهم عن الخرق بالناس والسفه وأعلمه ما كان من أمر عياش وتقدم إليه فى نهيه عما كان منه .

قال : فانصرف إسحاق إلى منزله وأرسل إلى عياش بن القاسم والسندى بن الحدثى ، وإبراهيم بن السندى بن شاهك حاضر فشتمهما واستخف بهما ، فلما كان من بعد ذلك اليوم ولى المأمون من قبل بشر بن الوليد القاضى من الجانب الغربى الحسين القاضى حضور الجسر مع عياش ، وولى عكرمة أبا عبد الرحمن الجسر الشرقى مع السندى فلم يكن لعياش ولا للسندى نهى فى أصحاب الجنايات إلا بحضورهما .

قال : ولم يزل كذلك إلى آخر أيام المأمون وكان صاحب الجسر إذا انصرف عياش من مجلسه جلس فى المسجد الذى فى ظهر مجلس الشرطة ، وكان الآخر إذا انصرف السندى صار إلى مسجد حسنة أم ولد المهدى وهو المسجد الذى بباب الطاق فى الحدادين وهنالك دار حسنة .

وذكر لى : أن رجلين تنازعا بباب الجسر أحدهما من العظماء . والآخر من السوقة . فقنع الذى من الخاصة الذى من العامة ، فصاح العامى : واعمراه ذهب العدل مذ ذهبت ، فأخذ الرجل وكتب إبراهيم بن السندى بخبره ، فدعا به المأمون فقال : ما كانت حالك ؟ فأخبره ، فأحضر خصمه فقال له : لم قنعت هذا الرجل ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إن هذا الرجل يعاملنى وكان سيىء المعاملة فلما كان فى هذا اليوم مررت بباب الجسر فأخذ بلجامى ثم قال : لا أفارقك حتى تخرج لى من حقى وغرمه ، إنى كنت صبوراً على سوء معاملته لى ، فقلت له : إنى أريد دار إسحاق بن إبراهيم ، فقال : والله لو جاء إسحاق بن إبراهيم ما فارقتك ، ولو جاء من ولى إسحاق وعنف بى فما صبرت حين عرض بالخلافة ووهن من

ذكرها أن قنعته نصاح : واعمراه ذهب العدل مذ ذهبت ، فقال للرجل : ما تقول فيما قال خصمك ؟ فقال : كذب على ، وقال الباطل ! فقال خصمه : لى جماعة يا أمير المؤمنين تشهد على مقالته ، وإن أذن لى أمير المؤمنين أحضرتهم ، قال : فقال المأمون للرجل : ممن أنت ؟ فقال : من أهل فامية ، فقال : أما أن عمر بن الخطاب رحمه الله كان يقول : من كان جاره نبطيا واحتاج إلى ثمنه فليبعه ، فإن كنت إنما طلبت سيرة عمر فهذا حكمه فى أهل فامية ، ثم أمر له بألف درهم وأطلقه ، فقال الذى حدثنى بهذا الحديث فحدثت هذا الحديث بعض مشايخنا ، فقال : أما الذى عندنا فخلاف هذا : إنما مر بعض الزهاد فى زوالق فلما نظر إلى بناء المأمون وأبوابه صاح : واعمراه ، فسمعه المأمون فأمر بإحضاره ثم دعا به فلما صار بين يديه قال : ما أحرجك إلى أن قلت ما قلت ؟ قال : رأيت آثار الأكاسرة ، وبناء الجبابرة ، فقال له المأمون : أفرأيت إن تحولت من هذه المدينة فنزلت إيوان كسرى بالمدائن كان لك أن تعيب نزولى هناك ؟ قال : لا ، قال : فأراك إنما عبت إسراف فى النفقة ؟ قال : نعم ، قال : فلو وهبت قيمة هذا البناء أكنت تعيب ذاك ؟ قال : لا ، قال : فلو بنى ذلك الرجل بما كنت أهب له بناء أكنت تصيح به كما صحت بى ؟ قال : لا ، قال : فأراك إنما قصدتنى لخاص نفسى لا لعلة هى غيرى ، قال : وإسحاق بن إبراهيم حاضر قال : فقال : يا أمير المؤمنين ، مثل هذا لا يقومه القول دون السوط ، أو السيف ، قال : هما أرش جنايته ، ثم قال : له : يا هذا ، إن هذا أول ما بنيناه وآخره ، وإنما بلغت النفقة عليه ثلاثة آلاف ألف وهو ضرب من مكايدتنا الأعداء من ملوك الأمم كما ترانا نتخذ السلاح والأدراع ، والجيوش ، والجموع ، وما بنا إلى أكثرها حاجة الساعة ، وأما ذكرك سيرة عمر رحمه الله فإنه كان يسوس أقواماً كرماء قد شهدوا نبيهم صلى الله عليه وسلم ، ونحن إنما نسوس أهل بزوفر ، وفامية ، ودستميسان ومن أشبه هؤلاء الذين إن جاعوا أكلوك ، وإن شبعوا قهروك ،

وإن ولوا عليك استعبدوك ، وكان عمر يسوس قوماً قد تأدبوا بأخلاق نبيهم صلى الله عليه وسلم الطاهرة ، وصانوا أحسابهم الشريفة ، وما أثله لهم آباؤهم فى الجاهلية والإسلام من الأفعال الرضية ، والشيم الكريمة ، ونحن نسوس من ذكرنا لك من هؤلاء الأقوام الخبيثة ، قال : ثم أمر بصلته فقال : لا تعودن إلى مثل هذا فتمسك عقوبتى فإن الحفظة ربما صرفت رأى ذى الرأى إلى هواه فاستعمله وخلى سبيل الحلم .

قال التغلبى : سمعت يحيى بن أكثم يقول : أمرنى المأمون عند دخوله بغداد أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من أهل بغداد ، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلا وأحضرتهم وجلس لهم المأمون فسأل عن مسائل وأفاض فى فنون الحديث والعلم ، فلما انقضى ذلك المجلس الذى جعلناه للنظر فى أمر الدين قال المأمون : يا أبا محمد كره ذلك المجلس الذى جعلناه للنظر طوائف من الناس بتعديل أهوائهم ، وتزكية آرائهم ، فطائفة عابوا علينا ما نقول فى تفضيل على بن أبى طالب رضى الله عنه وظنوا أنه لا يجوز تفضيل على إلا بانتقاص غيره من السلف ، والله ما أستحل ـ أو قال : ما أستجيز ـ أن أنتقص الحجاج فكيف السلف الطيب ، وإن الرجل ليأتين بالقطعة من العود ، أو بالخشبة ، أو بالشىء الذى لعل قيمته لا تكون إلا درهما أو نحوه فيقول : إن هذا كان للنبى صلى الله عليه وسلم ، أو قد وضع يده عليه ، أو شرب فيه ، أو مسه وما هو عندى بثقة ولا دليل على صدق الرجل إلا أنى بفرط النية والمحبة أقبل ذلك فأشتريه بألف دينار وأقل وأكثر ثم أضعه على وجهى وعينى وأتبرك بالنظر إليه وبمسه فأستشفى به عند المرض يصيبنى أو يصيب من أهتم به فأصونه كصيانتى نفسى وإنما هو عود لم يفعل هو شيئاً ولا فضيلة له تستوجب به المحبة إلا ما ذكر من مس رسول الله صلى الله عليه وسلم له ، فكيف لا أرعى حق أصحابه وحرمة من قد صحبه وبذل ماله ودمه

دونه وصبر معه أيام الشدة ، وأوقات العسرة وعادى العشائر والعمائر ، والأقارب وفارق الأهل والأولاد واغترب عن داره ليعز الله دينه ويظهر دعوته ، يا سبحان الله ، والله لو لم يكن هذا فى الدين معروفاً لكان فى الأخلاق جميلا ، وإن من المشركين لمن يرعى فى دينه من الحرمة ما هو أقل من هذا ، معاذ الله مما نطق به الجاهلون ، ثم لم ترض هذه الطائفة بالعيب لمن خالفها حتى نسبته إلى البدعة فى تفضيله رجلا على أخيه ونظيره ومن يقاربه فى الفضل وقد قال الله جل من قائل : (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض)[1] ، ثم وسع لنا فى جهل الفاضل من المفضول فما فرض علينا ذلك ولا ندبنا إليه إذ شهدنا لجماعتهم بالنبوة فمن دون النبيين من ذلك بعد إذ أشهد لهم بالعدالة والتفضيل أمر لو جهله جاهل رجونا ألا يكون اجترح إثماً وهم لم يقولوا بدعة ؟ فمن قال بقول واحد من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وشك الآخر واحتج فى كسره وإبطاله من الأحكام فى الفروج ، والدماء ، والأموال التى النظر فيها أوجب من النظر فى التفضيل فيغاظ فى مثل هذا أحد يعرف شيئاً أو له رؤية ، أو حسن نظر ، أو يدفعه من له عقل أو معاند يريد الإلطاط ، أو متبع لهواه ذاب عن رئاسة اعتقدها ، وطائفة قد اتخذ كل رجل منهم مجلساً اعتقد به رئاسة لعله يدعو فئة إلى ضرب من البدعة ؛ ثم لعل كل رجل منهم يعادى من خالفه فى الأمر الذى قد عقد به رئاسة بدعة ، ويشيط بدمه وهو قد خالفه من أمر الدين بما هو أعظم من ذلك ألا إن ذلك أمر لا رئاسة له فيه فسالمه عليه ، وأمسك عنه عند ذكر مخالفته إياه فيه ، فإذا خولف فى نحلته ولعلها مما وسع الله فى جهله أو قد اختلف السلف فى مثله فلم يعاد بعضهم بعضاً ، ولم يروا فى ذلك إثماً ، ولعله يكفر مخالفه ، أو يبدعه ، أو يرميه بالأمور التى حرمها الله عليه من المشركين دون المسلمين بغياً عليهم وهم المترقبون للفتن ،

---

(١) سورة البقرة .

والراسخون فيها ليتهبوا أموال الناس ويستحلوها بالغلبة ، وقد حال العدل بينهم وبين ما يريدون ، يزأرون على الفتنة زئيرا الأسد على فرائسها وإنى لأرجو أن يكون مجالسنا هذا بتوفيق الله وتأييده ومعونته على إتمامه سبباً لاجتماع هذه الطوائف على ما هو أرضى وأصلح للدين ، إما شاك فيتبين ويتثبت فينقاد طوعا ، وأما معاند فيرد بالعدل كرهاً .

أخبرنا عبد العزيز[1] المكى الكنانى المتكلم قال : اجتمعت أنا وبشر المريسى عند المأمون فقال لى ولبشر : قد اجتمعتما على نفى التشبيه ورد الأحاديث الكاذبة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فتكلموا فى الكفر والإيمان ، قال : قلت : وفقك الله يا أمير المؤمنين ، أما إن مطهراً البابى أخبرنى ، قال : أخبرنى أبو الزبير ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن اليهود كذبت على موسى ، وإن النصارى كذبت على عيسى ، وسيكذب علىّ أناس من أمتى ، فإذا بلغكم عنى حديث منكر فاعرضوه على كتاب الله ، فما وافق كتاب الله فهو منى وأنا قلته ، وما خالف كتاب الله فليس منى ولم أقله » ، فكيف يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم بخلاف كتاب الله ، وبكتاب الله هدى الله نبيه صلى الله عليه وسلم . ثم قال : يا أمير المؤمنين القوم شركاؤنا فى المجلس فهل ينصب بشر علما نعرف به انتقاض المنتقض وصحة الصحيح ؟ قال : فقال بشر : نعم . حدثنى محمد بن طلحة بن مصرف . قال : أخبرنى زبيد الأيامى عن مرة الهمدانى ، عن رجل من بنى هاشم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل قوم أولى رتبة من أمرهم ، ومصلحة من أنفسهم يردون على من

---

(١) كان من أصحاب الشافعى توفى فى حدود سنة ٢٤ ه وهو من رجال الميزان ، قال ابن السبكى : كتاب الحيدة المنسوب إليه فيه أمور مستشنعة لكنه كما قال شيخنا الذهبى لم يصح إسناده إليه ولاثبت أنه من كلامه لعله وضع عليه اه وشيخه فى الحديث الآتى لعله مطهر الطائى المتروك عندهم ، وحرف الطائى إلى البابى والله أعلم (ز) .

سواهم ويتبين الحق من ذلك بالملابسة بالعدل عند ذوى الألباب[١] » قال : والهاشمى على بن أبى طالب رحمة الله عليه . قال المكى : نقلت : هل تذكر شيئاً تعرف به صحيح القياس من متناقضه ؟ قال : ليس عندى شىء أكثر من هذا . قلت : ولكن عندى يا أمير المؤمنين وهى إحدى المخبآت التى أعددت لهذا المجلس منذ نحو ثلاثين سنة . قال : فقال بشر : ما كان ينبغى لك أن تكتم علماً عندك . قلت : إن لأهل العلم حلية يتزينون بها ، ويزينون بها مقالتهم ، ولا يعلمونها أهل البدع لئلا يزينوا بها بدعهم وقد أقاموا حجتهم فى سوى ذلك على مخالفيهم قال : قلت : إن الناس اختلفوا ثم تحاجوا بعد الاختلاف فلو كانت غايتهم فى الاحتجاج التخطئة كان أحدهم قد خطأ صاحبه فى الابتداء فما أراد إلى العناء ولكنه أراد النقض أو ينصب له علما يعرف به ، فإن القوم شركاؤنا فى المجلس .

قال أمير المؤمنين : هات . قلت : يعرف انتقاض كل منتقض تكلم الناس فيه من طب ، أو نجوم ، أو فتيا ، أو عربية ، أو كلام بأحد وجوه ثلاثة . . فكل قول دخله واحد منها فهو المتناقض . فقال عند هذا : فإن المعرفة قول . قال الله عز وجل : (ويقولون فى أنفسهم)[٢] قلت : يسمى الفعل قولا فى اللغة وقد يقول الرجل قولا بيده ، قال الشاعر :

وَقَالَتْ لَهَا العَيْنَانِ سَمْعاً وَطَاعَةً   وَحَدَّرَتَا كَالدُّرِّ لَمَّا يُثَقَّبُ

فقولها أنهما تهميان بالدمع ، وقد قال الله جل وعز : (قالتا أتينا طائعين)[٣] وقولها هو مجيئهما فترك هذا .

---

(١) لعله رواية بالمعنى ولم نجد هذا اللفظ فى دواوين أهل العلم (ز) .

(٢) سورة المجادلة ٨ : والذى فى النفس هو المعرفة فلا يكون الفعل قولا فيما زعم بشر ورد عليه عبد العزيز بورود القول فى غير المعرفة .

(٣) سورة فصلت ١٠ .

قال : وحدثني عن مشرك كان زانياً فتاب عن شركه وأقام على الزنى أليس قد خرج من الكفر إلى الإيمان [قلت] ولم يخرج الإيمان الذى يستوجب به الاسم حتى يدع الزنى قال : والله ليدخلن الجنة ولو بعد ألف سنة . قلت : ما هذا مما كنا فيه . هذا جواب أو مسألة ؟ فأنكر ذلك المأمون . قال ثم قلت له : حدثني عن الإيمان ما هو ؟ قال : معرفة الله بحجة . قلت : بخصلة هو أم بخصال ؟ قال : خصلة تنتظم معاني . قلت : فهذا المعنى هو منها ذلك المعنى الآخر ؟ نخلط وتركه . فقال آتيك بما هو أسهل من هذا أكلف الله جل وعز أهل زمان عيسى فى زمان محمد صلى الله عليه وسلم قال كلفهم أن يعلموا أنه سيبعثه رسولا . قلت : فما كلفنا نحن ؟ . قال : أن نعلم أنه قد بعثه . قلت يا أمير المؤمنين : أفكلام هذا ؟ . قال : لا . قلت : فإذاً عزمت أسأله . . قال : سل . قلت : حدثني عمن آمن بموسى وعيسى ولم يسمع بأن محمداً صلى الله عليه وسلم سيبعث هو مؤمن ؟ قال : فلست إذاً من المرجئة إن لم أقل هو مؤمن . قلت : فإن سمع بعد ذلك بمحمد ولقى محمداً عليه السلام هل أصاب الإقرار به إيماناً لم يكن أصابه قبل ذلك فعلم أنه ليس له حيلة . فقال يا أمير المؤمنين . على فى الوضوء شدة فأذن له .

قال : المكى وقلت للمأمون بعد الخطبة فى مجلسى : اعلم يا أمير المؤمنين أن كل سبب اتصل ، أو أخاء انعقد على غير التذكير بالله فهو عنده يبور وقديماً ما تمنى لى إخوانى هذا المقعد ، وما أمكننى إلا فى ظل سلطانك بخروجك من طبع الحرص وفرط الشره وإطراحك ما كان يلهج به غيرك من ملوك وسوقة عتواً فيما [جرت به] المقادير قدرها الله فانقرضوا ، وأضحت ديارهم عافية ، ومساكنهم خاوية ، لا يقترفون سيئة ، ولا يعتذرون من أخرى سلفت ، ولا يزيدون فى حسنة ، قد غلقت رهون أكثرهم ، ووجبت شقوتهم ، وانقطع من الفرج رجاؤهم ، وإنما ينتظر بهم لحاق هذا الخلق ، عتواً قليلا ، وشقوا طويلا ، وأضحوا

موعوظاً بهم وأدباً لغيرهم بحجة الله عليهم . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « السعيد من وعظ بغيره». وكان أبو الدرداء يكثر بأن يقول : يا أهل الشام: مالى أرا كم تجمعون مالا تأ كلون ، وتبنون مالا تسكنون ألا إن عاداً أعطيت أنعاما وماشية ومد لها ما بين صنعاء إلى الشام فمن يشترى ذلك اليوم منى بربع دينار .

واعلم يا أمير المؤمنين : أن الناس إنما يرهبون يوم القيامة من إحدى ثلاث ليست هناك رابعة : نقصة عملوها ، وسهوة ارتكبوها ، أو شبهة فى الدين انتحلوها ، والداء الأعظم الشبهة هى التى يظن صاحبها الحق باطلا ، والباطل حقا فهو كمخطىء الطريق إذا ركض ازداد من الطريق بعداً .

وذكر عبيد الله بن عبد الله بن الحسن بن جعفر الحسنى قال : تذاكروا الشجاعة يوما فى مجلس المأمون ، وذكروا الفرسان والأبطال فقال المأمون : لم يكن فى الإسلام بعد على بن أبى طالب صلوات الله عليه ، والزبير بن العوام أهل بيت شهرتهم الشجاعة كالمهلب بن أبى صفرة وآله . ولقد حدثت عن داود بن المساور العبدى قال : لما دخلنا على يزيد بن المهلب حين ظفر بعدى بن أرطاة وغلب على البصرة قال : بينا نحن عنده إذ أتاه رجل من العرب فقال : أصلح الله الأمير إنى — جعلنى الله فداك — جعلت على نذراً إن أرانى الله وجهك فى هذا القصر أميراً أن أقبل رأسك . فقال يزيد : فما للرجل والنذور فى القبل ؟ لله در عسكرين كنا فى أحدهما والأزارقة فى الآخر ما كان أبعدهم أن يكون نذورهم مثل نذرك . ياشيخ : لقد رأيتنى يوما وأنا واقف بين الحريش بن هلال السعدى وبين مولى له إذ خرج ثلاثة نفر من صف الخوارج فشدوا على صفنا فخرقوه حتى وصلوا إلى عسكرنا ففعلوا ما أرادوا ثم رجعوا سالمين وأحدهم آخذ بسنان رمحه يجره فى الأرض وهو يقول :

وَإِنَّا لَقَوْمٌ مَا نُعَوِّدُ خَيْلَنَا إِذَا مَا الْتَقَيْنَا أَنْ تَحِيدَ وَتَنْفِرَا

وَلَيْسَ بِمَعْرُوفٍ لَنَا أَنْ نَرُدَّهَا صِحَاحًا ولا مُسْتَنْكَراً أَنْ تُعَقَّرا

فقلت عند ذلك ما رأيت كاليوم ثلاثة بلغوا من عسكر فيه من فى مثل عسكرنا ما بلغ هؤلاء فقال الحريش : فما يمنعك من مثلها أبا خالد ؟ فقلت : بمن ؟ فقال : بى وبك وبمولاى هذا وشددنا ثلاثة فصنعنا بصفهم كما صنعوا بصفنا ثم خرج الحريش وأخذ بزج رمحه يجره وهو يقول :

حَتَّى خَرَجْنَ بِنَا مِنْ تَحْتِ كَوكَبِهِمْ حُمْراً مِنَ الطَّعْنِ أَعْنَاقاً وأَكْفَالا

تِلْكَ الْمَكَارِمُ لَاقَعْبَانِ مِنْ لَبَنٍ شِيبَا بِمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالا

فمثل هذا فافعلوا وانذروا ولا تنذروا نذر العجائز والضعاف . ثم قال : أُدْنُ يا شيخ فأوف بنذرك فدنا فقبل رأسه .

حدثنى رجل من أصحاب المأمون قال : سمعت إبراهيم بن رشيد قال : حدثنى من سمع المأمون يقول : الإرجاء دين الملوك .

حدثنى محمد بن عبد الله قال : دخل أبو عمر الخطابى على المأمون فتذاكروا عمر بن الخطاب رحمه الله فقال المأمون : إلا أنه غصبنا . فقال له أبو عمر يا أمير المؤمنين :[لا] يكون الغصب إلا بحق يد فهل كانت لكم يد؟ قال : فسكت المأمون عنه واحتملها له .

قال : وأصيب المأمون بابنة له كان يجد بها وجداً شديداً فجلس للناس وأمر أن يؤذن لمن دخل فدخل عليه العباس بن الحسن العلوى فقال له يا أمير المؤمنين : إنا لم نأتك معزين ولكن أتيناك مقتدين . ودخل العباس بن الحسن على المأمون فقال يا أمير المؤمنين : إن لسانى ينطلق بمدحك غائبا ، وأحب ان يتزيد عنك حاضراً افتأذن فأقول ؟ قال : قل فإنك تقول فتحسن ، وتشهد فتزين ، وتغيب

فتؤتمن . فقال يا أمير المؤمنين : ما أقول بعد هذا ؟ لقد بلغت من مدحى ما لا أبلغه من مدحك .

وقال أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن داود : دخل أبى على المأمون فكلمه بكلام كثير ثم حصر فسكت عنه المأمون ليسكن فلما سكن عاد إلى الكلام فقال يا أمير المؤمنين : هذا مقام لا يعاب أحد بالتقصير فيه عما يستحق أمير المؤمنين من الثناء عليه والدعاء له يدخله من هيبة أمير المؤمنين وإجلاله . قال صدقت يا إبراهيم.

وقال أحمد بن إبراهيم : قال جدى إسماعيل بن داود للمأمون وذكروا المساوىء والمحاسن فى مجلسه : ما من كريم إلا وفيه خصلة تعفى على مساويه ، ولا من سفلة إلا وفيه خصلة تعفى على محاسن إن كانت فيه . فقال : صدقت يا إسماعيل .

قال : وقال المأمون لمحمد بن عباد المهلبى : بلغنى أن فيك سرفاً . فقال يا أمير المؤمنين : إن من منح الموجود متوطن بالله ، وإنى لأهم بالإمساك فأذكر قول أشجع السلمى لجعفر بن يحيى :

يُحبُّ المُلوكُ نَدَى جَعْفَرَ ... وَلا يَصْنَعُونَ كَمَا يَصْنَعُ
وَلَيْسَ بأوْسَعهمْ فى الْغِنَى ... وَلـكِنَّ مَعْرُوفَهُ أوْسَعُ
وَكيْفَ يَنَالونَ غَاياته ... وَهُمْ يَجْمَعُونَ وَلاَ يَجْمَعُ

وكيف السبيل إلى الإمساك يا أمير المؤمنين بعد قول صالح المرى : لا تنال كثيراً مما تحب حتى تصبر على كثير مما تكره ، ولا تنجو مما تكره حتى تصبر على كثير مما تحب . قال : فأمر له المأمون بمائة ألف درهم وقال : استعن بها على مروتك .

قال : وسأل موبذ موبذان فقال له : ما ثمرة العقل . قال : ثماره الكريمة كثيرة ، منها : إحراز المرء نصيبه من الشكر ، وأن تتم نيته فى الحرص على مكافأة كل ذى نعمة ويبلغ من ذلك بالفعل غاية القدرة .

ومنها : أن لا يسكن إلى الدنيا على حال ، ولا يطيعها فى التفريط فى الاستعداد .

ومنها : أن لا يدع السرور ، ولا يتعرض لزوال النعمة .

ومنها : ألا يعمل عملا فى غير موضعه ، ولا يغفله فى موضعه إلا بعد النظر والتثبت .

ومنها : ألا تبطره السراء ولا يشتكى الضراء .

ومنها : أن يسير ما بينه وبين صديقه سيرة لا يتجاوز معها طعن حاكم ، ويسير ما بينه وبين عدوه رفقاً يشركهم به فى حسناتهم .

ومنها : أن لا يبدأ أحداً بأذى ، وإذا أوذى لم يتجاوز فى الانتقام حد العدل

ومنها : أن لا يكون الهوى مع الحق حيث كان .

ومنها : أن لا يفرحه مدح المادح بما ليس فيه ، ولا يجعل عيب من عابه بما هو منه برىء .

ومنها : أن لا يعمل عملا يكتسب منه ندماً .

ومنها : احتمال نصيب البر وسخاء النفس عن كل لذة .

قال اليزيدى : قال المأمون يوماً فى مجلس وعنده جماعة من قريش : أيكم يحفظ أبيات عبد الله بن الزبعرى التى يعتذر فيها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال مصعب بن عبد الله الزبيرى : أنا يا أمير المؤمنين . قال : فأنشدنا . فأنشد :

منعَ الرُّقادَ بَلابلٌ وهُمومُ ... واللَّيلُ مُعْتلجُ الرواقِ بَهيمُ
ممَّا أتاني أنَّ أحمدَ لامني ... فيـــه فبتُّ كأنني محْمُومُ
يا خيْرَ منْ حملتْ على أوصالها ... عَيْرانةٌ سُرحُ اليديْنِ رسُومُ
إني لمعتذرٌ إليكَ منَ الذي ... أتيتُ إذْ أنا في البلادِ أهيمُ
أيامَ يأمرني بأغوى خطَّة ... سَهمٌ ويأمرني به مخزُومُ
وأقودُ أسبابَ الرَّدى ويقُودُني ... أمْرُ الغُواة وأمرُهم مَبْرومُ
فاليوْمَ آنسَ بالنبي محمَّـــد ... قلْبي ومُخْطىء هذه محرُومُ
فاغفرْ فدًا لكَ والدايَ كلاهُما ... ذنبي فإنكَ راحمٌ مرْحُومُ
وعليكَ منَ المليكِ علامةٌ ... نورٌ أغرُّ وخاتمٌ مختُومُ
أعطى الإلهُ نبيَّـــهُ برْهانَهُ ... شرفًا وبُرْهانُ الإله عظيمُ
قرْمٌ على تبيانه مِنْ هاشم ... فرْعٌ تمكنَ في الذُّرى وأرُومُ
ولقدْ شهدْتُ بأنَّ دِينكَ صادقٌ ... حقٌّ وأنكَ في الأنامِ عظيمُ(١)
واللهُ يعلمُ أنَّ أحمدَ مُصطفى ... مُتقَبَّلٌ في الصَّالحين عظيمُ
مضَت العَداوةُ فانقضتْ أسبابُها ... ودعتْ أواصِرُ بيننا وحُلُومُ

قال : فأمر المأمون لمصعب بثلاثين ألف درهم وقال : ليـكن القرشي مثلك ،

قال : وقال المأمون للعباس يوماً وهو يعظه : ينبغي يا بني لمن أسبغ الله عليه نعمه ، وشركه في ملـكه وسلطانه ، وبسط له في القدرة أن ينافس في الخير مما يبقى ذكره ، ويحب أجره ، ويرجى ثوابه ، وأن يجعل همته في عدل ينشره ، أو جور يدفنه ، وسنة صالحة يحييها ، أو بدعة يميتها ، أو مكرمة يعتقدها ، أو صنيعة يسديها أو يد يودعها ويوليها ، أو أثر محمود يتبعه .

---

(١) كذا بالأصل مع تـكرار هذا اللفظ .

قال : كان المأمون قد هم بلعن معاوية ، وأن يكتب بذلك كتابا يقرأ يوم الدار ، وجفل الناس ففتاه عن ذلك يحيى بن أكثم وقال : يا أمير المؤمنين ، إن العامة لا تحتمل هذا وسيما أهل خراسان ، ولا تأمن أن تكون لهم نفرة ، وإن كانت لم تدر ما عاقبتها والرأى أن تدع الناس على ما هم عليه ، ولا تظهر لهم أنك تميل إلى فرقة من الفرق فإن ذلك أصلح فى السياسة وأحرى فى التدبير ، قال : فركن المأمون إلى قوله فلما دخلت عليه قال : يا ثمامة ، قد علمت ما كنا دبرناه فى معاوية ، وقد عارضنا رأى هو أصلح فى تدبير المملكة وأبقى ذكراً فى العامة ، ثم أخبره أن ابن أكثم خوفه إياها ، وأخبره بنفورها عن هذا الرأى ، فقال ثمامة : يا أمير المؤمنين ، والعامة فى هذا الموضع الذى وضعها به يحيى ، والله لو وجهت إنساناً على عاتقه سواد ومعه عصا لساق إليك بعصاه عشرين ألفاً منها ، والله يا أمير المؤمنين ما رضى الله جل ثناءه أن سواها بالأنعام حتى جعلها أضل منها سبيلا ، فقال تبارك وتعالى : (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا)[1] ، والله يا أمير المؤمنين لقد مررت منذ أيام فى شارع الخلد وأنا أريد الدار ، فإذا إنسان قد بسط كساءه وألقى عليه أدوية وهو قائم ينادى عليها هذا الدواء لبياض العين ، والعشاء ، والغشاوة ، والظلمة ، وضعف البصر ، وإن إحدى عينيه لطموسة ، وفى الأخرى مؤسى له ، والناس قد انثالوا عليه وأجفلوا إليه يستوصفونه فنزلت عن دابتى ناحية ودخلت فى غمار تلك الجماعة فقلت : يا هذا ، أرى عينك أحوج هذه الأعين إلى العلاج ، وأنت تصف هذا الدواء وتخبر أنه شفاء لوجع العين فلم لا تستعمله ؟ فقال : أنا فى هذا الموضع منذ عشر سنين ما مر بى شيخ أجهل منك ، قال : فقلت : وكيف ذاك ؟ قال : يا جاهل أين اشتكت عينى ؟ قلت : لا أدرى ، قال : بمصر ،

---

(١) الفرقان ٤٤ .

قال : فأقبلت على تلك الجماعة فقالوا : صدق الرجل أنت جاهل وهموا بى ، قال : فقلت : لا والله ما علمت أن عينه اشتكت بمصر ، قال : فما تخلصت منهم إلا بهذه الحجة ، فضحك المأمون وقال : ما لقيت منك العامة ، قال : الذى لقيت من الله من سوء الثناء وقبح الذكر أكثر ، قال : أجل .

***

ذكر حلم المأمون

ومحاسن أفعاله ، ومكارم أخلاقه

قال ابن أبى طاهر : بلغنى أن المأمون قال : إنى لألذ الحلم حتى أحسبنى لا أؤجر عليه ، وقال قاسم التمار : قال المأمون : ليس على فى الحلم فى مؤونة ولوددت أن أهل الجرائم علموا رأيى فى العفو ، فذهب عنهم الخوف فتخلص لى قلوبهم .

وقال جعفر ابن أخت العباس وذكر حلم المأمون فقال : لحلمه والله أرجح من حلوم ألف كلهم حليم ليس فيهم ملك ولا خليفة ، ثم أنشأ يحدثنا فقال : دخلت عليه أمس وإذا يده معلقة من شىء رطب أكله قد مسته النار وهو يصيح يا غلام وكلهم يسمع صوته فما منهم أحد يجيبه فخرجت إليهم وأنا أفور غضباً فإذا بعضهم يلعب بالكعاب ، وبعض يلعب بالشطرنج ، وبعض يحارش بين الديوك ، فقلت يا بنى الفواعل ، أما تسمعون أمير المؤمنين يدعوكم ؟ فقال واحد : حتى أقيس هذا الكعب وأجىء ، وقال الآخر : قد بقيت لى على هذا ضربة ، وقال آخر : اذهب فإنى أتبعك ، فما علمت ما كنت أخاطب به من الغيظ والحنق عليهم ، قال : فإذا المأمون قد صوت بى وأنا أقذف أمهاتهم فأتيته وهو يضحك فقال : ارفق بهم

فإنهم بشر مثلك قال : قلت : والعق أنت يدك ، فضحك وقال : هذا معاشرتك خدمك ؟ قال : قلت : والله لو فعل بى ابنى هذا دون خدمى لقتلته ، قال : هذه أخلاق السوقة وأخلاقنا أخلاق الملوك ، قال : قلت : لا والله ما هذه أخلاق الملوك ولا أخلاق الأنبياء أيضاً .

حدثنى هارون بن مسلم قال : حدثتنى شكر مولاة أم جعفر بنت جعفر بن المنصور قالت : سمعت المأمون أمير المؤمنين وكانت عنده أم جعفر فدعا بمقاريض قالت : أو بمقراض ، قال : فقال الغلام : قد ذُهب بالمقاريض إلى الشماسية ، ثم قال : يا غلام ، بل لنا الخيش فوق ، فقال الغلام : لا ، قال : يبل ، فقالت أم جعفر : سبحان الله يا أمير المؤمنين ما هذا ؟ وأنكرت أن يكون سأل عن شيئين فلم يعملا ، فقال المأمون : من قدرت على عقوبته لسوء فعله ، وقبيح جرمه ، فقدرتك عليه كافيتك نصراً لك منه ولا معنى لعقوبة بعد قدرة ، الحلم عن الذنب أبلغ من الأخذ به .

قال : وكان للمأمون خادم يتولى وضوءه فكان يسرق طساسه فبلغ ذلك المأمون فعاتبه ثم قال له يوما وهو يوضيه : ويحك لم تسرق الطست ، لو كنت إذا سرقتها أتيتنى بها اشتريتها منك ، قال : فاشتر هذا الذى بين يديك ، قال : بكم ؟ قال : بدينارين ، قال المأمون : أعطوه دينارين ، قال : هذا الآن فى الأمان ؟ قال : نعم .

قال أحمد بن أبى طاهر : أنشد الحسن بن رجاء لنفسه يصف حلم المأمون وعفوه :

صَفُوحٌ عَن الأجْرَام حَتّى كأنّهُ
مِنْ العَفْو لَمْ يَعْرِفْ من الناس مُجْرِماَ

وَلَيْسَ يُبَالى أنْ يَكون به الأذَى
إذا مَا الأذَى لَمْ يغْشَ بالكُره مُسْلما

وأنشد لآخر فيه :

أميرَ المُؤمنينَ عَفَوتَ حتى كأن النّاسَ لَيْسَ لَهمْ ذُنُوبُ

قال رزقان : قال بشر بن الوليد للمأمون : إن بشراً المريسي يشتمك ، ويعرض بك ، ويزرى عليك ، قال : فما أصنع به ؟ ثم دس المأمون إليه رجلا يحضر مجلسه وتسمع ما يقول ، فأتاه الرجل يوما فقال : سمعته يقول حين أراد القيام وفرغ من الكلام بعد حمد الله والثناء عليه : اللهم العن الظلمة ، وأبناء الظلمة من آل مروان ومن سخطت عليه ممن آثر هواه على كتابك وسنة نبيك صلى الله عليه وسلم ، اللهم وصاحب البرذون الأشهب فالعنه ، فقال المأمون : أنا صاحب البرذون الأشهب وسكت عليها ، فلما دخل عليه بشر قال له بعد أن ساءله : يا أبا عبد الرحمن متى عهدك بلعن صاحب الأشهب ؟ فطأطأ بشر رأسه ثم لم يعد بعد ذلك إلى ذكره ولا التعرض به .

قال العتبي : جاءنى رجل من أصحاب الصنعة فقال : اذكرنى لأمير المؤمنين فإنى أحل الطلق بين يديه فى يوم وبعض آخر ، فقلت : يا هذا ، اربح العناء واجلس فى بيتك ولا تعرض لأمير المؤمنين من نفسك ، قال : فالحل عليه حرام ، وماله صدقة ، وكل مملوك له حر إن كان كذبك فيما قال ، ثم قال : وأخرى والله ما آخذ منكم شيئاً عاجلا ، وقد ادعيت أمراً فامتحنونى فيه فإن جاء كما ادعيت كان الأمر فىَ إليكم ، وإن وقع بخلاف ذلك انصرفت إلى منزلى ، فأخبرت المأمون بها ، قال : فتمثل بيت الفرزدق :

وَقبلَكَ مَا أعْيَيْتُ كَاسرَ عَيْنِه زِيَاداً فَلَمْ يَقْدر عَلَىَّ حَبَائلُهْ

ثم قال : لعل هذا أراد أن يصل إلينا فاحتال بهذه الحيلة ؛ وليس الرأى أن يعرض علينا أحد علماً فنظهر الزهد فيه فأحضره قال : فجئت بالرجل وقعد له المأمون وأحضرت أداة العمل ، قال : فإذا هو بحل الطاق أجهل منى بما فى السماء السابعة . فنظر إلى المأمون وقال : ألم تزعم أنه قد حلف لك بالطلاق ، والعتاق ، وصدقة ما يملك ، قلت : بلى ، قال : قد حنث ، فقلت للرجل والمأمون يسمع : ألم تحلف بالطلاق ؟ قال : ليست لى امرأة ، قلت : فالعتاق ؟ قال : ومالى مملوك قلت : فصدقة ما تملك ؟ قال : ما أملك خيطاً ومخيطاً . قلت كذب يا أمير المؤمنين معه دابة وله غلام . قال : هذا عارية فتبسم المأمون وقال : هذا بحل الدراهم أعلم منه بحل الطاق. ثم أمر أن يعطى خمسة آلاف درهم فلما خرج قال للعتبى : رده . فرده وقال : زيدوه مثلها فليس يجد فى كل وقت من يمخرق عليه . فقال الرجل : يا أمير المؤمنين عندى باب من الحملان ليس فى الدنيا مثله قال احمله على هذه الدراهم فإن كنت صادقاً صرت ملكا .

قال بعض القحاطبة وذكر المأمون فقال : ولى صاحبنا قحطبة بن الحسن همذان ، وأعمالا من أعمال الجبل فدق عليه خراجه فحبسه به فكان إذا جاءه المستخرج لحمله على أداء ما احتجن قام فصلى فلا يزال راكعاً وساجداً حتى ينصرف ويتركه فأخبر بذلك المأمون . فقال : قولوا له : يقول لك أمير المؤمنين هذه النوافل لا يقبلها الله حتى تؤدى الفرائض احمل إلينا ما لنا قبلك ، فكان لا يزيدهم على الصلاة فلما كشف على المأمون ذلك وقع : يطلق قحطبة ويسوغ ما صار إليه ولا يستعان به إلا أن يترك التسبيح وصلاة الضحى والنوافل ظاهراً .

حدثونى عن إبراهيم بن المهدى قال : قال المأمون يوماً وفى مجلسه جماعة : هاتوا من فى عسكرنا من يطلب ما عندنا بالرياء . قال : فقال كل واحد بما عنده ، إما أن يقول فى عدو بما يقدح فيه أو يقول بما يعلم أنه يسر خليفته . فلما قالوا ذلك

قال : ما أرى عند أحد منكم ما يبلغ إرادتى ثم أنشأ يحدث عن أهل عسكره أهل الرياء حتى والله لو كان قد أقام فى رجل كل واحد منهم حولا محرماً ما زاد على معرفته . قال : فكان مما حفظت عنه فى ثاب أصحابه أن قال حين ذكر أهل الرياء وما يعاملون به الناس : تسبيح حميد الطوسى ، وصلاة قحطبة ، وصيام النوشجانى ، ووضوء المريسى ، وبناء مالك بن شاهى المساجد ، وبكاء إبراهيم بن بريهة على المنبر ، وجمع الحسن بن قريش اليتامى ، وتصص منجا ، وصدقة على بن الجنيد ، وحملان إسحاق بن إبراهيم فى السبيل ، وصلاة أبى رجاء الضحى ، وجمع على بن هشام القصاص . قال : حتى عددنا جماعة كثيرة . فقال لى رجل من عظماء العسكر حين خرجنا من الدار بالله هل رأيت أو سمعت بملك قط أعلم برعيته ولا أشد تنقيراً من هذا ؟ قلت: اللهم لا . فحدثت بهذا الحديث رجلا من أصحاب الأخبار والعلم فقال : وما تصنع بهذا قد شهدت رسالته إلى إسحاق بن إبراهيم فى الفقهاء يخبر بمعايبهم رجلا رجلا حتى لهو بها أعلم منهم بما فى منازلهم .

قال : وقعد المأمون يوماً للمظالم فقدم سلم صاحب الحوائج بضعة عشر رجلا فنظر فى مظالمهم وأمر فقضى حوائجهم وكان فيهم نصرانى من أهل كشكر كان قد صاح بالمأمون غير مرة وقعد له فى طريقه فلما بصر به المأمون أثبته معرفة فقال ابطحوه ، فضرب عشرين درة ثم قال لسلم قل له : تعود تصيح بى ؟ فقال له سلم وهو مبطوح ، فقال النصرانى قل له : أعود ، وأعود ، وأعود ، حتى تنظر فى حاجتى فأبلغه سلم ما قال . فقال : هذا مظلوم موطن نفسه على القتل أو قضاء حاجته ثم قال لأبى عباد : اقض حاجة هذا كائناً ما كانت الساعة .

حدثنى بعض أصحابنا قال : شهدت المأمون وقد ركب بالشماسية وخلف ظهره أحمد بن هشام فصاح به رجل من أهل فارس : الله ، الله يا أمير المؤمنين فإن أحمد بن هشام ظلمنى واعتدى علىّ ، فقال : كن بالباب حتى أرجع ، ثم مضى فلما

جاز الموضع بعدوة التفت إلى أحمد فقال : ما أقبح بنا وبك أن تقف وصاحبك هذا على رؤوس هذه الجماعة وتقعد فى مجلس خصمك ، ويسمع منه كما يسمع منك ثم تكون محقاً أم تكون مبطلا فكيف إن كنت فى صفته لك ، فوجه إليه من يحوله من بابنا إلى رحالك وأنصفه من نفسك ، وأعطه ما أنفق فى طريقه إلينا ، ولا تجعل لنا ذريعة إلى ما تكره من لائمتك فوالله لو ظلمت العباس ابنى كنت أقل نكيراً عليك من أن تظلم ضعيفاً لا يجدنى فى كل وقت ، ولا مجلواً له وجهى وسيما من تجشم السفر البعيد وكابد حر الهواجر وطول المسافة . قال : فوجه إليه أحمد فجاء به وكتب إلى عامله ترد عليه ما أخذ منه ويشتمه ويعنفه ووصل الرجل بأربعة آلاف درهم وأمره بالخروج من يومه .

حدثنى أبو زيد الحكم بن موسى بن الحسن قال : شهدت أبى وقف للمأمون فى مربعة الحرشى وكان يتظلم إليه من محمد بن أبى العباس الطوسى فلما أقبل المأمون من داره يريد الشماسية فصار إلى المربعة عند الربع نزل أبو الحسين يعنى أباه ونظر إليه المأمون فأقبل عليه فقال له :

دَعَوْتَ حَرّانَ مَظْلُوماً ليأتيكمْ فَقَدْ أتاكَ غَرِيبُ الدّارِ مَظْلُومُ

فوقف المأمون عليه فقال: ممن تتظلم؟ . قال : من محمد بن أبى العباس الطوسى . قال : يا عمرو : انظر فى حاجة الشيخ وأنصفه وأعلمنى ما يكون ، ثم أومأ إلى الشيخ أن اركب فركب وجاز المأمون فوقف الناس ينظرون إلى أبى الحسين يعجبون منه ومن إقدامه ومن إكرام الخليفة له .

قال : قال قثم بن جعفر : قال المأمون فى يوم خميس وقد حضر الناس الدار لعلى بن صالح : ادع إسماعيل . قال : فخرج فأدخل إسماعيل بن جعفر . وأراد المأمون إسماعيل بن موسى فلما بصر به من بعيد وكان اشد الناس له بغضا رفع يديه مادها إلى السماء ثم قال : «اللهم أبدلنى من ابن صالح مطيعاً فإنه لصداقته لهذا آثر

هواه على هواى » . قال : فلما دنا إسماعيل بن جعفر سلم فرد عليه ثم دنا فقبل يده فقال : هات حوائجك . قال : ضيعتى بالمغيثة غصبتها وقهرت عليها . قال : نأمر بردها عليك . ثم قال : حاجتك : قال : يأذن لى أمير المؤمنين فى الحج . قال : قد أذنا لك . ثم قال : حاجتك . قال : وقف أبى أخرج من يدى وصار إلى قثم والقاسم ابنى جعفر . قال : فتريد ماذا ؟ قال : يرد إلى . قال : أما ما كان يمكننا من أمرك فقد جدنا لك ، وأما وقف أبيك فذاك إلى ورثته ومواليه فإن رضوا بك والياً عليهم وقيما لهم رددناه إليك ، وإلا أقررناه فى يد من هو فى يده ثم خرج . فقال المأمون لعلى بن صالح : مالى ولك عافاك الله متى رأيتنى نشطت لإسماعيل بن جعفر وعنيت به وهو صاحبى بالأمس بالبصرة . قال : ذهب عن فكرى يا أمير المؤمنين . قال : صدقت . لعمرى ذهب عن فكرك ما كان يجب عليك حفظه ، وحفظ فكرك ما كان يجب عليك ألا يخطر به . فأما إذ أخطأت فلا تعلم إسماعيل ما دار بينى وبينك فى أمره . فظن على أنه عنا بقوله هذا إسماعيل بن موسى فأخبر إسماعيل بن جعفر القصة حرفاً حرفاً ، فأذاعها . وبلغ الخبر المأمون فقال : الحمد لله الذى وهب لى هذه الأخلاق التى أصبحت احتمل بها على بن صالح ، وابن عمران وابن الطوسى ، وحميد بن عبد الحميد . ومنصور بن النعمان ، ورعامش .

قال : وبلغنى أن المأمون قال لأبى كامل الطباخ يوماً وعلى بن هشام عنده اتخذ لنا رؤوس حملان تكون غداءنا غداً . قال نعم يا أمير المؤمنين . وقال لعلى بن هشام : إن من آئن الرءوس أن تؤكل فى الشتاء خاصة ، وأن يبكر آكلها عليها ، وألا يخلط بها غيرها ، ولا يستعمل بعقبها الماء ، فصل الغداة وصر إلينا . فلما صلى على جاء ودعا المأمون أبا كامل فقال : احضر المائدة وقدم الرءوس . فقال : إن آدم نسى فنسيت . فقال : خذ لنا الساعة من فرصة جعفر قدر باقلى يكون غداءنا منه وأحب أن لا تنسى .

قال : ودخل أبو طالب صاحب الطعام على المأمون ، وكان من أسخف الناس

وأجهلهم فقال للمأمون : كان أبوك يابا صديقنا ، وكنا يابا بحارة ، وأنت يابا لا تعرف حقنا ولا ترفع بنا رأساً ، ونحن يابا جيرانك ، وأنت يابا لا تبيعنا ونحن يابا نوفيك . قال : والمأمون يطرق ما يرد عليه شيئاً ولا يزيده على التبسم .

قال : وحدثنى أحمد بن الخليل . قال : حدثنى القاسم بن محمد بن عباد . قال : حدثنى أبى . قال : دخلت على المأمون وعليه مبطنة فيها رقاع وهو جالس على لبد فى يده عود وهو يقلب جمراً بين يديه فى كانون قال : فبقيت أنظر إلى مبطنته . قال : ففطن لى . فقال : لعلك تنظر إلى الرقاع التى فى منطقتى يا محمد ؟ قال : قلت نعم يا أمير المؤمنين قال : أما سمعت قول الشاعر :

إِلْبَسْ جَدِيدَكَ إِنِّى لَابِسٌ خَلَقِى ... وَلَا جَدِيدَ لِمَنْ لَا يَلْبَسُ الْخَلَقَا

قال : قال : ورأيت المأمون فى الحلبة وجاء فرس لغيره سابقاً فوثب إليه فضرب وجهه قال : فسمعت البحترى يقول له : يادغاء يا دغاء يريد ياضغاء .

ومن أخبار طاهر بن الحسين

قال أحمد بن ابى طاهر : حدثنى أبو العباس محمد بن على بن طاهر قال حدثنى محمد بن عيسى الكاتب . قال : حدثنى عبد الله بن جعفر البغوى . قال : سمعت محمد بن يقطين بمرو وهو على حرس ذى اليمينين بخراسان يقول : ما أعجب أشياء حدثها الأمير يعنى ذا اليمينين من توليته عيسى بن عبد الرحمن الحجابة وهو كاتب وتوليته سعيد بن الجنيد ديوان الخراج وهو بستانى وبآداب البقر أحذق منه بالكتابة ، وتوليته فلاناً وكان البغوى يكنى عنه .

قال أبو العباس محمد بن على وولى أبا زيد ديوان التوقيع والخاتم وهو لايحسن من الكتابة قليلا ولا كثيراً . قال : فقلت له يا أبا جعفر أحكى هذا للأمير

عنك ؟ فقال : ما هو ؟ ما هو شيء أقوله أنا وحدى ، فأكره أن يرجع إليه وأحسبك قد سمعتَ ما سمعتُ ، قلت : أجل ، ولكن له عنك موقعه فأذن لى فى إخباره .

قال : وكان طاهر ذو اليمينين إذا تغدينا معه وخرج عن حد الجد بسطنا فى أخبار العامة وفيما يحسن من الهزل ، فقلت له يوما بعقب ما سمعت من محمد : عندى أعز الله الأمير حديث ظريف مما آثره عن بعض أولياء الأمير وخدمه ، فقال : ما الحديث ، وعن من هو ؟ نخبرته قال قل له : تزيد فيه وكما وليتك حرس خراسان وكان أبوك أبزاريا ، ثم قال لى أخبرك بمعان هذه الأشياء : أما توليتى عيسى الحجابة فإنه رجل خراسانى الدار عراقى الأب ، له ظرف الكتاب ولباقتهم وذكاؤهم وفهمهم وموقعه منى الموقع الذى لا أحتشمه فى كل حالاتى فأردت أن يكون بينى وبين الناس من يفهمنى ويفهم عنى ، ويخبرنى عن الوارد يأتى إذا ورد والداخل على إذا دخل بما أكتفى به عن بحث الرجل عن اسمه ونسبه وأصله، ويخبر الرجل بما يجب أن يلقانى به ويخاطبنى بما يضع عنى مؤونة العناء ، ولم انتقصه عمله الذى هو فيه فإنما كان توليتى إياه الحجابة عبثاً ، ثم نقلته من عمل إلى عمل فأما وقد زدته فليس بعيب عند من يفهم ويعرف حجتى قال : ثم قال لى خرجت من هذه الواحدة ؟ قلت : نعم أعز الله الأمير .

قال : وأما توليتى سعيداً ديوان الخراج فإنه رجل لى به حرمة وخدمة فأردت أن أنوه باسمه عند من يعرفه وعرفنى وأن أنفعه برزق هذا الديوان ، وأحببت مع ذلك أن يعرف أمير المؤمنين أولا ، ثم موسى بن خاقان ، ومحمد بن يزداد أنى لم أفتقر إليهما حين قعد عنى موسى واستعفى محمد بن يزداد أمير المؤمنين حين ضمه إلى وأن يعلم الناس أنى المتولى لأعمالى لا كتابى ، وأن الدليل على ذلك أنى وضعت فى ديوان الخراج حماراً هو عندهم كما وضعت لو ظننت أنه ينفذ له أمر

فى ديوان الخراج فى سحاءة ما أقررته ساعة ، ولكنى جعلت الاسم لما وصفت ، ونصبت له خليفة يعاملنى فى أخذه بخير ذلك الديوان وشره ، خرجت من هذه الثانية ؟ قلت : نعم ، والله أنهى الأمير ، وكان ذلك الرجل المنصوب لخلافة سعيد موسى بن الفضل .

قال : وأما توليتى أبا زيد فرجل بينى وبينه إلف الصبى ، وأنس الحداثة ، ولم أتسع له فى عاجل أيامى بكل ما أحب من خالص مالى فأحببت أن يكون اسمه بهذا الديوان إلى ما أجرى له من مالى فتعجل نفعه ، وليس فى هذا الديوان كثير عمل فاخترته لئلا يظهر قلته فى الكتابة ؛ وأنا بعد من وراء أتصفح عمله وعمل غيره ، خرجت من هذه أيضاً ؟ قلت : نعم والله ، أعز الله الأمير .

قال : واستحسنته فى كل ما أجاب منها ، فقلت له : فأحدث بهذا عن الأمير ؟ قال : افعل وددت أن الناس كلهم عرفوا عذرى فيما آتى وأذر لتخف على المؤونة ويسلم صدرى للجميع .

قال : وحدثنى محمد بن عيسى قال : حدث أحمد بن خالد بن حماد ، عن أبيه خالد بن حماد قال : كان ذو اليمينين لما صار إلى خراسان ولى العباس بن عبد الله ابن حميد بن رزين سمرقند فتسخط ذلك ، وأراد أن يجمع له ما وراء النهر كلها ، فاستعفى فوجد عليه ذو اليمينين من ذلك فطلب إرضاءه فتعسر عليه ، وكان ممن رام ذلك من قبله خالد بن حماد فلم يجبه فصار العباس بعد أشهر إلى خالد يسأله الركوب فى أمره قال له خالد : ما كنت لأعاوده فى شىء ردنى عنه ، ولا أعلمه أنه ردنى منذ قدم فى خراسان فى حاجة ، فقال له العباس : لست أسألك كلامه ولكنى أسأل أن تحضر إيصال سعيد بن الجنيد رقعة لى فإن وجدت مقالا قلت قال . أما هذا فلا أمتنع منه عليك .

قال خالد : فصرت إلى ذى اليمينين وكنت أتحرى أن يكون حضورى فى آخر مجلسه لأنه كان يشتغل بى إذا دخلت عليه ، ويوجب لى ما كان يوجب ظاهراً من إيجابه ، وكان لا يستأذن لى عليه لبروزه أبداً ، فدخلت فألفيته قد استلقى معتمداً على يديه ، ولما تمكن الأرض من ظهره فانتصب حين سمع الوطء حتى فهمنى ثم عاد إلى حالته الأولى ، فلما دنوت من البساط استوى جالساً فرد ورحب كما كان يفعل ، واستدنانى إلى حيث كنت أجلس فسأل بى وسألنى وقال : وقفت على معناى فى الانتصاب ، ثم عودى إلى حالى والاعتماد على يدى ؟ قلت : نعم أعز الله الأمير ، أردت أن تعلمنى أنك لم تحتشمنى ، قال : أجل ، قال. خذوا ما بين أيدينا من الكتب والدواة وهاتوا الطعام ، وقل ما كنت أصير إليه إلا حبسنى فتغديت عنده ، فلما بلغ سعيداً حضورى عنده ودعاءه بالطعام دخل ودنا وأظهر من طرف كمه رقعة ، فقال له ذو اليمينين : ما هذه معك ؟ وكان كثيراً ما يفعل ذلك ، قال : رقعة للعباس بن عبد الله بن حميد بن رزين ، قال : أتنكر بعد انشراح وطيب نفس معى أوسعتها رأيا ، وأحسن بها كذا من نفسك لا يكنى عن السوءة مفصحاً بها ، فتراجع سعيد وخرج وأوتينا بالمائدة ودخل من كانت له نوبة فى مؤاكلته فى ذلك اليوم ، وكذلك كان أصحابه الذين يأكلون معه مؤاكلتهم إياه نوائب بينهم ، وكان إذا بلغهم أنه قد دعا بالمائدة دخل من كانت له نوبة وانصرف الباقون لا يحتاج من كانت نوبته إلى أن يدعى ، إلا أن يشتهى ذو اليمينين أن يدعو رجلا فى غير نوبته فيدعو به ، فلما أخذنا فى الأكل لم يرنى أنبسط فى الحديث كما كنت أفعل ، أو كما كان يريده من جميع مؤاكلته من الانشراح وترك الانقباض واستطابة الطيب ، فقال لى : يا أبا الهيثم ، أحسبك أنكرت ما أجبت به سعيداً ؟ قال : قلت : إى والله أصلح الله الأمير ولوددت أنى لم أكن حضرت هذا اليوم ، فقال لى : يا أبا الهيثم ، إنى منيت بأمر عظيم ، ووقعت بين خطتين صعبتين خرجت من خراسان وأنا

رجل من أهلها إن لم أكن من أرفعهم قدراً ، فلم أكن من أوضعهم حالا وليس بخراسان أهل بيت من بيوتاتها ، ولا أهل نعمة إلا وبيننا وبينهم معاشرة ومخاتنة أو مصاهرة ، أو مجاورة فهذا توسطنا بين القوم ومن كان هذا موقعه لم يخل من صديق ، وعدو ، وولى ، وحاسد ، ثم ندبت لهذا الوجه نخشى الوالى أن لا أفى له فاغتم وساءه ، ورأى ما كنت فيه بين أظهرهم وتحرك من اسمى بينهم ما كان كافياً لى ولهم فى يومهم ، وسر العدو والحاسد ورجا أن يكون قصورى عن القيام بما أهيب بى إليه تسقطنى فخرجت على هذا الخطر العظيم فأعطى الله جل وعز أكثر من الأمنية وله الحمد .

ولم يكن لى غاية بعد ما منح الله وأحسن إلا أن أرجع بنعمتى وجاهى وعزى إلى بلدى ودارى ، وإخوانى ، وجيرانى ، ومعارفى ليشركونى فى ذلك كما شركونى فى الاعتداد به وليغيظ العدو والحاسد من ذلك ما يغيظ ، فلما ولانى أمير المؤمنين خراسان لم أضع ثيابى فى منزلى حيناً حتى ندمت وأظهرت ذلك لمن حضرنى ممن آنس به فى الإفضاء بمثل ذلك إليه ، وفكرت فيما يلزمنى من حق السلطان وحق الإخوان ، ومثلت فيما أوجب للصنفين فرأيت أنى إن وفرت على السلطان كل حقه أخللت بالإخوان ، وإذا أخللت بهم واخطأهم ما كانوا يقدرون قالوا : لا كان هذا ولا كان يومه الذى كنا نؤمله وتعلقت اطماعنا به ، وإن وفرت عليهم ما كانوا يقدرون فى أنفسهم لم يجز ذلك فى التدبير واخللت بالسلطان ولم يكن ذلك حقه على ولم يتحمله لى ايضاً ، فما ظنك يا أبا الهيثم بمن يريد أن يسقط بين هذين ما يلزمه لكل واحد منهما كيف لا تكون حالته إلا حالة صعبة ، هذا العباس بن عبد الله بن حميد احد من لا أدفع اسبابه فإن رزيناً وزريقاً قدما خراسان فى وقت واحد ، ثم لم يزالا منذ ذلك على المودة والائتلاف وأورثنا ذلك أعقابهما إلى يومنا هذا ، وليت العباس ما وليت فتسخط واراد

اكثر مما سميت له وعمل على ما استوجبه فى نفسه بموالاته ، ولم يجز فى التدبير إلا ما فعلت ، فاحتاج إلى أن يترضى ويطلب ما كان عنه غنياً لو نفذ لوجهه ، وطلب لكان ما يروم أسهل من أن يطلب ، ما هذه الدالة والتحكم فى هذا الوقت .

قال : قلت : أصلح الله الأمير ، اغتممت بعدوتى هذه وقد سررت بما سمعت من الأمير أبقاه الله ، وأنا فى إذن أن أحكيه ، قال : شديداً يا أبا الهيثم وأبدى من عندك بما رأيت ، وعلى حسب ما عرفت من معانى فيه فإنى أحب أن تحدث به عنى وتقرره عند الجميع .

حدثنى عبد الله بن عمرو ، عن رجل من آل عيسى بن محمد بن ابى خالد ، عن عبد الله بن احمد قال : خرج مهزم بن الفرز مع طاهر بن الحسين إلى خراسان فلما جاء الشتاء قسم طاهر الوبر على أصحابه وأغفل حظ مهزم فدخل مهزم إليه فقال : أيها الأمير ، قلت بيتاً ، قال : أنشده ، فقال :

كَفَى حَزَنَاً أنَّ الفراء كَثِيرَةٌ وأنِّى بمَرْو الشَّاهجَانِ بِلاَ فَرْوِ

فقال لمن حضر : أجيبوا الرجل ، فكأنه ارتج عليهم فقال مهزم : أنا أولى بإجابة نفسى ، قال : فافعل ، فقال :

صَدَقْتَ لَعَمْرِى إنها لَكثيرَةٌ
وَلَكنها عِنْدَ الكرام أولى السَّرْوِ
فَإنْ كُنْتَ عَبْدِياً فَما بِكَ حاجَةٌ
إلَى لُبْس فَرْوٍ فى الشتاء مَعَ الفَسْوِ

قال : فضحك طاهر منه وقال : أما لإن أغفلناك حتى حملناك على سوء القول

فى نفسك لنحسنن صفدك فأمر له بعشرة أثواب وبر بالخز والوشى فباع منها تسعاً بتسعين ألفاً وأمسك واحداً .

حدثنا يحيى بن الحسن قال : كان طاهراً يتمنى أن يخطب على منبر مرو فوليها سنة خمس وست ومائتين ، وخطب فى سنة سبع لم يصل بهم إلا ذلك اليوم فإنه صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ولم يدع للمأمون ، وكان على البريد رجل يقال له : كلثوم بن ثابت بن أبى سعد النخعى وهو مولى محمد بن عمران من فوق فولاه محمد بن عمران بريد خراسان قال : فقلت : المأمون رجل كريم من قتل فى طاعته فكان له خلف يصلح للولاية ولاه ولى ابن وأخ ، قال : فدخلت منزلى وعلمت أنه يقتلنى فلبست ثياب الأكفان وتطيبت لذلك ، وخرطت الخريطة إلى المأمون بالخلع وقد كتب هذا الخبر فى وقت موت طاهر على تمامه .

وقال أحمد بن أبى طاهر : كان طاهر بن الحسين بخراسان قبل أن تتحرك به الحال يتعشق جارية فى جيرانه يقال لها : ديذا ، وكانت توصف بجمال عجيب ، وكان يختلف إليها فلما تحركت به الحال وصار إلى مدينة السلام وقع فى سجنه جار لديذا بجرم خفيف وطال حبسه ولم يعرف أحداً يشفع فيه فاحتال بمن يرفع رقعة لطيفة توصلت له إلى طاهر تخبره أنه حبس بجرم يسير وليس له أحد يسعى فى أمره ، وتوسل إليه بجوار ديذا ، فلما قرأ طاهر الرقعة كتب فى ظهرها :

وَيا جَار ديذَا لاَ تَخفْ سِجْنَ طَاهر ... فَوَلِيكَ لَوْ تَدْرى عَلَيْكَ شَفيقُ
أيا جَار ديذَا أنْتَ فِى سِجْنَ طَاهر ... وَأنْتَ لديذَا مَا عَلمْتَ طَليقُ

ثم كتب فى أسفل البيتين يخلى سبيله ويعطى أربعة آلاف درهم وعليه لعنة الله فقد حرك منى ساكنا .

وحدثنى أحمد بن عبد الرحمن المهلبى قال : ديذا صناجة كانت بنيسابور بارعة فى صناعتها تنزل فى موضع يقال له « دروان كوش » بنيسابور ، وفيها يقول طاهر فى شعر له :

فيا ليت شعرى هل أبيتن بعدها ... بليلة مسرور بحيث أريد
وهل ترجعن خيلى إلى ربطاتها ... ويجمعنى والمازقين صعيد
وهل عرفت ديذا مقامى وموقفى ... إذا أضرمت نار وليس رقود

قال : وكان كثيراً ما يحارب الشراة فى أول أمره ، ويجمع لهم الجموع يدفعهم عن بلده بوشنج وغيرها .

قال أبو العباس محمد بن على بن طاهر : كانت ديذا الصناجة تنزل عند ميدان زياد ، وفى ديذا يقول طاهر بن الحسين :

أما أنى لك ديذا أن تزورينى ... يوماً إلى الليل أو أن تستزيرينى

حدثنى محمد بن العباس ثعلب الكاتب حاجب طاهر عن أبيه العباس قال : أرسل طاهر إلى جارية له يعلمها أنه يصير إليها فى يومه ، فأصلحت ما تريد أن تصلحه ، ثم خرج يريدها ، فاعترضته فى قصره جارية أخرى فاجتذبته فدخل إليها وأقام عندها باقى يومه ، فلما كان من الغد كتبت إليه الأولى :

ألا يا أيها الملك الهمام ... لأمرك طاعة ولنا ذمام
خلقنا للزيارة واغتفلنا ... ولم يك غير ذلك والسلام

وحدثنى أبو طالب الجعفرى قال : قال لى محمد بن عبد الله بن طاهر : رأيت ذا اليمينين ؟ قلت: نعم أصلحك الله ، رأيته على أشهب هملاج مجدوف فأنكرت هملاج مجدوف ، فقال محمد بن عبد الله : تدرى ما العلة فى ذلك ؟ قلت : لا ، قال : إن ذا اليمينين لما كان يحارب رافع — وهذا من أسرار أخبارنا — كان

واقفاً فى يوم نوبته على دابته ، فحرك الدابة ذنبه فألقى فى عينه الصحيحة طيناً من ذنبه ، فتنحى ناحية حتى أخرج ما فى عينه ، ثم رجع إلى مقامه فجعل على نفسه ألا يركب إلا مجدوفاً .

قال أبو العباس محمد بن على بن طاهر قال : كان أسد بن أبى الأسد ممن خرج مع جدى طاهر بن الحسين إلى خراسان ، فلما كان بمرو احتاج أن يوجه قوماً إلى خوارزم وبخارى ، فسمى فيمن سمى مع القائد الذى يتوجه إلى تلك الناحية فالتوى ورفع كتاباً يشتط فى المسألة والأرزاق ، فوقع فى كتابه بيت :

لَا تَكُونَنَّ جَاهِلاً أَنْتَ فِى البَحْثِ يَا أَسَدْ

فعاوده وضرب أصحابه حتى كاد أن يبطل أمر القائد المتوجه إلى الناحية ، فدعا به ، فقال له : لعلك تحسبك ببغداد تريد أن تفسد عملى ، فأمر فضربت عنقه بين يديه .

حدثنى محمد بن عبد الله بن طهمان قال : حدثنى محمد بن سعيد أخو غالب الصغدى قال : كان أبو عيسى وطاهر يتغديان مع المأمون ، فأخذ أبو عيسى هندباة فغمسها فى الخل وضرب بها عين طاهر الصحيحة ، فغضب طاهر وعظم ذلك عليه وقال : يا أمير المؤمنين ، إحدى عينى ذاهبة والأخرى على يدى عدل ، يعمل بى هذا بين يديك ، فقال : يا أبا الطيب ، إنه والله يعبث معى بأكثر من هذا العبث ، قال : وكان أبو عيسى عبثاً .

وذكر عن يحيى بن أكثم عن المأمون أنه كان يقول : ماحابى طاهر فى جميع ما كان فيه أحداً ، ولا مالأ أحداً ، ولا داهن، ولا وهن ، ولا ونى ، ولا قصر فى شىء ، وفعل فى جميع ما ركن إليه ووثق به فيه أكثر مما ظن به وأمله ، وأنه لا يعرف أحداً من نصحاء الخلفاء وكفاءتهم فيمن سلف عصره ، ومن بقى فى أيام دولته على مثل طريقته ، ومناصحته ، وغنائه ، وأجرائه . قال : ثم كان يحلف على صدق ما يقول فى ذلك مجتهداً مؤكداً لليمين على نفسه .

قال : شكى منصور النمرى إلى طاهر بن الحسين كلثوم بن عمرو العتابى ، فبعث طاهر إلى العتابى ، وأخفى منصوراً فى مجلسه ، فسأل طاهر العتابى أن يصفح عن منصور ، فقال : أصلح الله الأمير ، إنه لا يستحق ذاك ، فدعا منصوراً فخرج إليه ، فقال : ولم لا أستحق ذاك منك ؟ فقال له العتابى لأنى :

أَصْحَبْتُكَ الفَضْلَ إذ لا أنتَ مُعْرِبُهُ ... كَلاً ولا لَكَ فى اسْتِصْحَابه أَرَبُ

لَمْ تَرْتَبِطْكَ عَلَى وَصْلِى مُحَافَظَةٌ ... ولاَ أَجارَكَ ما أَثْنَى بِكَ الأَدَبُ

ما مِنْ جَمِيلٍ ولا عُرْفٍ نَطَقْتَ بِهِ ... إلاَّ إلىَّ وإنْ أنْكَرْتَ تَنْتَسِبُ

فأصلح بينهما طاهر بن الحسين ، وأمر له بثلاثين ألف درهم . قال : وكان منصور النمرى ممن علمه العتابى الـكلام .

ومن كلام طاهر بن الحسين وتوقيعاته

قال أحمد بن أبى طاهر : قال محمد بن عيسى الهزوى : حدثنى أبو زيد محمد بن هانىء قال : كان ذو اليمينين طاهر بن الحسين يقول : لا تستعن بأحد فى خاص عملك إلا من ترى أن نعمتك نعمته تزول عنه بزوالها عنك ، وتدوم عنده بدوامها لك . قال : ثم التفت إلى أبى زيد أو إلى من كان يحدثه ، فقال له : لا يكون هذا إلا عند من أكمله الله بالعقل ، ثم قال محمد بن هانىء مقرظاً لذى اليمينين : أو تعلم لمـا جعله بالعقل كاملا ، قال محمد بن عيسى الهزوى : فقلت له : نعم ، لأن الآداب والعلوم لو حويت لرجل ومنع العقل لـكان منقوصاً مدخولاً ، ولو حرم الآداب ، وكان مطبوعاً على العقل مركباً ذلك فيه كان تامًّا كاملاً يدبر به أمر الدنيا والآخرة ، قال : صدقت .

توقيع لذى اليمينين طاهر بن الحسين

إلى يحيى بن حماد الكاتب النيسابورى

قلة نظرك لنفسك حرمتك سنى المنزلة ، وغفلتك عن حظك حطتك عن درجتك ، وجهلك بموضع النعمة أحل بك الغير والنعمة ، وعماؤك عن سبيل الدعة أسلكك فى طريق المشقة حتى صرت من قوة الأمل معتاضاً شدة الوجل ، ومن رجاء الغد معقباً بإياس الأبد ، حتى ركبت مطية الخوف بعد مجلس الأمن والكرامة ، وصرت موضعاً للرحمة بعد أن تكنفتك الغبطة على أنى أرى أمثل أمريك أدعاهما للمكروه إليك ، وأنفع حالتيك أضيقهما متنفساً بقول القائل :

إذا مَا بَدَأْتَ امْرَءًا جَاهِلاً ببِرٍّ فَقَصَّرَ عَنْ حَمْلِهِ
وَلَمْ تُلْفِهِ قَائِلاً بالجَمِيلِ ولا عَرَفَ العِزَّ مِنْ ذُلِّهِ
فَسُمْهُ الهَوَانَ فإِنَّ الهَوَانَ دَوَاءٌ لِذِى الجَهْلِ مِنْ جَهْلِهِ

وقد قرأت كتابك بإغراقك وإطنابك فوجدت أرجاه عندك آيسه لك ، وأرقه فى نفسك أقساه لقلبى عليك ، ومن صافه ما أذهبت وخامره ما ذكرت ، خرس عن تشقيق وتزويق الكذب والآثام ، ولعمرى لولا تعلقك منى بحرمة المعاينة ، واتصالك منى بسبب المفاوضة ، وإنحائى بهما لمن نالهما بسط المنفعة ، وقبض الأذى والمعرة مع استدامتى النعمة بالعفو عن ذى الجريمة ، واستدعائى الزيادة بالتجاوز عن ذى الهفوة ، واستقالتى العثرة بإقالة الزلة لنالك من عقوبتى ما يؤذيك ، ومسك من سطوتى ما ينهكك ، وبحسبك ما اجترمته لنفسك من العجز ذلا وجهلا ، وما أخلدت إليه من الخمول وضعاً ، وبما حرمته من الفضل عقوبة ونقصاً ، وفى كفاية الله غنى عنك ، وفى عادته الجميلة عوض منك ، وحسبنا الله ونعم الوكيل أقوى معين وأهدى دليل .

وهذه نسخة كتاب يحيى بن حماد الذى هذا التوقيع جواب عنه لما حبسه لتركه ما أراد أن يقلده من كتابته :

« بسم الله الرحمن الرحيم : تمم الله للأمير السلامة ، وأدام له الكرامة ، ووصل نعمه عليه بالزيادة ، وقوى إحسانه إليه بالسعادة ، ضعف صبرى أعز الله الأمير ، عما أقاسى من ثقل الحديد ، ومكابدة الهموم ، ومصاحبة الوحشة فى دار الغربة عن انقطاع الأهل ، وتعقب الوحل ، واستخلاف البلاء من وثيق الرجاء ، وتذكرى ما أفاتنى القضاء الماضى من رأى الأمير أعزه الله فىّ ، وموجدته علىّ ، لقد تخوفت أن يسرع لزوم الفكرة إياى فى فسادى ، ويصير بى تمكن الهم إلى تغير حالى ، ولولا أن سخط الأمير أيده الله لا يصبر عليه ، ووجده لا يقام له لرأيت الإمساك عن ذكر أمرى ، وشكوى ما بى إلى أن يستوى غير ما أنا فيه لسرور ما كنت صرت إليه من إكرام الأمير أيده الله وبره وتشريفه وتقريبه ، ولعمرى إن شديد ما أقاسى ولو دام حيناً من دهرى ليصغر عند لحظة لحظها إلى ببره فضلا عن رأيه الذى جل عن قدرى ، وعجز عن احتماله شكرى ، وقد تبين الأمير أعزه الله أمرى ، وتحقيق شأنى ، فإن كان ما أنا فيه للهفوة التى كانت منى ، والجناية التى جنيتها على نفسى بالجهل بصباى ، فقد وضع الله عن الصبى فرائضه علماً بحاله ، وكانت حالى فى الصباء قريبة من حاله ، والأمير أعزه الله أولى من عطف فى ذات الله عن زلتى ، واحتسب الأجر فى إقالة عثرتى وهفوتى ؛ فإن رأى الأمير أبقاه الله أن يأمر بالدعاء بى والاستماع منى فعل منعما إن شاء الله » .

قال : ووقع طاهر فى قصة رجل متظلم من أصحاب نصر بن شبث : طلبت الحق فى دار الباطل . ووقع فى قصة قهرمان له شكا سوء معاملة : اسمح يسمح لك .
قال : ووقع إلى رجل يطلب قبالة بعض أعماله : القبالة فساد ولو كانت صلاحاً لم تكن لها موضعاً .

قال : ووقع إلى السندى بن شاهك جواب كتابه إليه يسأله الأمان : عش ما لم أرك . ووقع إلى خزيمة بن خازم فى كتابه إليه : الأعمال بخواتمها ، والصنيعة باستدامتها ، وإلى الغاية ما جرى الجواد يحمد السابق ويذم الساقط . ووقع إلى العباس بن موسى استبطاءه فى خراج الكوفة :

وَلَيْسَ أَخُو الحَاجَاتِ مَنْ بَاتَ نَاهِراً   وَلَكِنْ أَخُوهَا مَنْ يَبِيتُ عَلَى وَجَلْ

ووقع فى قصة رجل شكا أن بعض قواده نزل فى دار له وفيها حرمه : إذا رأيته فى ناحية دارك فقد حل لك قتله . ووقع فى قصة رجل ذكر أن أخاه قتل فى طاعة المأمون : سالكُ طاعة الله وهو ولى جزاءه - ووقع فى قصة رجل ذكر أنه قتل فى يوم واحد عشرة من أصحاب المخلوع : لو كنت كما وصفت لم يخف علينا ما ذكرت. ووقع فى قصة رجل ذكر أن منزله أحرق بالنار : أخطأك من قصدك .

قال : ودخل على طاهر بن الحسين ذى اليمينين كاتب العباس بن موسى وكان ركيكا فقال : أخيك ابن موسى يقرئك السلام . قال : وما تلى من أمره ؟ قال : أنا كاتبه الذى أطعمه الخبز فوقع : يعزل العباس بسوء اختياره للأكفاء - ووَقع فى قصة رجل محبوس - يخرج ولا يحوج - ووقع فى قصة آخر - يطلق ويعتق - ووقع فى قصة مستمنح - يبل حاله - ووقع فى قصة مستوصل - يقام أوده - ووقع فى قصة مستجير - أنا جاره - ووقع فى قصة مستأمن - يؤمن سربه - ووقع فى قصة قاتل - لا يؤخر قتله - ووقع فى قصة شاعر - يعجل ثوابه - ووقع فى قصة لص - ينفذ حكم الله فيه - ووقع فى قصة ساع - لا يلتفت إليه - ووقع فى قصة قوم شغبوا على عاملهم - الشغب للفرقة سبب ، فلتمح أسماؤهم ، ويحسن آدابهم ، ويقطع بالنفى آثارهم .

ذكر وفاة طاهر بن الحسين

وولاية طلحة ابنه

قال أبو محمد مطهر بن طاهر : كانت وفاة ذى اليمينين من حمى وحرارة أصابته وأنه وجد ميتاً فى فراشه ، وقيل إن عميه على بن مصعب ، وأحمد بن مصعب صارا إليه يعودانه فسألا الخادم عن خبره وكان يغلس بصلاة الصبح فقال الخادم : هو نائم لم ينتبه فانتظراه ساعة ، فلما انبسط الفجر وتأخر عن الحركة فى الوقت الذى كان يقوم فيه للصلاة أنكرا ذلك . وقالا للخادم : أيقظه ، فقال الخادم : لست أجسر على ذلك . فقالا له : طرق لنا ندخل عليه ندخلا فوجداه ملتفاً فى دواج قد أدخله تحته وشده عليه من عند رأسه ورجليه فحركاه فلم يتحرك فكشفا عن وجهه فوجداه قد مات ، ولم يعلما الوقت الذى توفى فيه ، ولا وقف أحد من خدمه على وقت وفاته ، وسألا الخادم عن خبره ، وعن آخر ما وقف عليه منه فذكر : أنه صلى المغرب ، والعشاء الآخرة ثم التف فى دواجه قال الخادم : وسمعته يقول بالفارسية كلاماً وهو : « در مرك نيز مردى بايد » تفسيره : أنه يحتاج فى الموت أيضاً إلى الرجولة .

قال : وجاء نعى طاهر بن الحسين فى سنة سبع ومائتين : فحدثنى يحيى بن الحسن بن عبد الخالق ، عن أبى زيد حماد بن الحسن ، قال : حدثنى كلثوم بن ثابت بن أبى سعد وكان يكنى أبا سعدة . قال : كنت على بريد خراسان ومجلسى يوم الجمعة فى أصل المنبر . فلما كان فى سنة سبع ومائتين بعد ولاية طاهر بسنتين حضرت الجمعة فصعد طاهر المنبر فخطب فلما بلغ إلى ذكر الخليفة أمسك عن الدعاء له . وقال : اللهم أصلح أمة محمد صلى الله عليه وسلم بما أصلحت به أولياءك . واكفها مؤونة من بغى فيها وحسد عليها من لم الشعث وحقن الدماء وإصلاح

ذات البين . قال : فقلت فى نفسى أنا أول مقتول لأنى لا أكتم الخبر فانصرفت واغتسلت بغسل الموتى ، وائتزرت بإزار ، ولبست قميصاً ، وارتديت رداء وطرحت السواد وكتبت إلى المأمون . قال : فلما صليت العصر دعانى وحدث به حادث فى جفن عينيه وفى مآقيه فسقط ميتاً .

قال : فخرج طلحة بن طاهر فقال : ردوه ، ردوه . وقد خرجت فردونى فقال : هل كتبت بما كان ؟ . قلت : نعم . قال : فاكتب بوفاته وأعطانى خمسمائة ألف ومائتى ثوب فكتبت بوفاته وبقيام طلحة بالجيش .

قال : فوردت الخريطة على المأمون بخلعه غدوة فدعى ابن أبى خالد فقال : اشخص فأت به كما زعمت وضمنت . قال : أبيت ليلتى . قال : لا لعمرى لا تبيت إلا على ظهر . فلم يزل يناشده حتى أذن له فى المبيت ، ووافت الخريطة بموته ليلا فدعاه فقال له : قد مات فمن ترى؟ قال : ابنه طلحة . قال : الصواب . فاكتب بتوليته . فكتب بذلك وأقام طلحة فيما ذكر لنا يحيى بن الحسن والياً على خراسان فى أيام المأمون سبع سنين بعد موت طاهر ، ثم توفى وولى عبد الله بن طاهر خراسان ! وكان يتولى حرب بابك فأقام بالدينور ووجه الجيوش ووردت وفاة طلحة على المأمون فبعث إلى عبد الله بن طاهر بيحيى بن أكثم يعزيه عن أخيه ويهنئه بولاية خراسان وولى على بن هشام حرب بابك .

وحدثنى يحيى بن الحسن قال : لما مات طاهر بن الحسين بخراسان كتم المأمون عبد الله بن طاهر موته قال : وكتب إلى عبد الله مولى لهم كان أسلم على يد طاهر : أن أباك قد مات فتحرز . فكتب عبد الله إلى المأمون يستعلمه موت طاهر فكتب إليه المأمون : لم أستر عنك علمه إلا لأنى خشيت أن تضعف وأنت فى وجه حرب فخفت عليك من الفكرة والتوانى وقد كان ذلك فرحمه الله . قال : وكتب إليه القواد والوجوه يعزونه ، وكتب إليه الفضل بن الربيع يعزيه وكتب :

إن أمير المؤمنين ستر عنك موت أبيك خوف التوانى فجد فى الأمر الذى أنت فيه ، متوليا له بما يرضيه ، وما تعلم به أنك قد قمت بالواجب وأثره أثراً تعجله فى الكلب الذى أنت بإزائه وأصدته فإنى أعلم أنك ستظفر به وأنا عارف بضعفه . قال أبو زكريا : حدثنى يزيد بن عقال بذلك . قال وكتب إليه عبد الله يخبره بخبر نصر .

وحدثنى بعض الوجوه من أهل العسكر وأصحاب السلطان قال : أشهد أنى كنت عند العباس ، وكان بى آنساً ، ولى مكرماً فحدثنى أنه شهد مجلس المأمون وقد أتاه نعى طاهر فقال : لليدين وللفم الحمد لله الذى قدمه وأخرنا ، ثم ذكر بعد ذلك كلاماً طويلا تركناه على عمد وإن كان من أحسن ما ألفنا من هذا الكتاب .

فأما أصحاب الأخبار والتاريخ فذكروا أن طاهراً لما مات بخراسان وثب الجند بها فانتهبوا بعض خزائنه وسلاحه ومتاعه فقام بأمرهم سلام الأبرش الخصى وأعطاهم رزق ستة أشهر حتى رضوا وسكنوا ، وأن المأمون ولى عبد الله مكانه وكان مقيما بالرقة قد ولاه المأمون إياها وجمع له الشأم معها فبعث إليه بعهده على خراسان ، فضم إليه عمل أبيه فولى أخاه طلحة خراسان واستخلف بمدينة السلام إسحاق بن إبراهيم ، وذكروا أن سعر الطعام كان فى سنة سبع ومائتين ببغداد ، والكوفة ، والبصرة غالياً ، وأن قفيز الحنطة بالهارونى بلغ أربعين درهما إلى الخمسين بالقفيز الملجم

وحدثنى القاسم بن سعيد الكاتب قال : لما توفى طاهر بن الحسين بخراسان وعبد الله بن طاهر فى وجه نصر بن شبث كتب المأمون إلى عبد الله بن طاهر يعزيه . قال : وكتب إليه أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح يعزيه عن نفسه أما بعد : فإنه قد حدث من أمر الرزء العظيم بوفاة ذى اليمينين ما إلى الله جل وعز فيه المفزع والمرجع وفيه عليه المستعان وإنا لله وإنا إليه راجعون اتباعاً لأمر الله ،

واعتصاماً بطاعته وتسليما لنازل قضائه ، ورجاء لما وعد الصابرين من صلواته ورحمته وهداه وعند الله نحتسب مصيبتنا ، وقد كان سبق إلى القلوب عند بداهة الخبر من اللوعة واطلاع الفجيعة ما كنا نخاف إحباطه من الأمر لولا ما تدارك الله به من الذكر بما وعد أهل الصبر ، فنسأل الله أن يذاب هذه الثلمة ، ويسد هذه الخلة بأمير المؤمنين أولا ، وبك ثانياً وأن يعظم مثوبتك ، ويحسن عقباك ، ويخلف بك ذو اليمينين ، ويعمر بك مكانه من أمير المؤمنين ومن كافة المسلمين ، فأما ما يحتاج إليه من التسلية والتعزية فإنك فى فضل رأيك ، واتساع لبك فى حالة العزة والنماء لم تكن تخلو من عوارض الذكر ، وخواطر الفكر فيما تعرو به الأيام من نوائبها ويبعث به من حوادثها ، وفى هذا الن وفق له إعداد للنوازل ، وتوطين الأنفس على المكاره فلا يكون معه خلع ، ولا إفراط ولا جزع بإذن الله مع أن مرد كل ذى جزع إلى سلوة لا ثبات عليها فأولى بالراغب فى ذات الله أن يبتهل إلى الله مثوبته فى أوانها من بعض الأسى ، وفجاة النكبة ، وأولى بذى اللب إذا علم ما هو لابد صائر إليه ألا يبعد منه إبعاداً يلزمه التفاوت عند التأمل واختلاف الحالين فى بعد الأمد بينهما . وقد كنت أحب ألا أقنع فى تعزيتك برسول ولا كتاب دون الشخوص إليك بنفسى لو أمكننى المسير إجلالا للمصيبة ، وتأنساً بقربك بعد الذى دخلنى من الوحشة ، فقد عرفت ما خصنى من الرزئة بذى اليمينين لما كنت أتعرف من جميل رأيه ، وعظيم بره حاضراً وما كان يذكرنى به غائبا ذكره الله فى الرفيق الأعلى وأنت وارث حقه على إلى ما كنت لك عليه من صدق المودة وخالص النصيحة وإلى الله جل وعز أرغب فى تأدية شكره والقيام بما أوجبه لك فإن رأيت أن تأمر بالكتاب إلى بما أبلاك الله فى نفسك ، وألهمك من العزاء والصبر مع ما أحببت وبذلك فعلت إن شاء الله .

ومن أخبار ابن طاهر بن الحسين

وحدثني محمد بن الهيثم أن عبد الله لما خرج إلى نصر بن شبث بعد أن استحكم أمره ، واشتدت شوكته ، وهزم جيوشه ، فكتب إليه المأمون كتابا يدعوه فيه إلى طاعته ، والمفارقة لمعصيته والمخالفة له فلم يقبل . قال : فكتب عبد الله إليه ، وكان الكتاب إلى نصر من المأمون كتبه عمرو بن مسعدة :

أما بعد : فإنك يانصر بن شبث قد عرفت الطاعة وعزّها ، وبردظلها ، وطيب مرتعها ؛ وما في خلافها من الندم والخسار . وإن طالت مدة الله بك فإنه إنما يملى لمن يلتمس مظاهرة الحجة عليه لتقع عبره بأهلها على قدر إضرارهم واستحقاقهم ، وقد رأيت إذكارك وتبصيرك لما رجوت أن يكون لما أكتب به إليك موقع منك فإن الصدق صدق ، والباطل باطل ، وإنما القول بمخارجه وبأهله الذين يعنون به ، ولم يعاملك من عمال أمير المؤمنين أحد أنصح لك في مالك ودينك ونفسك ، ولا أحرص على استنقاذك والانتياش لك من خطأك منى فبأى أول أو آخر أوسطة أو إمرة إقدامك يا نصر على أمير المؤمنين في أمواله ، وتتولى دونه ماولاه الله وتريد أن تبيت آمناً أو مطمئناً ، أو وادعاً ، أو ساكناً ، أو هادئاً ، فوعالم السر والجهر لئن لم تكن للطاعة مراجعاً ، وبها خانعاً لتستوبلن وخم العاقبة ، ثم لأبدأن بك قبل كل عمل ، فإن قرون الشيطان إذا لم تقطع كانت في الأرض فتنة وفساد كبير ، ولأطأن بمن معى من أنصار الدولة كواهل رعاع أصحابك ، ومن تأشب إليك من دانى البلدان ، وقاصيها ، وطغامها ، وأوباشها ، ومن انضوى إلى حوزتك من خراب الناس ، ومن لفظه بلده ، ونفته عشيرته لسوء موضعه فيهم ، وقد أعذر من أنذر والسلام .

قاله : وأقام عبد الله بن طاهر على محاربة نصر بن شبث خمس سنين حتى طلب

الأمان ، فكتب عبد الله إلى المأمون يعلمه أنه حصره وضيق عليه ، وأنه عاذ بالأمان وطلبه . فأمر المأمون أن يكتب له كتاب أمان نسخته :

أما بعد ، فإن الإعذار بالحق حجة الله المقرون بها النصر ، والاحتجاج بالعدل دعوة الله الموصول بها العز ، ولا يزال المعذر بالحق ، المحتج بالعدل فى استفتاح أبواب التأييد ، واستدعاء أسباب التمكين حتى يفتح الله وهو خير الفاتحين ، ويمكن وهو خير الممكنين .

ولست تعدو أن تكون فيما لهجت به أحد ثلاثة : طالب دين ، أو ملتمس دنيا ، أو متهوراً يطلب الغلبة ظلماً . فإن كنت للدين تسعى بما تصنع فأوضح ذلك لأمير المؤمنين يغتنم قبوله ، إن كان حقاً فلعمرى ما همته الكبرى ، ولا غايته القصوى إلا الميل مع الحق حيث مال ، والزوال مع العدل حيث زال. وإن كنت للدنيا تقصد فأبلغ أمير المؤمنين غايتك فيها والأمر الذى تستحقها به ، فإن استحققتها وأمكنه ذلك فعله بك فلعمرى ما يستجيز منع خلق ما يستحقه وإن عظم . وإن كنت متهوراً فسيكفى الله أمير المؤمنين مؤنتك ، ويعجل ذلك كما عجل كفايته مؤن قوم سلكوا مثل طريقك كانوا أقوى يداً ، وأكثف جنداً ، وأكثر جمعاً وعدداً ونصراً منك ، فيما أصارهم إليه من مصارع الخاسرين ، وأنزل بهم من حوائج الظالمين .

وأمير المؤمنين يختم كتابه بشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وضمانه لك فى دينه وذمته الصفح عن سوالف جرائمك ومتقدمات جرائرك ، وإنزالك ما تستأهل من منازل العز والرفعة إن أتيت وراجعت إن شاء الله والسلام . إبو إسحاق أحمد بن إسحاق .

قال : حدثنى بشر السلمانى قال : سمعت أحمد بن أبى خالد يقول : كان المأمون إذا أمرنا بأمر فظهر من أحدنا فيه تقصير أنكره عليه . قال : فحدثنى جعفر بن

محمد الرقى العامرى قال : قال المأمون لثمامة بن أشرس ألا تدلنى على رجل من أهل الجزيرة له عقل وبيان ومعرفة يؤدى عنى ما أوجهه به إلى نصر بن شبث ؟ قال : بلى يا أمير المؤمنين ، رجل من بنى عامر يقال له جعفر بن محمد . قال له : أحضرنيه قال جعفر : فأحضرنى ثمامة فأدخلنى عليه فكلمنى بكلام كثير ، ثم أمرنى أن أبلغه نصر بن شبث . قال : فأتيت نصراً وهو بكفر عزون بسروج فأبلغته رسالته فأذعن وشرط شروطاً منها : ألا يطأ بساطه . قال فأتيت المأمون فأخبرته فقال : لا أجيبه والله إلى هذا أبداً ولو أفضت إلى بيع قميصى هذا حتى يطأ بساطى ؛ وما باله ينفر منى ؟ قال : قلت : لجرمه وما تقدم منه . فقال : أتراه أعظم جرماً عندى من الفضل بن الربيع ، ومن عيسى بن أبى خالد ، أتدرى ما صنع بى الفضل ؟ أخذ قوادى وأموالى ، وجنودى ، وسلاحى وجميع ما أوصى به أبى لى فذهب به إلى محمد وتركنى بمرو وحيداً فريداً ، وأسلمنى وأفسد علىّ أخى حتى كان من أمره ما كان وكان أشدُّ عَلَىَّ من كل شىء. أتدرى ما صنع بى عيسى بن أبى خالد؟ طرد خليفتى من مدينتى ومدينة آبائى ، وذهب بخراجى وفيئى ، وأخرب عَلَىَّ ديارى ، وأقعد إبراهيم خليفة دونى ودعاه باسمى .

قال : قلت يا أمير المؤمنين ، أتأذن لى فى الكلام فأتكلم ؟ قال : تكلم . قلت : الفضل بن الربيع رضيعكم ومولاكم وحال سلفه حالهم ترجع عليه بضروب كلها تردك إليه . وعيسى بن أبى خالد رجل من أهل دولتك وسابقته وسابقة من مضى من سلفه سابقتهم ترجع عليه بذلك ؛ وهذا رجل لم تكن له يد قط فيحتمل عليها ولا لمن مضى من سلفه ، إنما كانوا جند بنى أُمية . قال : إن ذلك كما تقول فكيف بالحنق والغيظ ولكنى لست أقلع عنه حتى يطأ بساطى . قال : فأتيت نصراً فأخبرته بذلك . قال : فصاح بالخيل صيحة فجالت ثم قال : ويلى عليه هو لم يقو على أربعمائة ضفدع تحت جناحه ـ يعنى الزط ـ يقوى على جلبة العرب !

قال أحمد بن أبى طاهر : فحدثت أن عبد الله بن طاهر لما جاءه للقتال وحصره وبلغ منه أعطى الضمة وطلب الأمان فأعطاه وتحول من معسكره إلى الرقة سنة تسع ومائتين وصار إلى عبد الله بن طاهر فوجه به إلى المأمون ، فكان دخوله بغداد يوم الثلاثاء لسبع خلون من صفر سنة عشر ومائتين وأنزل مدينة أبى جعفر ووكل به من يحفظه .

فحدثت أن المأمون وأبا إسحاق المعتصم وآخر من القواد ذهب عنى اسمه اختلفوا فى ذكر الشجعاء من القواد والجند والموالى . فقال المأمون : ما فى الدنيا أشجع من عجم أهل خراسان ولا أشد شوكة ولا أثقل وطأة على عدو . وقال أبو إسحاق : ما فى الدنيا سود الرءوس بأشجع ولا أرمى ولا أثبت إقداماً على الأعداء من الترك وبحسبك أنهم بإزاء كل أمة من أعدائهم فهم ينتصفون منهم ويغزونهم فى بلادهم ولا يغزوهم أحد ؛ فقال القائد : ما فى الدنيا قوم أشجع من أبناء خُراسان المولدين ولا أفتك منهم فإنهم هم الذين أدخلوا الأتراك فى السواجير وآباؤهم هم الذين قادوا الدولة ، وهم قاموا بحرب أمير المؤمنين ثم أطاعوه فاستقامت الخلافة بهم . فقال المأمون : ما تصنعون باختلافنا ؟ هذا نصر بن شبث نرسل إليه فنسأله عن أشجع من لقى من جندنا وقوادنا من القوم جميعاً . فأمر بنصر فأحضر وسأله عما اختلفوا فيه فقال : يا أمير المؤمنين : الحق أولى ما استعمل ، كل هؤلاء قد لقيت ؛ أما الأتراك : فإنما التركى بسهامه فإذا أنفذها أخذ باليد ؛ وأما العجمى فبسيفه ، فإذا كلّ استبسل ؛ وأما الأبناء فلم أر مثلهم لا يكلون ولا يملون ولا ينهزمون ؛ يقاتلون فى شدة البرد فى الأزر الخلق بلا درع ولا جوشن ولا مجن ، مرة بالسيف ومرة بالرمح ، ومرة بالسهام ، يخوضون الثلج فى الأنهار ويخوضون فى الهجير النار لا يكلون ولا يملون . فقال القائد : حسبنا بك حكما بيننا .

ذكر توجيه عبد الله بن طاهر

إلى عبيد الله بن السّرى

قال أبو حسان الزيادى ، والهاشمى ، والخوارزمى وجميع أصحاب التواريخ : كتب المأمون إلى عبد الله بن طاهر لما وجه بنصر بن شبث إلى بغداد فى سنة عشر ومائتين أن يتوجه إلى مصر وكان بينه وبين ابن السرى خلاف ومنعه من الدخول فكتب بذلك إلى أمير المؤمنين وأعلمه ما كان منه فكتب إليه فى محاربته إن امتنَع ، فلم يزل كذلك حتى طلب الأمان .

فحدثنى الحرانى قال : ذكر عطاء صاحب مظالم عبد الله بن طاهر قال: قال رجل من إخوة أمير المؤمنين المأمون : يا أمير المؤمنين ، إن عبد الله بن طاهر يميل إلى ولد أبى طالب وكذا كان أبوه وجده . قال : فدفع المأمون ذلك وأنكره . ثم عاد بمثل هذا القول فدس إليه المأمون رجلا ثم قال له : امض فى هيئة الغزاة أو النساك إلى مصر فادع جماعة من كبرائها إلى القاسم بن إبراهيم بن طباطبا واذكر مناقبه ، وعلمه ، وفضائله ، ثم صر بعد ذلك إلى بعض بطانة عبد الله بن طاهر ، ثم ائته فادعه ، ورغبه فى استجابته له وابحث عن دقيق نيته بحثاً شافياً وائتنى بما تسمع منه . قال : ففعل الرجل ما قال له وأمره به حتى إذا دعا جماعة من الرؤساء والأعلام قعد يوماً بباب عبد الله وقد ركب إلى عبيد الله بن السرى بعد صلحه وأمانه فلما انصرف قام إليه الرجل فأخرج من كمه رقعة فدفعها إليه . قال : فأخذها بيده . قال : فما هو إلا أن دخَل فخرج الحاجب إليه فأدخله عليه وهو قاعد على بساط ما بينهُ وبين الأرض غيره ، وقد مد رجليه وخُفاه فيهما فقال له : قد فهمت ما فى رقعتك من جملة كلامك فهات ما عندك . قال : ولى أمانك وذمة الله معك قال : لك ذلك .

قال : فأظهر له ما أراد ودعاه إلى القاسم وأخبره بفضائله ، وعلمه ، وزهده . فقال له عبد الله : أتنصفني ؟ قال : نعم ، قال : هل يجب شكر الله على العباد ؟ قال : نعم . قال : فهل يجب شكر بعضهم لبعض عند الإحسان والمنة والتفضل ؟ قال : نعم . قال : فتجيء إليّ وأنا فى هذه الحال التى ترى لى خاتم فى المشرق جائز وفى المغرب كذلك وفيما بينهما أمرى مطاع وقولى مقبول ، ثم ما التفت يمينى ولا شمالى وورائى وقدامى إلا رأيت نعمة لرجل أنعمها عَلَيّ ، ومنة ختم بها رقبتى ويداً لائحة بيضاء ابتدأنى بها تفضلا وكرماً فتدعونى إلى الكفر بهذه النعمة ، وهذا الإحسان ، وتقول : اغدر بمن كان أولاً لهذا وآخراً ، واسع فى إزالة خيط عنقه وسفك دمه ، ترانى لو دعوتنى إلى الجنة عياناً من حيث أعلم أكان الله يحب أن أغدر به ، وأ كفر إحسانه ومنته ، وأنكث بيعته . . فسكت الرجل ، فقال له عبد الله : أما إنه قد بلغنى أمرك وتالله ما أخاف عليك إلا نفسك فارحل عن هذا البلد ، فإن السلطان الأعظم إن بلغه أمرك ، وما آمن ذلك عليك ، كُنت الجانى عَلَى ظهرك وظهر غيرك .

قال : فلما أيس الرجل مما عنده جاء إلى المأمون فأخبره الخبر فاستبشر وقال : ذاك غرس يدى ، وإلف أدبى ، وترب تلقيحى ، ولم يظهر من ذلك لأحد شيئاً ولا علم به عبد الله إلا بعد موت المأمون .

وقال بعض أصحابنا : قال عبد الله بن طاهر وهو بمصر يحاصر لعبيد الله بن السرى :

بَكَرَتْ تُسْبِلُ دَمْعاً إذْ رَأَتْ وَشْكَ بَرَاحِى
وَتَبَدَّتْ صَقِيلاً وَيَمِيناً بِوِشَاحِى
[وَتَمَادَيتُ بِسَيْرٍ لِغُدُوٍ وَرَوَاحِ]
زَعَمَتْ جَهْلاً بأنّى تَعِبٌ غَيْرُ مُرَاحِ

أقصرى عَـنّى فإنى سالكٌ قصْـدَ فلاحى
أنا المـأمون عَبْدٌ مِنْهُ فى ظِلّ جَنَـاح
إنْ يُعَافِ الله يوماً فقريبٌ مُسْتـراحى
أوْ يَكُنْ هُلْكٌ فقُولى بِمَـويلٍ وَصِيـاح
حَلّ فى مِصْرَ قتيـلٌ وَدَعى عَنْكِ التّلاحى

وحدثنى أحمد بن محمد الثوابى ، عن ابن ذى القلمين قال : بعث عبيد الله بن السرىّ إلى عبد الله بن طاهر لما ورد مصر جماعة صانعوه من دخولها بألف وصيف ووصيفة ، مع كل وصيف ألف دينار فى كيس حرير وبعث بهم إليه ليلا فرد ذلك عبد الله عليه وكتب إليه : لو قبلت هديتك ليلا لقبلتها نهاراً (بل أنتم بهديتكم تفرحون ، ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون)[1] قال : فحينئذ طلب الأمان منه وخرج إليه .

قال أحمد بن أبى طاهر : خرج عبيد الله بن السرى إلى عبد الله بن طاهر يوم الخميس لخمس بقين من رجب سنة إحدى عشرة ومائتين وأدخل عبد الله بن السرى لسبع بقين من رجب وأنزل مدينة أبى جعفر المنصور ، قال : وأقام عبد الله بن طاهر بمصر والياً عليها وسائر الشام .

حدثنى طاهر بن خالد بن نزار الغسانى قال : كتب المأمون إلى عبد الله بن طاهر وهو بمصر حين فتح مصر فى أسفل كتاب له :

أخى أنْتَ وَمَـولاى الذى أشْكُرُ نُعْماهُ

(١) سورة النمل ٣٦ — ٣٧ .

فما أحببتَ مِنْ أمرٍ فإنى اليومَ أهواهُ
وما تكرهُ مِنْ شىء فإنى لستُ أرضاهُ
لكَ اللهُ على ذاكَ لكَ اللهُ لكَ اللهُ

وحدثنى عبد الله بن أحمد بن يوسف : أن أباه كتب إلى عبد الله بن طاهر عند خروج عبيد الله بن السرى يهنئه بذلك الفتح عليه : بلغنى أعز الله الأمير ما فتح الله عليك ، وخروج ابن السرى إليك ، فالحمد لله الناصر لدينه ، المعز لوليه وخليفته على عباده ، المذل لمن عَنَدَ عنه وعن حقه ؛ ورغب فى طاعته ، ونسأل الله أن يظاهر له النعم ، ويفتح له بلدان الشرك ، والحمد لله على ما ولاك به منذ ظعنت لوجهك ، فإنا ومن قبلنا نتذاكر سيرتك فى حربك وسلمك ، ونكثر التعجب لما وفقت له من الشدة واللبان ومواضعهما ، ولا نعلم سائس جند ، ولا رعية عدل بينهم عدلك ، ولا عفا بعد القدرة عمن آسفه وأضغنه عفوك وأقل ما رأينا ابن شرف لم يلق بيده متكلا على ما قدمت له أبوته ومن أوتى حظاً وكفاية وسلطاناً وولاية لم يخلد إلى ما عفا له حتى يخل بمساماة ما أمامه ، ثم لا نعلم سائساً استحق النجح لحسن السيرة ، وكف معرة الاتباع استحقاقك ، وما يستجيز أحد ممن قبلنا أن يقدم عليك أحداً يهوى عند الحاقة والنازلة المعضلة فليهنك هبة الله ومزيده ، وسوغك الله هذه النعم التى حواها لك بالمحافظة على ما به تمت لك من التمسك بحبل إمامك ومولاك ومولى جميع المسلمين ، وملاك وإيانا العيش ببقائه ، وأنت تعلم أنك لم تزل عندنا وعند من قبلنا مكرما ، مقدما ، معظما ، وقد زادك الله فى أعين الخاصة والعامة جلالة ونبالة فأضحوا يرجونك لأنفسهم ، ويعدونك لأحداثهم ونوائبهم ، وأرجو أن يوفقك الله لمحابه ، كما وفق لك صنعه وتوفيقه ، فقد أحسنت جوار النعمة فلم تطغك ، ولم تزدد إلا تذللا وتواضعاً فالحمد لله على ما آتاك ، وأبلاك ، وأودع فيك والسلام .

قال : وكتب إلى عبد الله طاهر الهدير بن صبح يستمنحه لشاعر مدحه :
جعلت فداك أيها الأمير ، ومد الله لك فى العمر ممتعا بالنعم ، مكفيا نوائب الدهر ، أنت أيها الأمير سماء تمطر ، وبحر لا يكدر ، وغيث ممرع يحيا به المجدب ، وأنت منتهى أبصار القوم ، ومثنى أعناقهم ، أصبحت لهم كالوالد تكرم زائرهم ، وتصفد مادحهم ، وتصدر واردهم وقد انفرجت عنه الضيقة ، وانزاحت عنه الكربة ، وكذلك كان آباؤك المتعلقين بهم ، والموجهين رعيتهم نحوهم ، وإن كنت قد تمهلت وسبقت سبقاً بينا ، وذهبت بحيث لا يشق أحد غبارك ، ولا يجرى إلى غايتك ، وفتحت يداً مخلصة مندفعة بالنوال والإفضال على الحالّين بساحتك ، والمنتجعين خصب جنابك ، وأنا أقدم عليك أيها الأمير فى أشياء تشبه قدرك ، وأحب أن تكون أكثر زادك مما أفادك الله صنيعةٌ تصنعها ، ونعمة تشكرها وتحوز أجرها وتصدق الظن فيها ، وفلان فى الصحبة من ذوى البيوتات التى ترغب فى الصنائع عندها والتوسط من الإداد التى توجب احتمال من حملها ، وقد أهدى إلى الأمير شعراً يتوصل به إليه ، ويستهدى من فضله وكرمه ما أعلم أنه يعينه فى مثله ، وسألنى أن أكون سبب ذلك وفاتحه ، وأولى الناس بالاعتداد بما ذكر والتطاول والابتهاج به رهط الأمير الأدنون ، وأسرته الأقربون الذين جعلهم الله سهمهم الذى به يقارعون وعزهم الذى به يعتزون ، وسندهم الذى به يلجؤون ، ومعقلهم الذى به يؤون فرأى الأمير فى هديته واستماعها منه ووضعه بحيث وضعه أمله ورجاؤه .

قال : فدعا عبد الله بن طاهر بالشاعر الذى وجهه إليه ، واستمع منه ، وأحسن جائزته وصرفه إليه .

قال عبد الله بن عمرو : حدثنا أبو محمد العباس بن عبد الله بن أبى عيسى الترقفى قال : حدثنى أبو النهى ، قال : كنت حاضراً لما جاء عبد الله بن طاهر إلى محمد بن

يوسف الفاريابى مخرج عبد الله إلى مصر ، وكان محمد بن يوسف بقيسارية وبينها وبين الطريق أميال وعبد الله فى خيله ورجله ، قال : فجاء صاحب لوائه حتى وقف على الباب ثم جاء عبد الله بن طاهر فوقف وخرج ابن لمحمد بن يوسف فسلم على عبد الله فقال له : أردت الشيخ ، قال : فدخل ومعه ختن لمحمد بن يوسف ورجلان سماهما ، قال : فقلنا له : عبد الله بن طاهر الأمير بالباب ، وعظمنا أمره ، فقال : لا أخرج إليه ، قال : فجهدنا به فلم يفعل ، قال : فقلنا ما نقول له ؟ قال : فاضطجع ثم قال : قولوا له إنه صاحب فراش ، فرجعنا إليه فقلنا : شيخ كبير صاحب فراش ، فقال : ما جئنا إلى هاهنا إلا ونحن نريد الدخول عليه ، فرجعنا إليه فقلنا له ، فقال : ما آذن له ، فلم نزل به فإنى أردت أن يأذن له فقلنا : ما نقول له ؟ فقال : قولوا صاحب بول ، قال : فصعر وجهه ثم قال : نحن فى سوادنا أزهد من هؤلاء فى صوفهم ثم مضى ولم يلقه ولا عرض له .

حدثنى عبد الله بن عمرو : قال : حدثنى عبد الله بن الحارث بن الحارث ابن ملك بن رزين المرزوى العدوى التميمى ، قال : أخبرنى عبدان بن كيلة بن عبد الله بن عثمان بن جبلة بن أبى رواد قال : سألنى عبد الله بن طاهر عن موت عبد الله بن المبارك فقلت له : سنة إحدى وثمانين ومائة ، فقال عبد الله بن طاهر : مولدنا .

وقال : حدثنى هارون بن عبد الله بن ميمون الخزاعى ، قال : حدثنا محمد بن أبى شيخ من أهل الرقة ، قال : حدثنى أحمد بن يزيد بن أسد السلمى قال : كنت مع طاهر بن الحسين بالرقة وأنا أحد قواده ، وكانت لى به خاصية أجلس عن يمينه فخرج علينا يوماً راكباً ومشينا بين يديه وهو يتمثل :

عَلَيْكُم بدارى فاهْدمُوها فإنَّها تُراثُ كريم لاَ يَخافُ العَوَاقبا

إذا هَمَّ ألقَى بَيْنَ عَيْنَيْه عَزْمَهُ وأعْرَضَ عن ذِكْرِ العواقِبِ جانبا

سَأَدْحِضُ عَنِّى العَـــارَ بالسَّيْفِ جالِباً
عَلَىَّ قَضَـــاءَ اللهِ ما كَانَ جالِبا

فدار حول الرافقة ثم رجع فجلس فى مجلسه ثم نظر فى قصص ورقاع فوقع فيها صلات أحصيت ألف ألف وسبع مائة ألف فلما فرغ نظر إلى مستطعا للكلام فقلت : أصلح الله الأمير، ما رأيت أنبل من هذا المجلس ولا أحسن ، فدعوت له ثم قلت : لكنه سرف فقال : السرف من الشرف ، فأردت الآية التى فيها : (إذا أنفقوا لم يسرفوا)[١] فجئت بالأخرى : (إن الله لا يحب المسرفين)[٢] فقال طاهر : صدق الله وما قلنا كما قلنا ، ثم ما ضرب الدهر حتى اجتمعنا مع ابنه عبد الله بن طاهر فى ذلك القصر بعينه فخرج علينا راكباً وهو يتمثل :

يأيهـــا المتمنى أنْ يـكونَ فتًى
مِثْلَ ابن لَيْلَى لَقَدْ خَلَّى لكَ السُّبُلاَ
أنظُرْ ثلاَثَ خِــــلال قَدْ جُمِعْنَ لَهُ
هَلْ سُبَّ مِنْ أحدٍ أوْ سَبَّ أوْ بَخِلاَ

ثم دار حول الرافقة ثم انصرف وجلس مجلسه وحضرنا وأحضرت رقاع وقصص فجعل يوقع فيها وأنا أحصى فبلغت صلاته ألفى ألف وسبع مائة ألف زيادة ألف ألف على ما وصل أبوه ثم التفت لى مستطعا لكلامى فدعوت له وحسنت فعاله ثم أتبعت ذلك بأن قلت : لكنه سرف ، فقال : السرف من الشرف ، السرف من الشرف ، كررها فقلت : إنى كنت أسقطت عند ذى اليمينين وحدثته الحديث فما زال يضحك .

حدثنى أبو الحسن أحمد بن محمد المهلبى قال : حدثنى يحيى بن الحسن بن على بن

---

(١) سورة الفرقان . (٢) سورة الأنعام .

معاذ بن مسلم قال : إنى كنت بالرقة بين يدى محمد بن طاهر بن الحسين على بركة إذ دعوت بغلام لى فكلمته بالفارسية فدخل العتابى وكان حاضراً فى كلامنا فتكلم معى بالفارسية ، فقلت له : أبا عمرو مالك وهذه الرطانة ؟ قال : فقال لى : قدمت بلدكم هذه ثلاث قدمات وكتبت كتب العجم التى فى الخزانة بمرو ، وكانت الكتب سقطت إلى ما هناك مع يزدجرد فهى قائمة إلى الساعة ، فقال : كتبت منها حاجتى ثم قدمت نيسابور وجزتها بعشر فراسخ إلى قرية يقال لها : ذودر ، فذكرت كتابا لم أقض حاجتى منه فرجعت إلى مرو فأقمت أشهراً ، قال : قلت : أبا عمرو لم كتبت كتب العجم ؟ فقال لى : وهل المعانى إلا فى كتب العجم والبلاغة ، اللغة لنا والمعانى لهم ، ثم كان يذاكرنى ويحدثنى بالفارسية كثيراً .

قال : وحدثنى عبد الغفار بن محمد النسائى ، قال : حدثنى أحمد بن حفص بن عمر ، عن أبى السمراء قال : خرجنا مع الأمير عبد الله بن طاهر متوجهين إلى مصر حتى إذا كنا بين الرملة ودمشق إذا نحن بأعرابى قد اعترض فإذا شيخ فيه بقية على بعير له أورق فسلم علينا ، فرددنا عليه السلام ، قال أبو السمراء : وأنا وإسحاق بن إبراهيم الرافقى ، وإسحاق بن أبى ربعى ونحن نساير الأمير وكنا يومئذ أفره من الأمير دابة وأجود منه كسوة قال : فجعل الأعرابى ينظر فى وجوهنا قال فقلت : يا شيخ قد ألححت فى النظر أعرفت شيئاً أم أنكرته ؟ قال : لا والله ما عرفتكم قبل يومى هذا ، ولا أنكرتكم لسوء أراه بكم ولكنى رجل حسن الفراسة فى الناس جيد المعرفة بهم ، قال : فأشرت إلى إسحاق بن أبى ربعى فقلت ما تقول فى هذا ؟ فقال :

أَرَى كاتباً دَاهِى الكِتَابة بَيِّنٌ عَلَيْه وَتَأْدِيبُ العِرَاق مُنِيرُ
لَهُ حَرَكاتٌ قَدْ يُشَاهِدْنَ أَنَّهُ عَلِيمٌ بِتَقْسِيطِ الخَرَاجِ بَصِيرُ

قال : ونظر إلى إسحاق بن إبراهيم الرافقى فقال :

ومُظْهِر نُسْكٍ ما عليه ضميره ... يُحِبُّ الهدَايا بالرجال مَكُورُ
إخَالُ به جُبْنًا وبُخْلاً وشيمَة ... تُخَبِّرُ عنهُ أنَّهُ لوزيرُ

ثم نظر إلىّ وأنشأ يقول :

وهذا نَدِيمٌ للأميرِ ومُؤْنِسٌ ... يكون لهُ بالقُرْبِ منه سُرُورُ
إخالهُ الأشْعَارَ والعِلْمَ راوِيًا ... فبَعْضٌ نَدِيمٌ مرةً وسَمِيرُ

ثم نظر إلى الأمير فأنشأ يقول :

وهٰذَا الأميرُ المُرْتجى سَيْبُ كفِّه ... فما إنْ لهُ فيمنْ رَأيتُ نَظِيرُ
عليهِ رداءٌ منْ جَمَال وهَيْبَة ... ووَجْهٌ بإدْرَاك النَّجاح بَشِيرُ
لقدْ عصم الإسلام منهُ نَدَا يَدِ ... به عَاشَ مَعْرُوفٌ ومَاتَ نَكِيرُ
ألا إنما عَبْدُ الإله بْنُ طاهر ... لنا والِدٌ بَرٌّ بنا وأَمِيرُ

قال : فوقع ذلك أحسن موقع من عبد الله ، وأعجبه ما قال الشيخ ، فأمر له بخمسمائة دينار ، وأمره أن يصحبه .

قال : حدثنى الحسن بن يحيي بن عبد الرحمن بن عثمان بن سعد الفهرى ، قال : لقينا البُطَيْن الشاعر الحمصى ونحن مع عبد الله بن طاهر فيما بين سلمية وحمص ، فوقف على الطريق فقال لعبد الله بن طاهر :

مَرْحَبًا مَرْحَبًا أَهْلاً وَسَهْلاً ... بابن ذى الجُود طاهر بن الحُسَيْنِ
مَرْحَبًا مَرْحَبًا أَهْلاً وَسَهْلاً ... بابن ذى الغُرَّتين فى الدَّعْوَتَيْنِ
مَرْحَبًا مَرْحَبًا بمَنْ كَفُّهُ البَحْـ ... ـرُ إذا فاضَ مُزْبِدَ الرَّجْوَيْنِ
ما يُبَالى المأمُونُ أيَّدَهُ اللـ ... ـهُ إذا كُنْتُمَا لَهُ بَاقِيَيْنِ

أنتَ غَرْبٌ وذاكَ شَرْقٌ مُقيماً أىُّ فتىً أتى مِنَ الجانبين
وحَقِيقٌ إذ كُنْتُما فى قَدِيم لزُرَيْق ومُصْعب وحُسَين
أنْ تَنالاَ ما نِلْتُما مِنَ المَجْ دِ وأنْ تَعْلُوا عَلَى الثَّقَلَين

قال : من أنت ثكلتك أمك ؟ قال: أنا البطين الشاعر الحمصى ، قال : اركب ، يا غلام انظر كم بيت قال ؟ قال : سبعة ، فأمر له بسبعة آلاف درهم ، أو سبع مائة دينار ، ثم لم يزل معه حتى دخلوا مصر والإسكندرية حتى انخسف به وبدابته مخرج فمات فيه بالإسكندرية .

حدثنى مسعود بن عيسى بن إسماعيل العبدى ، قال : أخبرنى موسى بن عبيد الله التميمى ، قال : وفد إلى عبد الله بن طاهر عدة من الشعراء ، فعلم أنهم على بابه ، فقال لخادمه — وكان أديباً — : أخرج إلى القوم فقل لهم من كان منكم يقول كما قال كلثوم بن عمرو فى الرشيد حيث يقول :

فُتَ المَمادحَ إلاَّ أنَّ ألسُنَنا مُسْتَنْطِقاتٌ بما تُخْفِى الضمائِرُ
مُسْتَنْبِطٌ عَزَماتِ القلْبِ مِنْ فِكَر ما بَيْنَهُنَّ وبين الله مَعْمورُ
ماذا عَسَى مادِحٌ يُثْنِى عليكَ وقدْ ناداكَ فى الوَحْىِ تَقْدِيسٌ وتَطْهيرُ

فمن كان منكم يقول مثل هذا وإلا فليرحل [فرحلوا] إلا أربعة ، فخرج إليهم رسوله ثانية فقال : من يضف إلى هذا البيت على حروف قافيته بيتاً وهو :

لم يَصِحْ لِلبَيْــــين مِنْهُمْ صُرَدٌ وغُرابٌ لا ، ولـكنْ طِيْطَوَى

فقال رجل من أهل الموصل :

فاسْتَقَـــلوا بُـكْرَةً يَقْدُمُهُمْ رَجُلٌ يَسْـكُنُ حِصْنَىْ نِينَوِى

فقال للرسول : قل له لم تعمل شيئاً فهل عنده غيره شىء ؟ فقال أبو السناء القيسى :

وَنُبَيْطِىٌ طَفَا فى لُجَّــــة صاحَ لَمَّا كَظَّهُ التعطيطُ وَى

فصوبه ، وأمر له بخمسين ديناراً . قال : وامتحن عبد الله بن طاهر غير هؤلاء من الشعراء فقال :

قُنْبُرَةٌ تَنْقُــــرُ فى قَرْيَة وَسْطَ قَــرَاحٍ لبَنى مِنْقَر

من كان منكم يجيب ببيت مثله فيه خمسة قافات وخمس راءات ؟ فقال بعض الشعراء :

قَرَّتْ به مِنْقَرٌ واستأنست بقُمْرِىٍّ يَنْقُــرُ مع قُنْبرُ

فصوبه وأجازه .

حدثنا محمد بن الهيثم بن عدى ، قال : حدثنى الحسن بن براق : أن عبد الله ابن طاهر أهدى إلى المأمون قينة ، وأمرها أن تنشد شعراً لعبد الله ، فلما جلست فى مجلس المأمون أنشأت تقول كما أمرها عبد الله :

أغمــدى سَيْفى وقُولى جــمَّ يا سَيْفُ طويلا

قد فَتَحْتَ الشَّرْقَ والغَرْ بَ وآمَنْتَ السَّبيلا

فلما فرغت قال لها المأمون لا تقطعى صوتك وقولى ما أقول لك :

بِنَا نِلْتَ الذِى نِلْــتَ فَدَعْ عَنْكَ الفُضُولاَ

أَنْتَ لَوْلا نَحْنُ فى الشــكَّةِ لم تَسْــوَ فَتيلا

ثم قال : ارجعى إليه هذا فإن شاء بعد فليردك .

قال ابن أبى طاهر اشترى عبد الله بن طاهر جارية المارقى بخمسة آلاف دينار، وأهداها إلى المأمون ، فلما أدخلت عليه قال لها : غنى يا جارية ، فغنت وهى قائمة ، فقال لها : لم غنيت وأنت قائمة ، وما منعك من الجلوس ؟ فقالت : ياسيدى أمرتنى أن أغنى ولم تأمرنى أن أجلس ، فغنيت بأمرك ، وكرهت سوء الأدب فى الجلوس بغير إذنك . فوهب لها مالا ، واستحسن ذلك من فعلها .

وذكر عن أبي السمراء ، قال : كنت يوماً عند أبي العباس عبد الله بن طاهر رضى الله عنه ، وليس فى المجلس غيرى وأنا بالقرب منه ، ودخل أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم ، فاستدناه أبو العباس وناجاه بشيء ، فاعتمد إسحاق على سيفه وأصغى لمناجاته ، وحولت وجهى وأنا ثابت مكانى ، وطالت النجوى بينهما ، واعترتنى حيرة فيما بين القعود على ما أنا عليه أو القيام ، وانقطع ما كانا فيه ، ورجع إسحاق إلى موقفه ، ونظر إلىّ أبى العباس فقال : يا أبا السمراء :

إذا النَّجِيَّان دنَّا عَنْكَ أمْرَهُما فارْتَجْ بِسَمْعك تجْهَلْ ما يَقُولان
ولا تُحَمِّلْهُمَا ثِقَــلاً بخوفِهِمَا بهِ تُنَاجيهِمَا فى المجْلِسِ الدَّانى

قال أبو السمراء : فما رأيت أكرم منه ، ولا أرفق تأديباً ، ترك مطالبتى فى هفوتى بحق الأمراء وأدبنى أدب النظراء .

وذكر عن محمد بن عيسى بن عبد الرحمن الكاتب : أنه حضر أبا العباس عبد الله بن طاهر وعنده شيخ من الفرس ، فقال له الشيخ فى عرض كلام جرى : من حكم الفرس كلمتان أرويهما ؟ فقال له أبو العباس : وما هما ؟ قال : كانت الفرس تقول : لا توحش الحر فإن أوحشته فلا ترتبطه ، وكانت تقول : ادابنك الله تعمل الشر فإنى إذا رأيتك عاملا به رأيته واقعاً بك .

حدثنى محمد بن عيسى قال : قال لى أبو العباس عبد الله بن طاهر : آفة الشاعر البخل . قال : قلت : وما مقدار ما به يبخل الشاعر أعز الله الأمير ؟ قال : يقول أحدهم من الشعر خمسين بيتاً فيفسده ببيت يبخل يطرحه .

حدثنى بعض آل طاهر : أن أبا العباس عبد الله بن طاهر لما أراد الخروج إلى ناحية الشام لمحاربة نصر بن شبث سأله المأمون عمن يستخلف بمدينة السلام ، فقال : أستخلف أعز الله أمير المؤمنين اليقطينى ، فقال له المأمون : لا تخرج هذا

الأمر من أهلك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ليس فى أهلى من يصلح لخدمة أمير المؤمنين وأرتضيه له ، فقال له المأمون : استخلف إسحاق بن إبراهيم ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لست أرتضيه ، أو كما قال ، فقال له المأمون : استخلفه ونحن نقومه لك ، فلما انصرف عبد الله من الشام ووافى مدينة السلام قال له المأمون يوماً : يا أبا العباس ، كيف رأيت تقويمنا إسحاق بعدك .

قال : وقال المأمون يوماً لأصحابه : هل تعرفون رجلا برع بنفسه حتى مد أهله ، وبرز على جميع أهل دهره فى نزاهة نفسه ، وحسن سيرته ، وكرم حزيبته ، فذكر قوم ناساً فأطروهم ، فقال : لم أرد هؤلاء ، فقال على بن صالح صاحب المصلى : ما أعلم يا أمير المؤمنين أحداً أكمل هذه الخصال إلا عمر بن الخطاب رحمه الله ، فقال المأمون : اللهم غفراً لم نرد قريشاً ولا أخلافها . فأمسك القوم جميعاً ، فقال المأمون : ذاك عبد الله بن طاهر وليته مصر وأموالها جمة ، فعرض عليه عبيد الله بن السرى من الأموال ما يقصر عنه الوصف كثرة ، فما تعرض لدينار منها ولا درهم ، وما خرج عن مصر إلا بعشرة آلاف دينار وثلاثة أفراس وحمارين ، ولكنه غرس يدى وخريج أدبى ، ولأنشدنكم أبياتاً فى صفته ثم تمثل :

حليمٌ مَعَ التَّقْوَى شُجَاعٌ مَعَ الْجَدَا ... ندىً حين لا يُنْدِى السَّحابُ سكوبُ
شديدُ مناط القلب فى الموْقِفِ الّذِى ... بِهِ لِقُلُوبِ العَالمين وجيبُ
وَيَجْلُو أُمُوراً لَوْ تَكَلَّفَ غيرهُ ... لمات خُفَاتاً أَوْ يَكَادُ يَذُوبُ
فَتَى هُوَ مِنْ غيْرِ التَّخلُّقِ مَاجِدٌ ... ومِنْ غيْرِ تَأْدِيبِ الرِّجال أديبُ

حدثنى بعض أصحابنا قال : سمعت عبد الله بن طاهر يعظ منصور بن طلحة ، وينهاه عن الكلام فى الإمامة يقول : إنما نبت شعرنا على رؤوسنا ببنى العباس ، ولو كان هؤلاء القوم الذى يعزى إليهم هذا الأمر فى مكان هؤلاء لكانت الرحمة من الناس لهم لأن سبيل الناس على ذلك .

ومن أخبار طلحة بن طاهر بن الحسين

قال أحمد بن أبى طاهر : حدثنى أبو مسلم عبد الرحمن بن حمزة بن عفيف ، حدثنى أبى قال : خرجنا إلى الصيد مع طلحة بن طاهر فطفنا فلم نصب شيئاً ومعنا أبو السحيل ، وأحمد بن أبى نصر يلعب بالشطرنج قال : فالتفت إلى فقال : رأيت مثل هذا اليوم ؟ قال قلت : وقد حضرنى فيه أبيات ثم أنشأت أقول :

كَيْفَ بالصَّيْدِ لَنَا يَا قَوْمُ لاَ بَلْ كَيْفَ كَيْفَا
بَلْ بمَحْدُودَيْنِ قَدْ هَـ ـزَّا لَنَا رُمْحاً وَسَيْفَا
فلو أنَّ الوَحْشَ طُرًّا حُشِرَتْ مَشْتَى وَصَيْفَا
وَخَرَجْنَا وَهُمَا مَعْـــنَا لَمَا صِدْنَا خُشَيْفَا

المحدودين أبو السحيل ، وأحمد بن أبى نصر .

قال : وحدثنى أبى قال: خرجنا مع طلحة إلى الصيد ومعنا عقاب فمررنا بامرأة وهى تغسل بنيا لها سمينا كالفهد فضينا إلى صيدنا فلما تباعدنا عن المرأة خلاّ العقاب فأرسلناه فانقض نحو المرأة قال قلت : ذهب والله الصبى . قال : فاتبعناه فوجدناه قد خطف الصبى من المرأة ورفعه إلى الهواء فضربنا له الطبل فأرسله ميتا . فقال لى طلحة ما ترى أن أصنع ؟ قلت : تعطيها ديته فأعطاها ديته .

حدثنى أبو العباس محمد بن على بن طاهر . قال : حدثتنى خزامى جارية العباس ابن جعفر الأشعثى الخزاعى اليمامية وكانت قارئة تقرأ قالت : كان عمك طلحة يزور الفضل بن العباس فيخرج جماعة من جوارى أبيه إليه ، فذكرت لطلحة جارية مغنية قدم بها من العراق فأمر بإحضارها فأحضرت مع مولاها فأدخلت وقعد مولاها خارج الدار فنولت العود وقيل تغنى فاندفعت تغنى :

شَـوْقِى إِلَيْكَ جَدِيدُ فِى كُلِّ يَوْمٍ يَزِيدُ
وَالْعَيْنُ بَعْدَ دُمُوعٍ مِثْلَ السَّحَابِ يَجُودُ

وهى تبكى ودموعها على عودها تقطر فقال لها : ويحك مالك تبكين ؟ فقالت : إنها تحب مولاها ومولاها يحبها . قال : فلم يبيعك ؟ . قالت الخلة ، فأمر بشراها فاشتريت باثنى عشر ألف درهم ودفع المال إلى المولى ثم أمر بمسئلته عن الخبر فوافق قول الجارية فأمر بتسليم الجارية إليه وترك المال عليه .

حدثنى أحمد بن يحيى الرازى . قال : سمعت محمد بن المثنى بن الحجاج عن قتيبة بن مسلم قال : بعث إلىّ طلحة بن طاهر يوماً وقد انصرف من وقعة الشراة وقد أصابته ضربة فى وجهه . فقال الغلام : أجب : قال قلت : وما يعمل ؟ قال : يشرب فمضيت إليه فأدخل فإذا هو جالس قد عصب ضربته وتقلنس بقلنسوة مكية . فقلت : سبحان الله أيها الأمير ما حملك على لبس هذا ؟ . قال : تبرماً بغيره . ثم قال بالله غنينى :

إِنِّى لَأَكْنِى بِأَجْبَالٍ عَنْ أَجْبُلِهَا وَبِاسْمِ أَوْدِيَةٍ عَنِ اسْمِ وَادِيهَا
عَمْداً لِيَحْسَبَهَا الوَاشُونَ غَائِبَةً أُخْرَى وَيَحْسَبَ أَنِّى لَا أُبَالِيهَا

قال : أحسنت والله أعد . فما زلت أعيدهما عليه حتى حضره العتمة فقال لخادم له : هل بالحضرة من مال ؟ فقال : مقدار سبع بدر . فقال : تحمل معه . فلما خرجت من عنده تبعنى جماعة من الغلمان يسئلونى فوزعت المال فيهم . فرجع إليه الخبر فكأنه وجد علىّ من ذلك فلم يبعث إلىّ ثلاثا فجلست ليلة فتناولت الدواة وأنشأت أقول :

عَلَّمَنِى جُودُكَ السَّمَاحَ فَمَا أَبْقَيْتُ شَيْئًا لَدَىَّ مِنْ صِلَتِكْ
تَمَامَ شَهْرٍ أَلَا سَمَحْتُ بِهِ كَأَنَّ لِى قُدْرَةً كَمَقْدِرَتِكْ

تُتْلِفُ فى اليَوْمِ بالهِبَاتِ وَفى الـ ـسّاعة مَا تَجْتَنِيه فى سَنَتِكْ
وَلَسْتُ أدْرِى من أيْنَ يُنْفقَ لَوْ لاَ أنّ رَبى يَجْزِى عَلَى هِبَتِكْ

فلما كان فى اليوم الرابع بعث إلىّ فصرت إليه فدخلت فسلمت فرفع صوته إلىّ ثم قال : اسقوه رطلين فسقيت رطلين ثم قال غننى قال : فغنيته بهذه الأبيات . فقال لى : أدن . فدنوت . فقال لى : أجلس فجلست . فقال لى : أعد الصوت . فأعدت ففهمه فلما عرف معنى الشعر قال لخادم له : احضرنى محمداً يعنى الطاهرى فقال له ما عندك من مال الضياع ؟ قال : ثمان مائة ألف . قال : أحضرنيها الساعة فجىء بثمانين بدرة فقال : غلمان فأحضر ثمانون مملوكا فقال أوصلوا المال ، ثم قال لى يا محمد : خذ المال والمماليك لا تحتاج أن تعطيهم شيئاً .

ذكر وفاة طلحة بن طاهر

قال أحمد بن أبى طاهر : حدثنى بعض أصحابنا . قال : بعث المأمون إلى كاتب لطلحة يقال له على بن أبى يحيى فطلبه فأشخصه إليه وخرج مشيعاً له فلما رجع أكل من هذا المبرقط بالريثاء فاشتكى بطنه فقال أجد فى بطنى وجعاً . قال : ثم أصبح فوجده فلما كان فى يوم الأحد مات . قال قلت له : بخراسان ريثاء ؟ قال : يحمل من العراق أى يابس قال : وكانت وفاته ببلخ فرثاه أبو السحيل بشعر له طويل يقول فيه :

أَلْمِمْ بِبَلْخَ عَلَى القُبُورِ مُسَلِّمًا إنّ القُبُورَ حَقِيقَةٌ بِالْمَام
شَوْقًا إلَى جَدَثٍ أقَامَ بِقَفْرَةٍ مَنْ كَانَ مُعْتَليًا عَلَى الأقْوَام
يَا قَبْرَ طَلْحَةَ فِيكَ مَثْوَى سَيِّدٍ لِمُسَوَّدِينَ مُهَذَّبِينَ كِرَام
مِنْ مَعْشَرٍ تُرْوِى السُّيُوفَ أكفُّهمْ لاَ يَحْسِرُونَ سَوَاعداً لِلطَّامى

قال : وكان عبد الله بن طاهر يسير بين يدى المأمون بالحربة على أصغر فر

أبو عيسى عن الموكب حتى ساير عبد الله بن طاهر فقال له : كان لى برذون أصفر كأنه برذونك هذا . قال إذاً يكون أصفرى هو المصدوم .

ذكر أخبار من أخبار المأمون

عن عبد الله بن طاهر

قال أحمد بن أبى طاهر : ذكر لنا عن عبد الله بن طاهر قال : سمعت المأمون يقول : الهواء جسم ، وكان يخالف من يقول إنه غير جسم . قال عبد الله : وأرانا المأمون دليله على ذلك فدعا بكوز زجاج له بلبلة فوضع أصبعه على البلبلة وملأ الكوز ماء فامتلأ إلى أعلاه ولم يدخل البلبلة منه شىء ، فلما رفع أصبعه من البلبلة صار الماء فيها حتى فار فخرج فدل على أن الذى كان فى البلبلة هواء محصور ، وأن المحصور جسم .

حدثنى سليمان بن يحيى بن معاذ ، عن عبد الله بن طاهر ، عن المأمون قال : تفسير حديث : « إذا لم تستح فافعل ما شئت » إنما معناه : إذا كنت تفعل ما لا يُستحى منه فافعل ما شئت . قال : وحدثنى سليمان بن يحيى بن معاذ ، عن عبد الله بن طاهر عن المأمون قال : أرسل الوليد بن يزيد إلى شراعة بن زيد فدخل عليه فى قلنسوة طويلة وطيلسان فقال الوليد لحاجبه : أهو هو ؟ فقال : نعم يا أمير المؤمنين . قال : إنا لم نبعث إليك نسألك عن الكتاب والسنة قال : لو سألنى أمير المؤمنين عنهما لوجدنى بهما جاهلا فسر الوليد بذلك فقال له : اجلس فأسألك عن الشراب . فقال : عن أى الشراب يسأل أمير المؤمنين ؟ قال: عن السويق . قال : شراب المأتم والنساء ولا يشتغل به عاقل . قال : فأخبرنى عن اللبن ؟ قال : فقال شَرَاعَة : إنى لأستحى أمى من كثرة ما ارتضعت من ثديها أن أعود فى اللبن قال : فأخبرنى عن الماء ؟ قال : يشركك فيه كل وغد حتى الحمار والبغل . فقال له :

حدثنى عن نبيذ التمر ؟ قال سريع الأخذ ، سريع الانفشاش . قال : فما تقول فى نبيذ الزبيب ؟ قال : حثيث المدخل عسر المخرج . قال : فأخبرنى عن الخمر ؟ قال : تلك صديقة روحى . فقال له الوليد : أى الطعام خير لأصحاب الشراب ؟ قال الحلو خير لهم . وهم إلى الحامض أقرب . قال : فأى المجالس خير لهم ؟ قال عجبت ممن لا يؤذيه حر الشمس ولا برد ظل كيف يختار على وجه السماء نديماً . فقال له الوليد : أنت صديقى فدعا له بقدح يقال له زُبّ فرعون فقال : لا يسقى فيه إلا أخص الناس به فسقاه فيه(١) .

ذكر أخبار ابن عائشة ومقتله

فى أيام المأمون

قال أحمد بن أبى طاهر لما كان سنة عشر ومائتين أخذ إبراهيم بن عائشة ، ومالك بن شاهى وأصحابهم يوم السبت لست خلون من صفر وأمر المأمون بحبسهم وكان مقتل ابن عائشة ، ومحمد بن إبراهيم الإفريقى وأصحابهم ليلة الثلاثاء لأربع عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة وصلبوا يوم الثلاثاء وصلب البغوارى معهم لليلة بقيت من رجب وكان سبب حبسهم أنهم كانوا يدعون إلى إبراهيم ابن المهدى .



قال ابن شبانة : أقام المأمون إبراهيم بن عائشة فى الشمس ثلاثة أيام على باب المأمون وضربه يوم الثلاثاء بالسياط ، وحبسه فى المطبق ، وضرب مالك بن شاهى وأصحابه وكتبوا للمأمون تسمية من دخل معهم فى هذا الأمر من القواد وغيرهم فلم يعرض لهم المأمون ، وكانوا قد اتعدوا على أن يقطعوا الجسر إذا خرج الجند

(١) والمؤلف ممن يعاقر الراح فلا يصدق فى أقاصيص الأقداح (ذ)

يستقبلون نصر بن شبث ، فغمز بهم فأخذوا ودخل نصر وحده لم يستقبله أحد .

حدثنى محمد بن عبد الله بن عمر البلخى قال : حدثنى يحيى بن الحسن بن عبد الخالق خال الفضل بن الربيع . قال : حدثنى محمد بن إسحاق بن جرير مولى آل المسيب قال : قال عياش بن الهيثم : لما كان فى ليلة المطبق حضرت فى واسط من القوم فرآنى المأمون فقال : يا بائع العساكر ، يا صديق عيسى بن أبى خالد تأخر إلى الساعة ، ما أملكه صدقة وقتلنى الله إن لم أقتلك فاختفيت منه . قال : ثم قلت إن لم يرنى فذاك أسرع لذكره ، فظهرت له وقد خرج من الطاقات فنظر إلى فقال : ادنه ، فدنوت فقال : من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذى هو خير وليكفِّر والكفارة أصلح من قتلك ولا تعد .

قال ابن شبانة : وفى سنة عشر ومائتين قتل إبراهيم بن عائشة ومن كان محبوساً معه وفيهم رجل يقال له أبو مسمار من شطار بغداد ورجل آخر لم يسمه ، وكان السبب فى قتلهم بعد حبسهم أن أهل المطبق رفع عليهم أنهم يريدون أن يشغبوا ، وأن ينقبوا السجن ، وكانوا قبل ذلك بيومين قد سدوا باب السجن من داخل فلم يدعوا أحداً يدخل عليهم فلما كان الليل وسمعوا شغبهم وأصواتهم وبلغ أمير المؤمنين خبرهم ركب إليهم ودعا بهؤلاء الأربعة فضرب أعناقهم فلما كان بالغداة صلبهم على الجسر الأسفل وذلك فيما ذكر محمد بن الهيثم بن شبابة فى ليلة الأربعاء لأربع عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة ، ولما كان من غد يوم الأربعاء أنزل إبراهيم بن عائشة فكفن وصلى عليه ودفن فى مقابر قريش ، وأنزل الإفريقى فدفن فى مقابر الخيزران من الجانب الشرقى وترك الباقون على حالهم .



وقد ذكروا أن ابن عائشة وأصحابه كانوا دسوا من أحرق سوق العطارين ، والصيارفة ، والصفارين ، والقرائين وأصحاب الراهدار وبعض الربابين ، وذلك

ليلة السبت لليلة بقيت من جمادى الأولى ، وقبل ذلك أو بعده ما أحرقوا أصحاب الحطب فى البغيين وقال بعضهم : ليلة الجمعة لأربع خلون من رجب ، وقال بعضهم قبل ذلك .

وقال القاسم بن سعيد سمعت الفضل بن مروان يقول : كان أبو إسحاق المعتصم بالله فى الليلة التى ركب المأمون فيها لقتل ابن عائشة عليلا قال : فبعث المأمون إلى أبى إسحاق ابعث إلى بكاتبك الفضل وليكن معه جميع قوادك وجندك فركبت أنا وهم جميعاً معى وقلت ليس هو إلى شىء أحوج منه إلى شمع وكان فى خزانة أبى إسحاق يومئذ سبع مائة شمعة فحملتها معى ورفعت إلى كل واحد من الرجالة عشراً يحملها ، ثم دخلنا المدينة فلم نصل إلى المأمون من كثرة الناس ، فقلت له : بلغنى أن حميداً كان أول من لحق به ، فقال : لا ، وجاء إسحاق بن إبراهيم فلم يصل من الزحام وكان شاربا يعنى إسحاق كان يشرب عنده تلك الليلة عُمَير الباذغيسى ، وكان المأمون أيضاً شاربا ولم يكن بالمتلىء ، قال : فوقفت فى طريقه فى المدينة فلما انصرف بعد أن قتل ابن عائشة فبلغ إلى موضعى نزلت عن دابتى فقال : من هذا ؟ قلت : الفضل جعلنى الله فداء أمير المؤمنين ، فقال : أركب معك القواد والجند ؟ قلت : نعم ، قال : ومعك الشمع ؟ قلت : نعم ، فأمرت حينئذ بعض من يقرب منى أن يقف ثلاث مائة رجل من الرجالة مع كل واحد منهم شمعة على باب خراسان ففعلوا ، فلما انتهى إليهم قال : ما هذا ؟ قلت : الشمع الذى سألنى عنه أمير المؤمنين ، قال : بارك الله عليك ، قال : ثم قال لى : خلف جميع من معك هاهنا ، قال : وفيهم الأفشين وأشناس وتقدم إليهم أن يقفوا يعنى فى المدينة على ظهور دوابهم ، ويفوقوا قسيهم فإن تحرك شىء أتوا عليه ، قال : فأمرتهم بذلك ، ثم قال : امض إلى أخى فأقرأه السلام وقل له : قد قتل الله عدواً لك من حاله وأمره ، ومن قبل ذلك قد أمرنى بالمقام فى المدينة ،

ثم قال : لهذا غيرك فحينئذ أمرنى أن أخلف من معى هناك مستعدين ، قال : ثم بكر هو على أبى إسحاق فخبره الخبر وقال له : قام الفضل بما نحتاج إليه فكان أبو إسحاق بعد ذلك لا يخل خزائنه من خمسة آلاف شمعة عدة .

قال القاسم بن سعيد : فقلت للفضل بلغنا أن ابن عائشة شتم المأمون فى وجهه تلك الليلة وأن ذلك دعاه إلى قتله ؟ فقال : لا ، ولا كلمة واحدة البتة .

قال : ولما ركب المأمون إلى المطبق فى الليلة التى قتل فيها إبراهيم بن عائشة ، والإفريقى وأصحابه التفت فإذا هو بعبد الرحمن بن إسحاق فقال له : جزاك الله خيراً فأنت والله للسار، والعار ، والخير ، والشر ، والشدة ، والرخاء ، لا كالمنتفخ الأعفاج الكثير الاجاج لا يمت بقديم حرمة ، ولا بحديث خدمة أكثر من كان فى الفتنة شاطراً وفى السلامة مقامراً ، قال : وإذا عياش بن القاسم صاحب الجسر قد طلع ، فقال له : يا ابن اللخناء يحضر الحاكم ضرب الأعناق وصاحب الشرطة مشغول بمجالسة الفساق ، قال : فارتج على عياش فقال المأمون : هذا الذى كنا فى ذكره آنفاً ، قال : قلت : يا أمير المؤمنين شيخ قد ثقل عن الحركة ، قال : لا تقل هذا ، فوالله لقد تغدى اليوم مع ابن العلاء وشرب معه ونا كه فأعرض عبد الرحمن بن إسحاق عنه بوجهه وقال : أمير المؤمنين أعلم برعاياه وأصحابه منا .

قال : واستقبله الجعفرى الملقب بكلب الجنة ومعه لحاف قد تترس به وعصا قد أخذها من حطب البقال فقال : ما هذا ؟ فقال : يا سيدى لم يحضرنى غير لحافى فجعلته مجناً ، وعصا وجدتها مع حطب البقال فاختلستها منه فقال : لله أبوك فقد جدت بنفسك ، وأسرعت إلى إمامك وأمر له بعشرين ألف درهم .

حدثنى يحيى بن الحسن قال : قال ابن مسعود القتات : لما قتل المأمون ابن عائشة وأصحابه تمثل بشعر مسلم بن الوليد فقال :

أَنَا النَّارُ فى أَحْجَارِهَا مُسْتَكِنَّةٌ ... فَإِنْ كُنْتَ مِمَّنْ يَقْدَحُ النَّارَ فَاقْدَحِ

ذكر أمر إبراهيم بن المهدى وظفر المأمون به

بعد دخوله بغداد وعفوه عنه

حدثنى أحمد بن هارون ، عن أبى يعقوب مؤدب ولد أبى عباد قال : بعث المأمون إلى شكلة أم إبراهيم بن المهدى عند دخوله إلى بغداد واختفاء إبراهيم منه يسألها عنه ، ويهددها ويتوعدها إن لم تدل على مكانه فبعثت إلى المأمون : يا أمير المؤمنين ، أنا أم من أمهاتك ، فإن كان ابنى عصى الله جل وعز فيك فلا تعص الله فىّ ، فرق لها المأمون وأمسك عنها فلم يطالبها بعد ذلك . وحدثنى : أنه لما طال حصر إبراهيم بن المهدى وتنقله خاف أن يظهر عليه فكتب إلى أمير المؤمنين : ولى الثأر محكم فى القصاص (والعفو أقرب للتقوى)[1] ومن تناوله الاغترار بما مد له من أسباب الرجاء أمكن عادية الدهر على نفسه ، وقد جعلك الله فوق كل ذى ذنب كما جعل كل ذى ذنب دونك ، فإن أخذت فبحقك ، وإن عفوت فبفضلك . قال : فوقع المأمون فى حاشية رقعته : القدرة تذهب الحفيظة ، والندم توبة ، وبينهما عفو الله ، وهو أكثر مما يسأله .

وأخبرنى إسحاق بن إبراهيم النخعى قال : قال إبراهيم بن المهدى للمأمون لما دخل عليه بعد الظفر به : ذنبى أعظم من أن يحيط به عذر ، وعفو أمير المؤمنين أجل من أن يتعاظمه ذنب ، فقال المأمون : حسبك ، فإنا إن قتلناك فلله ، وإن عفونا عنك فلله .

قال أبو حسان الزيادى : كان ظفر المأمون بإبراهيم بن المهدى فى سنة عشر ومائتين فى ليلة الأحد لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر ، وكان بعض

---

(١) سورة البقرة ٢٣٨

الحراس أخذه ليلا وهو متنقب مع امرأتين فرفعه إلى الجسر فرفع إلى دار المأمون من ليلته فلما كان غداة الأحد قعد فى دار أمير المؤمنين لينظر إليه بنو هاشم ، والقواد ، والجند ، وصيروا المقنعة التى كان متقنعاً بها فى عنقه ، والملحفة التى كان ملتحفاً بها فى صدره ليراه الناس ويعلموا كيف أخذه ، فلما كان يوم الخميس حوله أمير المؤمنين إلى دار أحمد بن أبى خالد فحبسه عنده فلم يزل فى حبسه إلى أن خرج المأمون إلى الحسن بن سهل فى عسكره وبنى ببوران بنت الحسن فأخرج إبراهيم معه إلى المدينة التى كان الحسن بناها بفم الصلح . فقال قوم : إن الحسن كلمه فيه فأطلقه ورضى عنه ، وخلى سبيله ، وصيره عند أحمد بن أبى خالد وصير معه ابن يحيى بن معاذ ، وخالد بن يزيد بن مزيد يحفظونه إلا أنه موسع عليه عنده أمه وعياله ويركب إلى دار أمير المؤمنين وهؤلاء معه يحفظونه .

وحدثنى الحارث المنجم : أن المأمون كان صير لبوران ثلاثة حوائج لما دخل بها فكان إبراهيم بن المهدى أحدها فرضى عنه وأطلقه . وحدثنا الحارث : أن إبراهيم لما دخل على المأمون قال له : يا أمير المؤمنين ، إن رأيت أن تسمع عذرى وإن كان لا عذر لى ولكن الإقرار حجة لى فى العفو عنى وقد جردت الإقرار بالذنب فقال : قل ، فأنشد :

يا خَيْرَ مَنْ ذَمَلَتْ يَمَانِيَةٌ به ... بَعْدَ الرسُول لآيس أَوْ طامع
وَأَبَرَّ مَنْ عَبْدِ الإِلهَ عَلَى التُقَى ... عَيناً[1] وأحكمهُ بحق صادع
عَسَلُ الفَوَارِع ما أُطِعْتَ فإنْ تُهَجْ ... فالصَّابُ[2] فى جُرَع السمام النَّاقع
مُتَيَقِّظٌ حَذِر وَمَا يَخْشَى العدا ... نَبْهَانُ مِنْ وَسَنَات لَيل الهاجع
مُلِئَتْ قُلُوبُ الناس مِنْهُ مَخَافَةً ... وَتَبِيتُ يَكْلَؤُهُمْ بِقَلب خَاشع

---

(١) فى الأغانى : نفسا (٢) فالموت

بِأَبِي وَأُمِّي أَفْتَدِي وَبَنِيهِمَا ... مِنْ كُلِّ مُعْضِلَةٍ وَرَيْبٍ وَاقِعِ

مَا أَلْيَنَ الْكَنَفَ الَّذِي بَوَّأْتَنِي ... وَطَنًا وَآمَنَ رَأْيَهُ لِلرَّائِعِ

لِلصَّالِحَاتِ أَخًا جُعِلْتَ وَلِلتُّقَى ... وَأَبًا رَؤُوفًا لِلْفَقِيرِ الْقَانِعِ

إِنَّ الَّذِي قَسَمَ الْفَضَائِلَ حَازَهَا ... فِي صُلْبِ آدَمَ لِلْإِمَامِ السَّابِعِ

جَمَعَ الْقُلُوبَ عَلَيْكَ جَامِعُ أَمْرِهَا ... وَحَوَى وِدَادَكَ كُلُّ أَمْرٍ جَامِعِ

نَفْسِي فِدَاؤُكَ إِذْ تَضِلُّ مَعَاذِرِي ... وَأَلُوذُ مِنْكَ بِفَضْلِ حِلْمٍ وَاسِعِ

أَمَلًا لِفَضْلِكَ وَالْفَوَاضِلُ جَمَّةٌ ... رَفَعَتْ بِنَاءَكَ بِالْمَحَلِّ الْيَافِعِ

فَبَذَلْتَ أَفْضَلَ مَا يَضِيقُ بِبَذْلِهِ ... وُسْعُ النُّفُوسِ مِنَ الْفَعَالِ الْبَارِعِ

وَعَفَوْتَ عَمَّنْ لَمْ يَكُنْ عَنْ مِثْلِهِ ... عَفْوٌ وَلَمْ يَشْفَعْ إِلَيْكَ بِشَافِعِ

إِلَّا الْعُلُوَّ عَنِ الْعُقُوبَةِ بَعْدَمَا ... ظَفِرَتْ يَدَاكَ بِمُسْتَكِينٍ خَاضِعِ

وَرَحِمْتَ أَطْفَالًا كَأَفْرَاخِ الْقَطَا ... وَحَنِينَ وَالِهَةٍ كَقَوْسِ النَّازِعِ

وَعَطَفْتَ آصِرَةً عَلَيَّ كَمَا وَعَى ... بَعْدَ انْهِيَاضِ الْجِسْمِ عَظْمُ الظَّالِعِ

اللهُ يَعْلَمُ مَا أَقُولُ فَإِنَّهَا ... جَهْدُ الْأَلِيَّةِ مِنْ حَنِيفٍ رَاكِعِ

مَا إِنْ عَصَيْتُكَ وَالْغُوَاةُ تَمُدُّنِي ... أَسْبَابُهَا إِلَّا بِنِيَّةِ طَائِعِ

وَالْأُفْكُ مَنْكَدَةُ اللِّسَانِ وَإِنَّمَا ... تَهْدِي إِلَى قَذْعٍ لِرَوْعِ السَّامِعِ

قَسَمًا وَمَا أُدْلِي لِذَاكَ بِحُجَّةٍ ... غَيْرَ التَّضَرُّعِ مِنْ مُقِرٍّ بَاخِعِ

حَتَّى إِذَا عَلِقَتْ حَبَائِلُ شِقْوَةٍ ... تُرْدِي عَلَى حُفَرِ الْمَهَالِكِ هَائِعِ

لَمْ أَدْرِ أَنَّ لِمِثْلِ جُرْمِي غَافِرًا ... فَأَقَمْتُ أَرْقُبُ أَيَّ حَتْفٍ صَارِعِي

رَدَّ الْحَيَاةَ عَلَيَّ بَعْدَ ذَهَابِهَا ... عَفْوُ الْإِمَامِ الْقَادِرِ الْمُتَوَاضِعِ

أَحْيَاكَ مَنْ وَلَّاكَ أَطْوَلَ مُدَّةٍ ... وَرَمَى عَدُوَّكَ فِي الْوَتِينِ بِقَاطِعِ

كَمْ مِنْ يَدٍ لَكَ لَا تُحَدِّثُنِي بِهَا ... نَفْسِي إِذَا آلَتْ إِلَيَّ مَطَامِعِي

أَسْدَيْتَهَا عَفْوًا إِلَيَّ هَنِيئَةً ... فَشَكَرْتُ مُصْطَنَعًا لِأَكْرَمِ صَانِعِ

إلاَّ يَسِيراً عنــدما أوْلَيْتَنى   وهُوَ الكَثِيرُ لدىَّ غيرُ الضَّائِعِ
إنْ أنتَ جُدْتَ به عَلَىَّ فكُنْ له   أهْلاً وإنْ تمنعْ فأكْرَمُ مانِعِ

قال : فقال له المأمون : أقول ما قال يوسف لإخوته : (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين)[١] .

قال : وغنى إبراهيم يوماً والمأمون مُصطبح صوتاً له فى شعره :

ذَهَبْتُ من الدنيا وقد ذَهَبَتْ مِنِّى   هَوَى الدهرُ بها بى عنها وَوَلَّى بها عَنِّى
فإن أبْكِ نفسى أبْكِ نفساً نَفِيسَةً   وإن أحْتَسِبْهَا أحْتَسِبها على ضَنِّ

قال : فقال له المأمون لما سمعه : لا والله لا تذهب نفسك يا إبراهيم على يد أمير المؤمنين ، فليفرخ روعك فإن الله قد آمنك فى هذه الزلة إلا أن تحدث بشاهد عدل غير متهم حدثاً ، وأرجو أن لا يكون منك إن شاء الله .

وحدثنا يحيي بن الحسن بن عبد الخالق عن أبى محمد اليزيدى قال : قال إبراهيم ابن المهدى لما أمر المأمون برد ضياعه عليه قال : وأنشده ذلك فى مجلسه :

البرُّ بى منك وَطَّا العذْرَ عندك لى   فيما أتَيْتُ فلم تَعْذُلْ وَلَمْ تَلُمِ
وقَامَ عِلْمُكَ بى فاحتجَّ عِندَكَ لى   مُقامَ شاهِدِ عَدْلٍ غَيْرَ مُتَّهَمِ
رَدَدْتَ مالى ولم تَبْخَلْ علىَّ به   وقبل رَدِّكَ مالى قد حَقَنْتَ دَمى
بُرِئتُ منك وما كافَيْتَنى بيدٍ   هما الحياتان من مَوْتٍ ومن عدَمِ

وقال حماد بن إسحاق عن أبيه قال : أرسل إبراهيم بن المهدى لما ظهر إلى وصار إلى منزله غير مرة يسألنى إتيانه فكنت أتثاقل عنه مخافة أن يبلغ المأمون إتيانى إياه ثم أتيته فعاتبنى على جفاى فاعتذرت بالمامون ، فقال : يا هذا ، إن أمير

---

(١) سورة يوسف ٩٢

المؤمنين لا يخلو من أن يكون راضياً عنى فهو يحب أن يسرنى بك ، أو ساخطاً على فهو لا يكره أن يعرّنى ، وأنت والحمد لله واقف بين هاتين . قال : فقطعنى عن جوابه ، وبلغت المأمون فاستحسنها منه .

قال إسحاق : اعتللت علة فأرسل إلى إبراهيم إنى أريد أن أعودك فأرسلت له : إنى لم أصر إلى حد تحب أن ترانى فيه . قال : فغلظت عليه رسالتى وكان عنده محمد بن واضح فشكانى إليه وقال : يرد علىّ هذا المرد ؟ أحب أن تلقاه فتقول له والله لو خيرت أن أجاز بألفى ألف درهم أو بعافيتك لاخترت عافيتك . فأتانى برسالته قال : قلت له أبقاه الله ، أرجو أن تكون صادقاً وذاك أنى إن مت لم تجد مثلى تستشهده فيكذب لك .

وقال حماد عن أبيه : دخلت يوماً على المأمون وعنده أبو إسحاق المعتصم ، وإبراهيم بن المهدى وعن يمين المأمون تسع قينات وعن يساره تسع قينات يغنين جميعاً صوتاً واحداً ، قال : فلما جلست واطمأننت وأنست قال المأمون : كيف تسمع يا أبا إسحاق ؟ قلت : أسمع خطأ يا أميرالمؤمنين. قال : فقال المأمون لإبراهيم ألا تسمع ؟ قال : كذب يا أمير المؤمنين ما هاهنا خطأ ولكنه يريد أن يوهم أنه يحسن ما لا يحسنه غيره . قال إسحاق : فقلت إن أذن أمير المؤمنين أفهمته موضع الخطإ ويقر به . قال : فقال المأمون : قد أذنت لك فافعل قال : فأقبلت على ابراهيم فقلت له : أعلم أنك لا تفهمه هكذا ولكن اطرح عنك نصف العمل فلعلك أن تفهم موضع الخطإ ولا أراك . ثم قلت للتسع اللواتى عن يمين المأمون : أمسكن عن الغناء ، فأمسكن . فقلت لإبراهيم : تفهم الآن فإن الخطأ هاهنا . فتفهم إبراهيم فقال : ما ها هنا خطأ . قال فقلت : فإنى أرفع عنك أكثر هذا العمل الباقى ، ثم أمرت خمس جوار منهن فأمسكن وبقى أربع . وقلت لإبراهيم : تفهم فإن الخطأ ها هنا . فتفهم إبراهيم فقال : ما أعلم خطأ . فقال إسحاق : فإنى أطرح عنك العمل

كله ثم أمر الجوارى فأمسكن ، وقال لواحدة منهن تغنى فغنت وحدها . فقال : يا إبراهيم ما تقول ؟ قال : نعم ، ها هنا خطأ وأقرّ به فقال له المأمون : يا إبراهيم فهمه إسحاق من نيف وسبعين وتراً ولا تفهمه إلا مفرداً ، متى تلحقه فى عمله ؟

حدثنى أبو بكر بن الحصين قال : حدثنى محمد بن إبراهيم قال : غنى إبراهيم بن المهدى عند المامون يوماً فأحسن وفى مجلسه كاتب من كتاب طاهر بن الحسين يكنى أبا زيد وكان بعثه فى بعض أموره ، وطرب أبو زيد فأخذ بطرف ثوب إبراهيم فقبله . قال : فنظر إليه المأمون كالمنكر لما فعل . فقال أبو زيد : ما تنظر ؟ أقبله والله ولو قتلت . قال : فتبسم المأمون وقال : أبيت إلا طرفاً .

قال : وأصيب المأمون بابنة له وهو يجد بها وجداً شديداً فجلس للناس وأمر أن لا يمنع منه أحد وأن يثبت عن كل رجل مقالته . قال : فدخل إليه فيمن دخل إبراهيم بن المهدى فقال : يا أمير المؤمنين كل مصيبة تعدتك شوى إذ كنت المنتقم من الأعداء ولك فى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة فإنه عزى عن ابنته رُقية فقال : موت البنات من المكرمات . فأمر له المأمون بمائة الف درهم ، وأمر أن لا يكتب شىء بعد تعزيته .

وقال إسحاق الموصلى : دخل إبراهيم بن المهدى على المأمون بعد صفحه عنه ، وعنده أبو إسحاق المعتصم ، والعباس بن المأمون . فلما جلس قال له : يا إبراهيم إنى استشرت أبا إسحاق والعباس آنفاً فى أمرك فأشارا على بقتلك ، فما تقول فيما قالا ؟ فقال له : إما أن لا يكونا قد نصحاك وأشارا عليك بالصواب فى عظم الخلافة وما جرت به عادة السياسة فقد فعلا ذلك . ولكن يا أمير المؤمنين تأبى أن تجتلب النصر إلا من حيث عودكه الله وهو العفو . قال : صدقت يا عم ، ادن منى فدنا منه فقبل إبراهيم يده وضمه المأمون إليه .

وقال قثم بن جعفر بن سليمان أخبرنى أبو عباد قال : بينا أنا فى مجلس المامون إذ ذكر دعبل بن على الشاعر فقام إبراهيم بن المهدى فقال : يا أمير المؤمنين جعلنى الله فداك ، اقطع لسانه ، واضرب عنقه فقد أطلق الله لك دمه . قال : وبم ذاك ، أهجانى ؟ فوالله لئن كان فعل ذلك فما أباح الله دمه بهجائى . فقال : يا أمير المؤمنين اقطع لسانه ، واضرب عنقه فقد أباحك الله دمه ، فأعاد المأمون كلامه الأول . فقال بعض من حضر : يا أمير المؤمنين إنه قد هجا إبراهيم ، فقال : هات ما قال . فأنشده :

أَنّى يكُونُ وَلا يكُونُ وَلَمْ يكُنْ ... يَرِثُ الخلافَةَ فَاسِقٌ عن فَاسِقِ
إن كانَ إبراهيمُ مُضطلعاً بِهَا ... فَلتَصْلُحَنْ من بَعْدِهِ لِمُخَارِق
وَلَتَصْلُحَنْ من بَعْدِهِ فى عَثْعَث ... وَلَتَصلُحَنْ من بعـــدِهِ للمَارِق

قال : فقطع المأمون عليه وقال : حسبك فى إبراهيم ما لا يصبر عليه له ولا لك .

وحدثنى حماد بن إسحاق قال : كتب إبراهيم بن المهدى إلى اسحاق بن ابراهيم وكان طهر ولده فأهدى إليه الناس جميعاً من أصحاب السلطان فبعث إليه إبراهيم بجراب ملح ، وبرنية أشنان وكتب إليه : لولا أن البضاعة قصرت بالهمة لأنفست السابقين إلى برك ، وكرهت أن تطوى صحيفة البر وليس لنا فيها ذكر ، وقد بعثت إليك بالمبتدأ به ليمنه وبركته ، والمختوم به لطيبه ونظافته . قال : فاستملح ذلك منه واستظرفه كل من سمعه ، وحدث المأمون به فقال : لا يحسن والله هذا أحد غير عمى ابراهيم .

حدثنا يحيى بن الحسن بن عبد الخالق قال : حدثنى اسماعيل بن الأعلم قال : كنا ننقل ثياب ابراهيم بن المهدى فى اختفائه من دار إلى دار على خمسين حمل . قال : فلما كان فى الليلة التى أُخذ فيها جهدت به الجهد كله ألا يبرح فقال : إن

تركتني وإلا شققت بطني فكرهت أن آزه تخرج فأخذ . قال : وكان أخذه في سنة تسع ومائتين ، وقال المأمون لإبراهيم حين صفح عنه : لو لم يكن في حق أبويك حق الصفح عن جرمك لبلغت ما أملت بتنصلك في لطف توصلك . وكان إبراهيم قال له : إنه إن بلغ جرمي استحلال دمي فحلم أمير المؤمنين وفضله يبلغان عفوه ، ولي بعدهما شفعة الإقرار بالذنب وحق الأبوة بعد الأب .

قال : وقال المأمون حين عفا عن ابراهيم : لو علم أهل الجرائم لذتي في العفو ما حمدوني عليه ، ولا أنابوا من ذنوبهم ، فقال ابراهيم إما متمثلا وإما مخترعا :

أَمِيرُ المؤمنينَ عَفَوْتَ حتى كأَنَّ الناسَ ليسَ لَهمْ ذُنُوبُ

حدثني أبو عبد الرحمن السمرقندي عن بعض أصحابه قال : لما ظفر المأمون بإبراهيم قال محمد بن عبد الملك يحرضه على قتله ، وأنشد المأمون فقال : والله لا أشمته به بل أعفو عنه .

أَلَمْ ترَ أنَّ الشيءَ للشيءِ عِلَّةٌ يكُونُ لهَا كالنَّار تُقْدَحُ بالزَّند
كذلكَ جَرَّبْنَا الأمُورَ ، وإنما يَدُلُّكَ ما قد كان قَبْلُ عَلَى البَعْد
رُأَيْنَا حُسَيناً حين صارَ محمدٌ بغيرِ أمَانٍ في يَدَيْهِ وَلاَ عَقْد
فَلَوْ كان أَمْضَى الحُكْمَ فيه بِضَرْبَة تُصَيِّرُهُ بالقَاعِ مُنْعَفِرَ الخَد
إذا لم تَكُنْ للجُنْدِ فيه بَقِيَّةٌ فقد كان ما بُلِّغْتَ من خَبَرِ الجُنْد
هُمُ قتلوهُ بعد أن قتَلُوا لهُ ثلاثين ألفًا من كُهُولٍ ومن مُرْد
فما نصرُوهُ عن يَدٍ سَلَفَتْ لَهُ ولا قتلوهُ يوم ذلك عن حِقْد
ولكنَّهُ الغَدْرُ الصُّراحُ وخِفَّةُ الحُلُومِ وبُعْدُ الرأْي عن سَنَن القصد
وَظَنِّي بإبراهيمَ أنَّ مكانهُ سَيَبْعَثُ يَوْماً مِثْلَ أيامِهِ النُّكْد

تذكّرْ أميرَ المؤمنين مقامَه ... وأيمانَه فى الهزل فيه وفى الجدِّ

بَلى والذى أصبحتَ عبداً خليفةً ... له بئسَ أيمانُ الخليفةِ وَالعبدِ

إذا هزّ أعوادَ المنابرِ باسْته ... تغنّى بليلَى أو بميّةَ أو هندِ

وَوَالله ما من توبةٍ نزعتْ به ... إليكَ ولا قربى لديكَ ولا وُدِّ

ولكنّ إخلاصَ الضميرِ مُقرِّبٌ ... إلى الله زُلفى لا تَبيدُ ولا تُكدى

أتاكَ بها كَرْهاً إليكَ تقودُه ... عَلى رَغمه واسْتأثرَ اللهُ بالحمدِ

فإنْ قلتَ فى باغى الخلافةِ قبلَهُ ... فلم يُؤتَ فيما كانَ حاولَ من جهدِ

ولم ترضَ بعدَ العفو حتّى رفدتَه ... وللعمّ أولى بالتعمّد والرِّفدِ

وليسَ سَواءً خارجىٌّ رمى به ... إليكَ سفاهُ الرأى والرأىُ قد يُردى

وآخرُ فى بيتِ الخلافةِ يلتقى ... به وبكَ الآباءُ فى ذِروةِ المجدِ

ومولاكَ مولاهُ وجندُكَ جندُه ... وهل يجمعُ القَينُ الحسامين فى غمدِ

فكيفَ بمن قد بايعَ الناسُ والتقتْ ... ببيعته الركبانُ غوراً إلى نجدِ

ومن صكّ تسليمُ الخلافةِ سمعَهُ ... يُنادَى بها بينَ السماطينِ من بُعدِ

ومَا أحدٌ سمّى بها قطُّ نفسَهُ ... ففارقها حتّى يُغيَّبَ فى اللحدِ

وأقبلَ يومَ العيدِ يُوجفُ حولَهُ ... وَجيفَ الجيادِ واصطكاكَ القنى الجُرْدِ

ورَجّالةٌ يمشونَ بالبيضِ قبلَهُ ... وقد تبعوه بالقضيبِ وبالبُرْدِ

وَقد رابنى من أهلِ بيتكَ أننى ... رأيتُ لهم وجداً به أيّما وجدِ

يقولونَ لا تبعدْ عن ابنِ مُلمّةٍ ... صبور عَلى اللأواءِ ذى مرّةٍ جَلْدِ

فدانى وهانتْ نفسُهُ دونَ مُلكنا ... عليه عَلى الحالِ الذى قلَّ من يَفدى

عَلَى حِينَ أعْطَى النَّاسَ صَفْقَ أكُفِّهِمْ
عَلِيَّ بْنُ مُوسَى بالْوِلَايَةِ لِلْعَهْدِ

فَلَوْ يَكُ فِينا مِنْ أَبِى الضَّيْمِ غَيْرُهُ
وَلَكِنْ حَيَارَى فِى القَبُولِ وَفِى الرَّدِّ

وَتَزْعَمُ هَذِى النَّابِتِيَّةُ أَنَّهُ إمَامُ هُدًى فِيما تُسِرُّ وَمَا تُبْدِى

يَقُولُونَ سُنِّىٌّ ، وأيَّةُ سُنَّة
تَتِمُّ بِصَعْلِ الرَّأْسِ جَونِ القَفَا جَعْدِ

وَقَدْ جَعَلُوا رُخْصَ الطَّعَامِ بِعَهْدِهِ زَعِيمًا لَهُ بِاليُمْنِ والطَّائِرِ السَّعْدِ

إذَا مَا رَأَوْا يَوْمًا غَلَاءً رَأَيْتَهُمْ يَحِنُّونَ تَحْنَانًا إلَى ذَلِكَ العَهْدِ

قال : وكتب عبد الله بن العباس بن الحسين بن عبيد الله بن العباس بن على ابن أبى طالب إلى إبراهيم بن المهدى : ما أدرى كيف أصنع ؟ أغيب فأشتاق ، ثم نلتقى فلا أشتفى ، ثم يجدد لى اللقاء الذى طلبت به الشفاء شقاء من تجديد الحرقة بلوعة الفرقة . فكتب إليه إبراهيم بن المهدى : أنا الذى علمتك الشوق لأنى شكوت ذلك إليك فهيجته منك .

حدثنى أبو أيوب سليمان بن جعفر الرقى قال : كان إبراهيم بن المهدى ذا رأى لغيره ، ضعيف الرأى فى أمر نفسه فقيل له فى ذلك ؟ فقال : لا تنكروه فإنى أنظر فى أمر غيرى بطباع سليمة مستقيمة ، وأنظر فى أمر نفسى بطباع مائلة إلى الهوى .

حدثنا زيد بن على بن حسين بن زيد بن على بن حسين بن على بن أبى طالب صلوات الله عليهم . قال : حدثنى على بن صالح صاحب المصلى قال : لما أراد المأمون أن ينحى إبراهيم بن المهدى من مرتبة بنى هاشم قال لى : أقعده مع الحرس . قال : قلت له ليس لك ذاك . قال : تقول لى ليس لك ذاك ؟ بلى لى أن أضرب عنقه .

قال قلت : لك أن تضرب عنقه وما أردت به ولم أقل ليس لك ذاك أن ليس لك بأن تفعل ما أردت ولـكن ليس لك أن تعدل عن فعل آبائك . غضب المنصور على فلان فلم يزله عن مرتبة أهل بيته ، وغضب المهدى على عبد الصمد بن على فلم يزله عن ذلك وليس لك إلا ما فعلوا . قال : صدقت ليس لى إلا ما فعلوا قال : وأمر فأجلس مع بنى العباس .

حدثنى محمد بن العباس قال : دخل إبراهيم بن المهدى يوماً على المأمون فتأمل جثته فقال يا إبراهيم : عشقت قط ؟ قال يا أمير المؤمنين : أجلك عن الجواب فى هذا . قال : بحياتى أصدقنى . قال : وحياتك ما خلوت من عشق قط . قال له : كذبت وحياتك يا أبا إسحاق :

وَجْهُ الّذى يَعْشَقُ مَعْرُوفُ　　لأنّهُ أصْفَرُ مَنْحُوفُ
لَيْسَ كَمَنْ تَلْقَاهُ ذَا جُثّةٍ　　كأنّهُ لِلذّبحِ مَعْلُوفُ

حدثنى على بن محمد قال : سمعت أصحابنا يقولون اجتمع إبراهيم بن المهدى ، والحسن بن سهل عند المأمون ليلا فأراد الحسن أن يضع من إبراهيم ويخبره أنه مغن عالم بالغناء فقال : يا أبا إسحاق : أى صوت تغنيه العرب أحسن ؟ ففطن إبراهيم فقال : تسمع للحلى وسواساً إذا انصرفت . أى أنك موسوس .

قال أحمد بن أبى طاهر حدث أبو موسى هارون بن محمد بن إسماعيل بن موسى الهادى قال : حدثنى أبى قال : انصرفنا من دار أمير المؤمنين المأمون يوماً فقال لى إبراهيم بن المهدى مر معى إلى منزلى حتى أطعمك لحماً على وجهه . وأسقيك نبيذاً على وجهه وأسمعك غناء على وجهه . فقلت له : ما عن هذا منفرج فمضينا فدخلنا إلى منزله فإذا مساليخ معلقة ، وملح قد سحق ، وكوانين قد أججت فأمر طباخيه فشرحوا وكببوا وأكلنا ، ثم أخرج الدنان فوضعت على كراسيها وبذلت

وشربنا ، ثم بعث إلى مخارق ، وعلويه ، وإسحاق بن إبراهيم الموصلى فقال لهم : كلوا مما أكلنا ، والحقوا بنا فى شأننا وغناء القوم بغير زمر ولا طبل فقال : هذا اللحم على وجهه ، والشراب على وجهه ، ثم التفت إلى فقال : إنسان يلزمك يقال له منصور بن عبد الله الحرشى فبعثت إليه لحضر وأكل مما أكلنا وشركنا فيما كنا فيه ، ثم اندفع منصور فتغنى :

عَرَفَتْ حاجتى إليها فضنَّتْ وَرأتنى صَبًّا بها فتجنَّتْ

فاستحسنه القوم جميعاً ، ثم تغنى :

أىُّ نورٍ تُديرُهُ الأقداحُ نورُ دَنٍّ غذاؤُهُ التفّاحُ

فاستحسنه القوم واستجادوه فسألوه لمن الغناء فأخذ ينسبه لمعبد وابن شريج مع أغانى كثيرة غناها من غنائه كل ذلك ينسبه إلى المتقدمين من المغنيين فيقول إبراهيم بن المهدى ما أعرف هذا . ويلتفت إلى الجماعة الذين حضروا فيقول : أتعرفون هذا لمن نسبه ؟ . فيفكر القوم أن يكونوا يعرفون ذلك ، ثم إن إبراهيم ابن المهدى قال له يا فتى : أصدقنا عن الأغانى لمن هى ؟ قال : هى لى أيها الأمير وأنا صنعتها فالتفت إليه مُخارق وعلويه فقالا له : كنت أحسن الناس غناء حتى نسبتها إلى نفسك فقال لهم إبراهيم : ليس كما تقولون والله لئن كان هذا قديماً حفظه ونسيناه إنه لأعلم منا ، وإن كان هذا صنعة له فلقد استغنى بصنعتها عن غيره .

وكتب أحمد بن يوسف إلى إبراهيم بن المهدى : بلغنى استقلالك ما كنت ألطفتك به فإن الذى نحن عليه من الأنسة والثقة سهل علينا قلة الحشمة لك فى البر فأهدينا هدية من لا يحتشم إلى من لا يغتنم .

حدثنا عبد الله بن الربيع قال : أخبرنا أحمد بن مالك . قال : أخبرنى العباس

ابن على بن رائطة . قال : بعث إلى أمير المؤمنين المأمون فى الليل نصرت إليه وإذا هو جالس مما يلى دجلة فى ليلة مقمرة فسلمت عليه فقال : يا عباس . قلت لبيك يا أمير المؤمنين . قال : ما ترى ما أحسن القمر وصفاء هذا الماء . قال : قلت بلى يا أمير المؤمنين ما حسنه الله إلا بك . قال : فما يصلح هذا ويتمه ؟ قال : قلت رطل من شراب صاف وصوت غناء حسن من مخارق أو إبراهيم بن المهدى . وإلى العباس بن المأمون ، وإلى أبى إسحاق المعتصم فكلما دخل عليه واحد منهم قال له مثل مقالته لى فيرد مثل جوابى ونحوه ، ثم رفع رأسه إلى الخباز فقال : يا غلام إيتهم بطعام خفيف فأتينا بزماء ورد فتناولنا منه شيئاً ثم قال : النبيذ فأدير علينا رطل ، رطل ، فقال لإبراهيم يا عمى غننى فغناه والشعر لإبراهيم والغناء له فقال :

يَا خَيْرَ مَنْ ذَمَلَتْ يَمَانِيـــةٌ به   بَعْدَ الرَّسُول لآيِسٍ أَوْ طَامع
وَأَبَرَّ مَنْ عَبَدَ الإِلَهَ عَلَى التُّقى   عَيْناً وَأَحْكَمَهُ بحق صَادع
إنَّ الَّذِى قَسَمَ الفَضَائل حَازَهَا   فى صُلْبِ آدَمَ لِلإِمَام السَّابع

قال أحسنت والله يا عم : لقد أشاروا على بقتلك فمنعنى من ذلك الرقة عليك والحرج من الله . فقال يا أمير المؤمنين : أما أنت فلم تعد ما وفقك الله له من الفضل والعفو . وأما هما فقد والله أشاروا عليك فى أمرى بالنصيحة الخالصة . قال : فقال المأمون : هذا والله الكلام الجيد النقى الذى يشل السخائم ، وينفى العقوق ويزيد فى البر ، ياغلام : مائة ألف درهم فحملت إلى منزله . ثم جاء المؤذن فأذن . فقال : انصرفوا فانصرفوا وأخذ أبو إسحاق بيد إبراهيم فأقسم عليه أن يصير إلى منزله فصار إليه فأمر له بخمسين ألف درهم وحملان وخلع .

قال : وحدثتنى أنير مولاة منصور بن المهدى قالت : قالت لى أسماء بنت

المهدى : قلت لأخى إبراهيم : يا أخى أشتهى والله أن أسمع من غنائك شيئاً ، فقال : إذن والله يا أختى لا تسمعين مثله ، عليه وعليه ، ثم تغلظ فى اليمين إن لم يكن إبليس ظهر لى وعلمنى النقر ، والنغم ، وصافحنى . وقال لى : اذهبى فأنت منى وأنا منك .

ذكر بناء المأمون

بوران بنت الحسن بن سهل

قال أحمد بن أبى طاهر : ذكر أصحاب التاريخ أن بناء المأمون ببوران بنت الحسن كان فى شهر رمضان من سنة عشر ومائتين ، وأنه لما مضى إلى فم الصلح إلى معسكر الحسن بن سهل حمل معه إبراهيم بن المهدى ، ومر بالصلبين الذين كانوا مع إبراهيم بن عائشة فى المطبق فأمر بإنزالهم وكانوا مصلبين على الجسر الأسفل ، وكان إنزالهم فى جمادى الأولى ليلة الثلاثاء لأربع ليال بقيت منه ، ولما كان من غد يوم الأربعاء أمر بإنزال إبراهيم بن عائشة فكفن وصلى عليه ودفن فى مقابر قريش كما ذكرناه فى خبر ابن عائشة آنفاً .

حدثنى الحارث بن نصر المنجم وكان من أصحاب الحسن بن سهل قال : لما زار المأمون الحسن بن سهل للبناء ببوران ركب من بغداد زورقاً حتى أرقى على باب الحسن بن سهل وكان العباس بن المأمون قد تقدم على الظهر فتلقاه الحسن خارج عسكره فى موضع كان اتخذ له على شاطىء دجلة بنى له فيه جوسق قال : فلما عاينه العباس ثنى رجله لينزل فحلف عليه ألا يفعل . فلما ساواه ثنى رجله الحسن لينزل فقال له العباس : بحق أمير المؤمنين لا تنزل فاعتنقه الحسن وهو راكب ، ثم أمر أن يقدم إليه دابته ودخلا جميعاً إلى منزل الحسن ووافى المأمون فى وقت

العشاء وذلك فى شهر رمضان من سنة عشر ومائتين ، فأفطر هو والحسن والعباس ودينار بن عبد الله قائم على رجله حتى فرغوا من الإفطار وغسلوا أيديهم ، فدعا المأمون بشراب فأتى بجام ذهب فصب فيه وشرب ، فمد يده بجام فيه شراب إلى الحسن فتباطأ عنه الحسن لأنه لم يكن يشرب قبل ذلك فغمز دينار بن عبد الله الحسن فقال الحسن : يا أمير المؤمنين أشربه بإذنك وأمرك ؟ فقال له المأمون : لولا أمرى لم أمدد يدى إليك . فأخذ الجام فشربه ، فلما كان فى الليلة الثانية جمع بين محمد بن الحسن بن سهل والعباسة بنت الفضل ذى الرياستين ، فلما كان فى الليلة الثالثة دخل على بوران وعندها حمدونة ، وأم جعفر ، وجدتها . فلما جلس المأمون معها نثرت عليها جدتها ألف درة كانت فى صينية ذهب فأمر المأمون أن تجمع وسألها عن عدد الدُرّ كم هو ؟ فقالت : ألف حبة . فأمر بعدها فنقصت عشرة فقال : من أخذها منكم ردوها . فقالوا : حسين زجلة ، فأمر بردها ، فقال : يا أمير المؤمنين إنما نثر لنأخذه . قال : ردها ، فإنى أخلفها عليك فردها وجمع المأمون ذلك الدر فى الآنية ووضع فى حجرها وقال : هذه نحلتك فاسألى حوائجك ؟ فأمسكت . فقالت لها جدتها : كلمى سيدك واسأليه حوائجك فقد أمرك . فسألته الرضى عن إبراهيم بن المهدى . فقال : قد فعلت ، وسألته الإذن لأم جعفر فى الحج فأذن لها ولبستها أم جعفر البدنة الأموية وابتنى بها فى ليلته ، وأوقد فى تلك الليلة شمعة عنبر فيها أربعون مَنًّا فى تور ذهب فأنكر المأمون ذلك عليهم . وقال : هذا سرف . فلما كان من غد دعا بإبراهيم بن المهدى فجاء يمشى من شاطىء دجلة عليه مبطنة ملحم وهو متعمم بعمامة حتى دخل فلما رفع الستر عن المأمون رمى بنفسه فصاح المأمون : يا عم لا بأس عليك . فدخل فسلم عليه تسليم الخلافة وقبل يده وأنشد شعراً ودعا بالخلع فخلع عليه خلعة ثانية ودعا له بمركب وقلده سيفاً وخرج فسلم على الناس ورد إلى موضعه .

قال الحارث : وأقام المأمون سبعة عشر يوما يعد له فى كل يوم ولجميع من معه ما يحتاج إليه . قال : وخلع الحسن بن سهل على القواد على مراتبهم وحملهم ووصلهم وكان مبلغ النفقة عليه خمسين ألف ألف درهم . قال : وأمر المأمون غسان ابن عباد عند منصرفه أن يدفع إلى الحسن عشرة آلاف ألف من مال فارس ، وأقطعه الصلح فحملت إليه على المكان وكانت معدة عند غسان بن عباد . قال : فجلس الحسن ففرقها فى قواده ، وأصحابه ، وحشمه ، وخدمه ، قال : ولما انصرف المأمون شيعه الحسن ثم رجع إلى فم الصلح .

فحدثنى الفضل بن جعفر بن الفضل . قال : حدثنى أحمد بن الحسن بن سهل . قال : كان أهلنا يتحدثون أن الحسن بن سهل كتب رقاعا فيها أسماء ضياعه ونثرها على القواد وعلى بنى هاشم فمن وقعت فى يده رقعة منها فيها اسم الضيعة بعث فتسلمها .

وقال أبو الحسن على بن الحسين بن عبد الأعلى الكاتب : قال : حدثنى الحسن بن سهل يوماً بأشياء كانت فى أم جعفر ووصف رجاحة عقلها وفهمها ، ثم قال : سألها يوماً المأمون بفم الصلح حيث خرج للبناء على بوران ، وسأل حمدونة بنت غَضيض عن مقدار ما أنفقت فى ذلك الأمر . فقالت حمدونة : أنفق خمسة وعشرين ألف ألف . قال : فقالت أم جعفر : ما صنعت شيئاً قد أنفق ما بين خمسة وثلاثين ألف ألف إلى سبعة وثلاثين ألف ألف درهم . قال : وأعددنا له شمعتين عنبر ، قال : فدخل بها ليلا فأوقدتا بين يديه فكثر دخانهما ، فقال : ارفعوها فقد آذانا الدخان وهاتوا الشمع ، قال : ونحلتها أم جعفر فى ذلك اليوم الصلح ، قال : فكان سبب عود الصلح إلى ملكى وكانت قبل ذلك لى فدخل على يوماً حميد الطوسى فأقرأنى أربعة أبيات امتدح بها ذا الرئاستين فقلت له :

تنفذها لك إلى ذى الرئاستين ، وأقطعك الصلح فى العاجل إلى أن تأتى مكافأتك من قبله فأقطعته إياها ، ثم ردها المأمون على أم جعفر فنحلتها بوران .

وحدثنى على بن الحسين قال : كان الحسن بن سهل لا يرفع الستور عنه ولا يرفع الشمع من بين يديه حتى تطلع الشمس ويتبينها إذا نظر إليها ، وكان متطيراً يحب أن يقال له إذا دخل عليه انصرفنا من فرح وسرور ، ويكره أن يذكر له جنازة أو موت أحد ، قال : ودخلت عليه يوماً فقال له قائل : إن على ابن الحسين أدخل ابنه الحسن اليوم الكتاب ، قال : فدعا لى وانصرفت فوجدت فى منزلى عشرين ألف درهم هبة للحسن وكتابا بعشرين ألف درهم ، قال : وكان قد وهب لى من أرضه بالبصرة ما قوم بخمسين ألف دينار فقبضه عنى بغا الكبير وأضافه إلى أرضه .

وقال أبو حسان الزيادى : لما صار المأمون إلى الحسن بن سهل أقام عنده أياماً بعد البناء ببوران ، وكان مقامه فى مسيره وذهابه ورجوعه أربعين يوماً ودخل بغداد يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة بقيت من شوال ، وقال محمد بن موسى الخوارزمى : خرج المأمون نحو الحسن بن سهل إلى فم الصلح لثمان خلون من شهر رمضان ، ودخل المأمون من فم الصلح لتسع بقين من شوال سنة عشر ومائتين .

قال أحمد بن أبى طاهر : ولما صار المأمون إلى بغداد رجوعه من عند الحسن وجه محمد بن حميد الطوسى إلى مكة ليقف مع الإمام فى الموقف كراهة للتحال فيه فتوجه إلى مكة ونفذ لما أمر به ، ولم يكن شىء كرهه ورجع بالسلامة ، وكان الذى أقام الحج للناس فى سنة عشر ومائتين صالح بن العباس بن محمد بن على

ابن عبد الله بن العباس فكان والياً على مكة فكتب إليه محمد بن حميد أن يقيم الحج للناس .

خبرنى محمد بن الحسين الواسطى قال : كان الحسن بن سهل والفضل قبله لا ينزلان من المنازل إلا أطراف البلدان فقيل للحسن بن سهل فى ذلك ، فقال : الأطراف منازل الأشراف يتناولون ما يريدون بالقدرة ، ويتناولون ما يريدون بالحاجة ، قال أبو الحسن على بن الحسين الكاتب قال : حدثنى الحسن بن سهل ، قال : كانت ليحيي بن خالد جارية فى آخر أيامه فولدت له ابنا قبل الحادثة عليه بأيام ، قال : فكتبت إليه وهو فى الحبس : إن أمهات أولادك وأولادك قد صاروا فى أيام دولتك إلى طرف من نعمتك ، وإنها وابنها ضائعان ما ادخرت لها ولا له شيئاً ، قال : فوقع فى كتابها قد ادخرت لك الفضل بن سهل ، قال : فإنى لجالس يوماً بين يدى ذى الرئاستين إذ ورد عليه كتاب فقرأه وبكى ، ثم رمى به إلى فقال : أتعرف هذا الخط يا أبا محمد ؟ قلت : نعم ، هذا خط أبى على يحيي بن خالد ، وإذا الجارية قد أنفذت توقيعه إليه بعينها ، قال : فدعا بوكيله فأمره بإحضار ما عنده من المال ، وأمرنى بإحضار ما عندى قال : فجمعنا ما كان فى ملكنا فى ذلك اليوم فوجدناه ثمانية عشر ألف دينار أكثرها لى ، فحملها إلى الجارية .

قال على بن الحسين : وكنت أرى بين يدى الحسن بن سهل ترساً فيه كتبه فسألته عن ذلك فقال : متعت بك ، فتحنا كنابذ فأخذنا مرقد ملكها فوجدنا كل ما فيه من مخدة ، ووسادة ، وغير ذلك بمقبض يريد أنه إن ورد عليه فى فراشه شيء يحتاج فى التستر منه كان كلما يمد يده إليه ترساً له ، فجعلنا مكان ذلك هذا الترس الذى تراه ، ففيه كتبنا وما بين أيدينا ، وإن احتجنا إليه استعملناه .

قال : وحدثنى العباس بن ميمون بن طائع ، قال : حدثنى على بن إسماعيل ابن متمم قال : قلت للحسن بن سهل : أصلحك الله ، أنت الرجل الذى يستأ كل بعلمه فأخبرونى عن النجوم إذا رأيتموها أتقرطسون ؟ فقال : لا نرى الشىء فنستعظمه فنفسره فيكون التفسير بالتكلف منا ، فأكثرنا إصابة ، أكثرنا تجربة لا تسأل عن هذا أحداً غيرى .

ذكر اتصال أحمد بن أبى خالد بالمأمون واستوزاره إياه

بعد الفضل بن سهل

قال أحمد بن أبى طاهر : حدثونى عن ثمامة قال : لما قتل الفضل بن سهل بعث إلىّ المأمون وكنت لا أنصرف من عنده إلا أتوقعه فى منزلى ، ثم يأتينى رسوله فى جوف الليل فآتيه ، وكان قد وهلنى لمكان الفضل بن سهل من الوزارة فلما رأيته قد ألح على فى ذلك فتعالات عليه ، فقال لى : إنما أردتك لكذا وكذا ، فقلت : يا أمير المؤمنين إنى لا أقوم بذلك ، وأحرى أن أضن بوضعى من أمير المؤمنين وحالى أن تزول عنده فإنى لم أر أحداً تعرض للخدمة والوزارة إلا لم يكن لتسلم حاله ولا تدوم منزلته ، قال له المأمون : يا ثمامة فأشر على برجل صالح لما أريد ؟ فقلت : أحمد بن أبى خالد الأحول يقوم بالخدمة إلى أن يرتاد أمير المؤمنين أيده الله للموضع من يصلح له على ما فيه من الأود واللدد ، قال : فدعاه المأمون فأمره بلزوم الخدمة ، فلما تمكنت له الخدمة والحرمة تذمم المأمون من تنحيته .

قال أحمد بن أبى طاهر : قال على بن الحسين بن عبد الأعلى الكاتب : قال المأمون يوماً لأحمد بن أبى خالد : إنى كنت عزمت ألا أستوزر أحداً

بعد ذى الرئاستين ر وقد رأيت أن أستوزرك . فقال : يا أمير المؤمنين ، اجعل بينى و بين الغاية منزلة يتأملها صديق فيرجوها لى ، ولا يقول عدوى قد بلغ الغاية وليس إلا الانحطاط ، فاستحسن المأمون ذلك منه واستوزره .

وقال على بن محمد : كان أحمد بن أبى خالد كاتب المأمون شامياً مولى لبنى عامر ابن لؤى ، وأبوه أبو خالد الأحول كان كاتباً لعبيد الله كاتب المهدى ، وكان احمد ابن أبى خالد ، وابن العمركى ، واحمد بن يوسف إخواناً . فكان احمد يأتيهما إلى طعامهما وكان يعجب بالعدسية حب أهل الشأم للعدس ، قال أبو الحسن : وكنت أجلس فى مجلس أبى ببغداد إلى أن يعود من ركوبه ، وكان يأمرنى إذا أبطأ فحضره إخوانه وطلبوا الطعام أن أخرج الطعام إليهم ، فما كان أحد منهم يطلب الطعام إلا احمد بن خالد فإنه كان يقول لطباخ كان لأبى تركى : أعندك العدسية ؟ فيقول : نعم ، فيؤتى بها فيأكل منها أكل عشرة ويغسل يده وينتظر أبى حتى يأتى فيأكل معه كأنه لم يأكل شيئاً .

حدثنى محمد بن عيسى قال : وقال أبو زيد : حدثنى احمد بن أبى خالد الأحول بخراسان فيما كان يخبرنى به عن كرم المأمون ، وفضله واحتماله ، وحسن معاشرته أنه سمع المأمون يوما وعنده على بن هشام وأخواه احمد والحسين ذكر عمرو بن مسعدة فاستبطأه وقال : أيحسب عمرو أنى لا أعرف أخباره ، وما يجبى إليه ، وما يعامل به الناس ، بلى والله ، ثم بعثه ألا يسقط على منه شىء ؟ ! ونهض وانصرفنا ، فقصدت عمراً من ساعتى فخبرته بما جرى ، وأنسيت أن أستعجله من حكايته عنى فراح عمرو إلى المأمون ، فظن المأمون أنه لم يحضر إلا لأمر مهم لموقعه من الرسائل والمظالم ، والوزارة فأذن له . فخبرنى عمرو أنه لما دخل عليه وضع سيفه بين يديه ، وقال : يا أمير المؤمنين أنا عائذ بالله من سخطه ، ثم عائذ بك من سخطك يا أمير المؤمنين ، أنا أقل من أن يشكونى أمير المؤمنين إلى أحد ، أو يسر على ضغنا ببعثه

بعض الـكلام على إظهاره ما يظهر منه . فقال لى : وما ذاك ؟ نخبرته بما بلغنى ولم أُسم له مُخبرى فقال لى : لم يكن الأمر كما بلغك ، وإنما كانت جملة من تفصيل كنت على أن أخبرك به وإنما أخرج منى ما أخرج معنى تحاربنـاه ، وليس لك عندى إلا ما تحب ، فليفرخ روعك ، وليحسن ظنك . فأعدت الـكلام فما زال يسكن منى ، ويطيب من نفسى حتى تحلل بعض ما كان فى قلبى ، ثم بدأ فضمنى إلى نفسه وقبلت يده فأهوى ليعانقنى فشكرته ، وتبينت فى وجهه الحيـاء والخجل مما تأدى إلى .

قال احمد : فلما غدوت على المأمون قال لى : يا احمد أما لمجلسى حرمة ؟ فقلت يا أمير المؤمنين ، وهل الحزم إلا لما فصل عن مجلسك . قال : ما أراكم ترضون بهذه المعاملة فيما بينكم ، قال : قلت وأية معاملة يا أمير المؤمنين ، هذا كلام لا أعرفه قال : بلى ، أما سمعت ما كنا فيه أمس من ذكر عمرو ذهب بعض من حضر من بنى هاشم نخبره به فراح إلى عمرو مظهراً منه ما وجب عليه أن يظهره فدفعت منه ما أمكن دفعه وجعلت أعتذر إليه منه بعذر قد تبين فىّ الخجل منه ، وكيف يكون اعتذار إنسان من كلام قد تـكلم به إلا كذلك يتبين فى عينيه ، وشفتيه ووجهه ، ولقد أعطيته ما كان يقنع منى بأقل منه ، وما حدانى عليه إلا مادخلنى من الخساسة وإنما كان نطق به اللسان من غير روية ولا احتمال مكروه به . فقلت : يا أمير المؤمنين ، أنا خبرت عمراً به لا أحد من بنى هاشم فقال : أنت ؟ قلت : أنا ، قال: ما حملك على ما فعلت ؟ فقلت : الشكر لك ، والنصح والحمية لأن تتم نعمتك على أوليائك وخدمك ، أنا أعلم أن أمير المؤمنين يحب أن يصلح له الأعداء ، والبعداء فـكيف الأولياء والقرباء ولا سيما مثل عمرو فى دنوه من الخدمة وموقعه من العمل ومكانه من رأى أمير المؤمنين أطال الله بقاءه فيه ، سمعت أمير المؤمنين أنـكر منه شيئاً فخبرته به ليصلحه ، ويقوّم من نفسه أودها لسيده ومولاه ، ويتلافى ما فرط

منه ولا يفسده مثله ولا يبطل العناء فيه ، وإنما يكون كان ما فعلت عيباً لو أشعت سراً فيه قدح فى السلطان أو نقص تدبير قد استتب ، فأما مثل هذا فما حسبته أن يكون ذنباً علىّ .

فنظر إلىّ ملياً ثم قال : كيف قلت ؟ فأعدت عليه ، ثم قال : أعد ، فأعدت الثالثة . فقال : أحسنت والله يا احمد ، لَمَّا خبرتنى به أحب إلى من الف الف ، والف الف ، والف الف وعقد خنصره وبنصره والوسطى وقال : أما الف الف فلنفيك عنى سوء الظن وأطلق وسطاه ، وأما الف الف فلصدقك إياى عن نفسك وأطلق البنصر ، وأما الف الف فلحسن جوابك وأطلق الخنصر وأمر لى بمال .

قال أبو عباد : لما ناقب المأمون احمد بن أبى خالد قال : ما أظن أن الله خلق فى الدنيا نفساً أنبل ولا أكرم من نفس المأمون . قلت : وبم ذاك ؟ قال : كان قد عرف نفس الرجل يعنى احمد بن أبى خالد وشرهه فكان إذا وجهه إلى رجل برسالة أو فى حاجة قال : إيته بالغداة ، واخلع ثيابك واطمأن عنده ، فإن انصرفت وقد قمت فاكتب إلى بجواب ما جئت به فى رقعة وادفعها إلى فتح يوصلها لى .

وحدثنى بعض أصحابنا قال : قال المأمون يوماً لأحمد بن أبى خالد : اغدُ عَلَىّ باكراً لأخذ القصص التى عندك فإنها قد كثرت لنقطع أمور أصحابها فقد طال صبرهم على انتظارها ، فبكر وقعد له المأمون فجعل يعرضها عليه ويوقع عليها إلى أن مر بقصة رجل من اليزيديين يقال له فلان اليزيدى ، فصحف وكان جائعاً فقال : الثريدى . فضحك المأمون وقال : يا غلام ، ثريدة ضخمة لأبى العباس فإنه أصبح جائعاً ، فخجل احمد وقال : ما أنا بجائع يا أمير المؤمنين ولكن صاحب هذه القصة أحمق وضع نسبته ثلاث نقط . قال : دع هذا عنك فالجوع أضر بك حتى ذكرت الثريد . فجاءوه بصحفة عظيمة كثيرة العراق والودك ، فاحتشم أحمد

فقال المأمون : بحياتى عليك لما عدلت نحوها ، فوضع القصص ومال إلى الثريد ، فأكل حتى انتهى والمأمون ينظر إليه ، فلما فرغ دعا بطست فغسل يده ورجع إلى القصص فمرت به قصة فلان الحمصى ، فقال : فلان الخبيصى : فضحك المأمون وقال يا غلام ، جاما ضخماً فيه خبيص فإن غداء أبى العباس كان مبتوراً . فخجل احمد قال : يا أمير المؤمنين صاحب هذه القصة أحمق فتح الميم فصارت كأنها سنتين . قال دع عنك هذا ، فلولا حمقه وحمق صاحبه لمت جوعا ، فجاءوه بجام خبيص فخجل . فقال له المأمون : بحياتى عليك إلا ملت إليها ، فانحرف فانثنى عليه وغسل يده ، ثم عاد إلى القصص فما أسقط حرفا حتى أتى على آخرها .

قال احمد بن أبى طاهر : ولما انصرف دينار بن عبد الله عن الجبل كان المأمون واجداً عليه فأقام فى المدائن فى حراقته حيناً حتى رضى عنه . قال فوجه إليه المأمون احمد بن أبى خالد وقال : قل له فعلت كذا ، وصنعت كذا ، واحفظ ما يرجع إليك من جوابه .

فلما مضى احمد قال [المأمون] لياسر رجله وكان قد سمع الرسالة والكلام الذى حمله إلى دينار : اتبعه فانظر ما يقول لدينار وما يرد عليه ، وأعلمنى ما يصنع عنده فإنه إن تغدى عنده رجع بكل ما يحب دينار ، وإن لم يطعمه رجع بكل ما يكره . قال : فلما خرج علم وكيل دينار أنه يريده فوجه رسولا إلى صاحبه يخبره بمجيئه . فقال دينار لقهرمانه : إن احمد أشره من نفخ فيه الروح ، فانظر إذا هو خرج من الماء فقل له ما الذى يتخذ لك حتى تتغدى به ، فلما خرج من الحراقة قال له ذلك . قال : فراريج كسكرية بخبز الماء وماء الرمّان . قال : فذبح له عشرون فروجا ، وشواها وخبز خبز الماء فى أقل من ساعة ثم جاءه فقال : قد تهيأ طعامنا . قال : ويلك ، هات فأنا أجوع من كاب . فقرب إليه الطعام فأتى على الفراريج حتى لم يدع إلا عظماً عاريا وقرب إليه الحار والبارد والحلو والحامض ، فما وضع بين يديه

شيء إلا أثر فيه ، فلما انتهى جاءه الطباخ بخمس سمكات على طبق يلوح له بها ، فصاح بالقهرمان : يا ابن الخبيثة ، كان ينبغى أن تقدم هذا قبل كل شيء ، فقال : صدق والله ولكن هاته ، فأكل منه أكل من لم يذق شيئاً ثم قال لدينار : يقول لك أمير المؤمنين قد حصلت لنا قبلك أموال منها ما هو بخطك فى الديوان ، ومنها ما أقررت بها على لسان كاتبك . قال : فقال دينار : ما لكم قبلى إلا سبعة آلاف الف ما أعرف غيرها . قال : فاحمل هذا المال الذى لا تنكره . قال : أحمله فى ثلاث نجوم ، قال : فاتفقنا على ذلك .

قال : فلما تغدى وثقلت معدته وهم بالانصراف فقال : أعد علىّ الجواب ، قال: نعم ، لكم عندى ستة آلاف ألف ، قال ياسر : إنها سبعة آلاف الف وهذا أبو العباس فاسأله ، فال يا أبا العباس ، ألم تقل الساعة لكم عندى سبعة آلاف الف ؟ قال : لا ولكن قل الساعة يحفظ كلامك . قال دينار : ما قلت إلا ستة آلاف الف فانصرف احمد وسبقه ياسر فدخل فحكى للمأمون القصة حرفاً حرفاً . فلما دخل احمد أخبره بما قال دينار حتى انتهى إلى جملة المال فقال : أقر بخمسة آلاف الف ، فضحك المأمون وقال : الف الف للغداء قد عرفنا موضعها ، فالألف الألف الأخرى لماذا سقطت فأخذ بستة آلاف الف . وقال : ما رأيت غداء قط قام بألف الف على رجل واحد إلا غداء دينار علينا . وسمعت من يذكر أنه ولى رجلا كورة عظيمة القدر بخوان فالوذج أهداه إليه .

قال : وحدثنى بعض أصحابنا أن جماعة من أهل كورة الأهواز شكوا عاملا كان عليهم فعزل ، وصار إلى مدينة السلام فتكلموا فيه فأنهى خبرهم إلى المأمون فأحضرهم وخصمهم وأمر احمد ابن أبى خالد بالنظر فى أمورهم فقال رجل من خصوم العامل يا أمير المؤمنين : جعلنى الله فداك تقدم إلى احمد أن لا يقبل من هذا الفاجر هدية حتى يقطع أمرنا . فوالله لو أكل من طعامه رغيفاً ، ومن فالوذجه جاماً ليدحضن الله حجتنا على يديه ، وليبطلن حقنا على يديه . فقال : احضروا

يوم الأربعاء حتى أنظر فى أموركم بنفسى وأُجْرِىَ على ابن أبى خالد فى كل يوم ألف درهم لمائدته لئلا يشره إلى طعام أحد من بطانته .

قال أحمد بن أبى طاهر : رفع إلى المأمون فى المظالم إن رأى أمير المؤمنين أن يجرى على أحمد بن أبى خالد نزلا فإن فيه جنسية من الكلاب وقال : إن الكلب يحرس المنزل بالكسرة واللقمة ، وأحمد بن أبى خالد يقتل المظلوم ويعين الظالم بأكلة قال : فأجرى عليه المأمون ألف درهم فى كل يوم لمائدته فكان مع هذا يشره إلى طعام الناس وتمتد عينه إلى هدية تأتيه وفيه يقول دعْبل :

شَكَرْنا الْخليفَةَ إجْراءَهُ عَلَى ابْن أبى خَالد نَزْلَهُ
وَكَفَّ أذاهُ عن المُسْلِمِينَ وَصَيَّرَ فى بَيْتِه أكْلَهُ
وَقَدْ كانَ يَقْسِمُ أشْغَالَهُ فَصَيَّرَ فى نَفْسِه شغْلَهُ

وقال أيضاً يهجوه ويذكر أبا عباد ، وعمرو بن مسعدة ويصف شراهة أحمد ابن أبى خالد :

لَوْلاَ تَكُونُ لِكَاتبٍ لك رَبْعُه يَقْضى الحوائجَ مُسْتَطِيلَ الرَّأس
لَمْ تَغْدُ بَالْمَبُون عِنْدَ فطَامه يَوْمًا وَلا بمُطجَّن القُلْقَاس
أوكَانَ مَسْعَدَةَ الْكريم بجَارِهُ بَيْتُ الكتابَة فى بنى العبَّاس
يَغْدُو عَلَى أضْيافه مُسْتَطعمًا
كالْكَلْبُ يأكُلُ فى بيُوت النَّاس

قال : وكان مع هذا أسى اللقاء ، عابس الوجه يهر فى وجوه الخاص والعام غير أن فعله كان أحسن من لقائه ، وكان من عرف أخلاقه ، وصبر على مداراته نفعه ، وعرضه ، وأكسبه وكان يرمى هو والفضل بن الربيع قبله ، والحرانى قبلهما بالأبنة كما ذكر.

حدثنى بعض أصحابنا قال : وقع بين أحمد بن أبى خالد ، ومحمد بن الفضل بن سليمان الطوسى كلام وجرت بينهما منازعة بحضرة المأمون ، وكان ابن الطوسى سليط اللسان بذىء الكلام . فقال والله يا أمير المؤمنين : لحدثنى ذو اليمينين طاهر ابن الحسين أنه استزاره وأنه نادمه قال فقام لقضاء حاجته وأبطأ على ذى اليمينين رجوعه فذكر أنه خرج فى أثره فإذا بعض غلمانه على ظهره وهذا ذو اليمينين بالحضرة ما استشهدت ميتاً ، ولا كذبت على غائب متعمداً . فأمر المأمون بإحضار ذى اليمينين فحضر فسأله فأنكر ذلك إنكاراً ضعيفاً ولم يدفعه دفعاً قوياً . قال : فاتضع عند المأمون بعد هذه . وتهيأ أن حمل يحيى بن أكثم إليه من أموال الحشرية ثلاث مائة ألف دينار وهو إذ ذاك حاكم أهل البصرة وقبل ذلك ما وصله الحسن ابن سهل وقال من حاله ونبله ومن فهمه ومن صيانته نفسه ما حرك المأمون على اجتبائه واختياره .

ذكر وفاة أحمد بن أبى خالد

قال : لما مات احمد بن أبى خالد الأحول حضر المأمون جنازته وصلى عليه فلما دلى فى حفرته ترحم عليه ثم قال : أنت والله كما قال القائل :

أخُو الجدِّ إن جَدَّ الرِّجالُ وشَمَّرُوا
وَذُو باطلٍ إن كان فى القَوْمِ بَاطِل

حدثنى عبد الوهاب بن أشرس قال : قال أحمد بن أبى خالد الأحول يوماً لثمامة بحضرة المأمون: يا ثمامة ، كل أحد فى الدار فله معنى غيرك فإنه لا معنى لك فى دار أمير المؤمنين . فقال له ثمامة : إن معناى فى الدار والحاجة إلىَّ لبينة . فقال : وما الذى تصلح له ؟ قال : أشاور فى مثلك هل تصلح لموضعك أم لا تصلح. قال : فأفحم . فما رد عليه جواباً .

حدثنى محمد بن موسى بن إبراهيم قال : أراد المأمون الخروج إلى المدائن فاستخلف أحمد بن أبى خالد فى الرصافة ، واستخلف عمرو بن مسعدة فى المخرم . قال : فقال أحمد بن أبى خالد يا أمير المؤمنين : إنك تشخص وتخلف ببابك أحراراً وأشرافاً أعينهم ممدودة إلى فضلك ، وآمالهم فيك منفسحة ، فإذا شخصت انقطعت آمالهم فلو أمرت لهم بمال ففرق فيهم بعد شخوصك كأنهم لم يفقدون . قال المأمون : قدر فى ذلك تقديراً . قال : ليأمر أمير المؤمنين بما رأى . قال : قد أمرت لهم بألف ألف درهم تفرقها فيهم على قدر استحقاقهم . قال : فقال له أحمد بن أبى خالد يا أمير المؤمنين فعندى ما أريد أن أورده بيت مال أمير المؤمنين أفأجعلهم منه ؟ قال : نعم . قال : فشخص المأمون إلى المدائن ، وقعد عمرو فى المخرم ، وأحمد ابن أبى خالد فى الرصافة فجعل ابن أبى خالد يتذكر من يؤمله وهم بباب الخليفة من الأحرار والأشراف فيسمى لكل رجل بمال ويجعله فى كيس ويكتب عليه اسمه حتى تعدى إلى أصحاب عمرو بن مسعدة فكتب أسماءهم ثم قال: أذن للناس، فجعل لا يدخل عليه رجل إلا قال له : إن أمير المؤمنين ذكرك وقد أمر لك بمال قال : ثم يدعو به فيدفع إليه فما دخل عليه أحد يومئذ فخرج من عنده مخفقاً ، وبلغ الخبر أصحاب عمرو فأتوه وأخذوا صلاتهم فكثر الناس على بابه وخفوا عن باب عمرو حتى كان لا يلزمه إلا كتابه : قال فأتاه بعد ذلك بيومين أو ثلاث رجل من آل مروان بن أبى حفصة فمثل بين يديه فأنشده :

قُلْ للإمام وَخَيْرُ القَوْلِ أصْدَقُهُ
رَأْسَ الملوكِ وما الأذْنَابُ كالرَّاس

إنِّى أعُوذُ بهارُونَ وَحُفْرَتِه وقَبْرِ عَمِّ نَبِيِّ الله عَبَّاس
مِنْ أنْ تَكُرَّ بِنَا يوماً رَوَاحِلُنَا إلى اليمامَةِ مِنْ بَغْدَادَ بالْيَاس

قال : فقال ويحك يا غلام ما بقى عندك من ذلك المال ؟ قال : عشرة آلاف درهم . قال : فادفعها إليه . قال فدفعت إليه .

قال حدثنى جرير النصرانى : أن أحمد بن أبى خالد كلم المأمون فى جاره صالح الأضخم وأخبره أنه كان لله عليه نعمة وأن حاله قد رثت فأمر له بأربعة مائة ألف درهم . فقال له مازحاً : كلمت أمير المؤمنين فى أمرك فلم يكن عنده فى حاجتك شىء . قال : لأنك كلمته ونيتك ضعيفة فخرج الكلام على قدر النية والجواب على قدر الكلام . قال : فقال ما أفتلتُ منك على مال فصالحنى على شىء أخبره به فلعله يفعل أو أعطيكه من مالى . قال : أما من مالك فلا حاجة لى فيه ولا أقول فى هذا شىء . قال احمد : مائة الف، قال إن فيها لصلاح .قال فإن كانت مائتين ؟ قال فذاك أفضل يقضى به الدين ويتخذ به المروءة ، وتكون منها ذخيرة . قال : فقد أمر لك بأربعة مائة الف فقال : يا معشر الناس فى الدنيا خلق أشر من هذا ، عندك هذا الخبر وتعذبنى هذا العذاب !! ثم دعا وشكر .

قال احمد بن أبى طاهر : وخبرت أن المأمون قال لأحمد يوماً : إيش تصنع إذا انصرفت الساعة ؟ قال : أقضى حق أبى سعيد الحسن بن قحطبة عائداً ، وإنه لرث الحال . قال : تحب أن أهب له شيئاً ؟ قال : أحب أن تهب لأوليائك كلهم . قال: أعطه مائة ألف ، قال : أحملها إليه الساعة من بيت المال ؟ فقال المأمون: نعم قال: جزاك الله يا أمير المؤمنين عن شيعتك ، وأوليائك خيراً فحملها إليه وأخبر الخبر .

وحدثنى بعض أصحابنا : أن محمد بن الحسن بن مصعب أتى أحمد بن أبى خالد لما ولى الجبل وهو يريد الخروج إليه . فقال له : إنى كنت سميت لك ثلاثة مائة ألف درهم من مال أمير المؤمنين وقد وقعت بها وأنت تخرج . وقال لقهرمانه يزيد ابن الفرج : اذهب إلى الخزان فلا تفارقهم حتى يحملوها إليه ، وأعطه من مالى مائة ألف وخمسين ألف درهم لأنه لا يجوز لى أن أجاوز نصف ما أمر به أمير المؤمنين أطال الله بقاءه . فتعذر محمد بن الحسن من صلته فقال : والله لئن لم تقبلها لأقطعنك

ولا كلمتك ابداً فسارّ يزيد احمد بن ابى خالد فقال : المال عندنا اليوم يتعذر . فقال : لابد والله من أن تحمل إليه الساعة مائة ألف درهم دفعة .

وقال : قال المأمون لأحمد بن أبى خالد وغسان بعد أن ظفر بإبراهيم بن المهدى ما تريان فيه ؟ فقال غسان : تقتله . فقال احمد بن أبى خالد : تعفو عنه . فقال له غسان : هل رأيت أحداً فعل هذا الفعل . فقال له أحمد : العفو صواب أو خطأ ؟ قال له : صواب . فقال أحمد بن أبى خالد : أمير المؤمنين أولى الناس بأن يفعل من الصواب ما لم يسبقه أحد . فعفا عن إبراهيم ، وقال للمأمون : إنما أشار عليك غسان بقتله لأنه حارب آل ذى الرئاستين .

وحدثنى أن أحمد بن أبى خالد كان يقول : يهدى إلى الطعام فوالله ما أدرى ما أصنع به يهديه إلىّ صديق استحى من رده عليه . وبلغنى أن أحمد بن أبى خالد كان يجرى ثلاثين ألفاً على رجال من أهل العسكر ، منهم : العباس ، وهاشم ابنا عبد الله بن مالك لم يوجد لها ذكر فى ديوانه تكرماً .

وحدثنى جرير بن إبراهيم بن العباس قال : بعثنى أحمد بن أبى خالد إلى طاهر فقال : قل له ليس لك بالسواد ضيعة وهذه ألف ألف درهم بعث بها إليك فاشتر بها ضيعة ، والله لئن لم تأخذها لأغضبن ، وإن أخذتها لتسرنى فردها فقال إبراهيم : ما رأيت أكرم منهما أحمد بن أبى خالد معطياً وطلحة متنزهاً .

ذكر اتصال أحمد بن يوسف بالمأمون

قال أحمد بن أبى طاهر : كان أحمد بن أبى خالد يصف لأمير المؤمنين أحمد ابن يوسف كثيراً ، ويحمله على منادمته ، ويريده طاهر بن الحسين ويزين أمره وإذا حضر إبراهيم بن المهدى أطراه فأمر المأمون أحمد بن أبى خالد بإحضاره فلما أخذوا مجالسهم غمز أحمد بن أبى خالد أحمد بن يوسف أن يتكلم فقال : الحمد لله

يا أمير المؤمنين الذى استخصك فيما استحفظك من دينه ، وقلدك من خلافته بسوابغ نعمه ، وفضائل قسمه ، وعرفك من تيسر كل عسير حاولك ، وغلبة كل متمرد صاولك ما جعله تكلة لما حباك من موارد أموره بنجح مصادرها حمداً نامياً زائداً لا ينقطع أولاه ولا ينقضى أخراه ؛ وأنا أسأل الله يا أمير المؤمنين من إتمام آلائه لديك ، وإنماء مننه عليك وكفايته ما ولاك واسترعاك ، وتحصين ما حاز لك ، والتمكين فى بلاد عدوك حتى يمنع بك بيضة الإسلام ، ويعز بك أهلك ، ويبيح لك حُماة الشرك ، ويجمع لك مُتباين الألفة ، وينحز بك فى أهل العنود والضلالة ، إنه سميع الدعاء ، فعال لما يشاء . فقال له المأمون : أحسنت وبورك عليك ناطقاً وساكتاً . ثم قال بعد أن بلاه واختبره : عجباً لأحمد بن يوسف ، كيف استطاع أن يخبأ نفسه .

حدثنى أبو الطيب بن عبد الله بن احمد بن يوسف قال : كان أبو جعفر احمد ابن يوسف بعد دخوله على المأمون يتقلد ديوان السر للمأمون وبريد خراسان ، وصدقات البصرة ، وصير له المأمون نصف الصدقات بالبصرة طعمة له سبع سنين وكان قبل ولايته البصرة سلّفه الأهواز فصرف عنها ، وكان عمرو بن مسعدة يتقلد ديوان الرسائل فكان المأمون لعلمه بقدم احمد فى صناعته إذا حضر أمر يحتاج فيه إلى كتاب يشهر ويذكر أمر احمد فكتب مثل كتاب الخميسين ، وهدم البيت المشبه بالكعبة ، وسائر كتبه بليغة .

قال احمد بن أبى طاهر : دخل احمد بن يوسف يوماً على المأمون فأمره فكتب بين يديه والمأمون يملى عليه . قال : وكان احمد بن يوسف مع لسانه حلو الخط جداً . فنظر المأمون إلى خطه فقال يا احمد : لوددت أنى أخط مثل خطك وعلى صدقة الف الف درهم . قال : فقال احمد بن يوسف : لا يسوؤك الله يا أمير المؤمنين ، فإن الله عز وجل لو ارتضى الخط لأحد من خلقه لعلمه نبيه صلى الله عليه

وسلم . قال : فقال المأمون : سريتها عنى يا أحمد ، وأمر له بخمسمائة الف درهم .

وحدثنى عن احمد بن يوسف بن القاسم الكاتب قال : أمرنى المأمون أن أكتب إلى جميع العمال فى أخذ الناس بالاستكثار من المصابيح فى شهر رمضان ، وتعريفهم ما فى ذلك من الفضل ، فما دريت ما أكتب ولا ما أقول فى ذلك ، إذ لم يسبقنى إليه أحد فأسلك طريقه ومذهبه ، فَقِلْتُ فى وقت نصف النهار ، فأتانى آت فقال : قل : فإن فى ذلك أنساً للسابلة ، وإضاءة للمتهجدين ، ونفياً لمظان الريب ، وتنزيهاً لبيوت الله من وحشة الظلمة ، فكتبت هذا الكلام وغيره مما هو فى معناه .

قال : ودخل احمد بن يوسف على المأمون فقال له : يا أمير المؤمنين ما رضى أهل الصدقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أنزل الله عز وجل فيهم : (ومنهم من يلمزك فى الصدقات ، فإن أعطوا مِنها رضوا وإن لم يعطوا مِنها إذا هم يسخطون)[1] فكيف يرضون عنى .

حدثنى احمد بن القاسم الكاتب قال : حَدثنى نصر الخادم مولى أحمد بن يوسف قال : كان احمد بن يوسف يتبنى مؤنسة جارية أمير المؤمنين المأمون ، وجرى بينها وبين المأمون بعض ما يجرى . قال : وخرج المأمون إلى الشماسية وخلفها ، فجاء رسولها إلى احمد بن يوسف تستغيث به ، فوجهنى احمد إليها ، فعرفت الخبر ثم رجعت فأخبرته . قال : فقال دابتى . ثم مضى فلحق أمير المؤمنين بالشماسية فقال للحاجب : اعلم أمير المؤمنين أن احمد بن يوسف بالباب وهو رسول فأذن له فدخل فسأله عن الرسالة ما هى ؟ فاندفع ينشده :

---

(١) سورة التوبة ٥٨ .

قَدْ كان عَتْبُكَ مَرَّةً مَكْتُوماً فاليومَ أَصْبَحَ ظاهراً مَعْلُوما
نَالَ الأعَادِى سُؤْلَهُمْ لا هُنِّئُوا لَمَّا رَأَوْنى ظَاعِناً وَمُقِيما
هَبْنى أسَأْتُ فَعَادَةٌ لكَ أن تُرَى مُتَفَضِّلاً مُتَجَاوِزاً مَظْلُوما

قال : قد فهمت الرسالة ، كن الرسول بالرضا يا ياسر ، امض معه . قال : فحملت الرسالة ، وحملها ياسر .

قال احمد بن أبى طاهر : قال المأمون يوما لأصحابه أخبرونى عن غسان بن عباد فإنى أريده لأمر جسيم ، وكان قد عزم أن يوليه السند ، فقال بشر بن داود بن يزيد : قد خالف واستبد بالفىء والخراج ، فتكلم القوم وأطنبوا فى مدحه ، فنظر المأمون إلى احمد بن يوسف وهو ساكت . فقال له : ما تقول يا أحمد ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، ذاك رجل محاسنه أكثر من مساويه ، لا تصرف به طباقه إلا انتصف منهم مهما تخوفت عليه فإنه لن يأتى أمراً يعتذر منه ، لأنه قسم أيامه بين أيام الفضل فجعل لكل خلق نوبة ، إذا نظرت فى أمره لم تدر أى حالاته أعجب ، أما هداه إليه عقله ، أم ما اكتسبه بالأدب . قال : لقد مدحته على سوء رأيك فيه قال : لأنه فيما قلت كما قال الشاعر :

كفى ثمناً لما أَسْدَيْتُ أنى مَدَحْتُكَ فى الصَّديقِ وفى عِدَائى
وَإنَّكَ حِينَ تَنْصِبُنى لأمْرٍ يكُونُ هَوَاكَ أغلَبُ من هَوَائى

قال : فأعجب المأمون كلامه واسترجح أدبه .

قال : عزّى احمد بن يوسف ولد رجل من آل الربيع وكان له مواصلا فقال : عظم الله أجركم ، وجبر مصابكم ، ووجه الرحمة إلى فقيدكم ، وجعل لكم من وراء مصيبتكم حالا تجمع كلمتكم ، وتلم شعثكم ، ولا تفرق ملأكم .

قال احمد بن أبى طاهر : ولما حضر احمد بن يوسف بالمأمون وغلب عليه حسده

المعتصم فاحتال له بكل حيلة فلم يجد وجهاً يسبعه به عنده . وكان المأمون يوجه إلى احمد بن يوسف فى السحر ، ويحضر المعتصم وأصحابه فى وقت الغداء ، فكان ذلك مما اغتم له خاصة المأمون أجمع فشكا ذلك المعتصم إلى محمد بن الخليل بن هشام ، وكان خاصاً بالمعتصم ، فقال : أنا أحتال له .

قال : فدس محمد بن الخليل خادماً ممن يقوم على رأس المأمون فقال له : إذا خص المأمون احمد بن يوسف بكرامة أو لون من الألوان ، ولم يكن لذلك أحد حاضر فأعلمنى ، وضمن له على ذلك ضماناً ، فوجه المأمون يوماً فى السحر كما كان يفعل إلى احمد بن يوسف وليس عنده أحد ، وتحته مجمرة عليها بيضة عنبر ، وكان أمر بوضعها حين دخل احمد ، ولم تكن النار علت فيها إلا أخذ ذلك ، فأراد أمير المؤمنين أن يكرم احمد بها ويؤثره فقال للخادم : خذ المجمرة من تحتى ، وصيرها تحت احمد .

ويحضر محمد بن الخليل فيخبره الخادم بذلك ، وكان المأمون يستظرف محمد بن الخليل ويدعوه أحياناً فيقول له : ما تقول العامة ، وما يتحدث به الناس ؟ فيخبره بذلك فدعاه بعد يوم المجمرة بأيام فقال له : ما تقول الناس ؟ فقال : يا سيدى شىء حدث منذ ليال من ذكرك أجل سمعك منه . فقال : لا بد من أن تخبرنى . فقال : انصرفت يوماً فمررت بمشرعة وأنا فى الزلال فسمعت سقاء يقول لآخر معه ما رأيت كما يخبر ندماء هذا الرجل عنه . فقال له : ومن تعنى ؟ قال له : أمير المؤمنين فقال له : وما ذاك ؟ قال : انصرف من عنده احمد بن يوسف فسمعته يقول لغلامه ما رأيت أحداً أبخل ولا أعجب من المأمون ، دخلت عليه اليوم وهو يتبخر فلم تتسع نفسه أن يدعو لى بقطعة بخور حتى أخرج القتار الذى كان تحته فبخرنى به .

فعرف المأمون الحديث ، وقال فى نفسه : والله ما حضر هذا اليوم أحد فأتوهم

فيه ضربا من الضروب ، وجفا احمد بن يوسف وحجبه أياماً وأخبر محمد بن الخليل المعتصم فوفى له بما كان فارقه عليه .

أخبار أبي دلف القاسم بن عيسى بن إدريس

قال احمد بن أبي طاهر : قال احمد بن يوسف حدثنى ظريف مولانا وكان نحويا قال : وجهنى مولاى القاسم بن يوسف بكتاب إلى أبى دلف القاسم بن عيسى وهو يومئذ ببغداد ، قال : فدخلت عليه وعنده على بن هشام وجماعة من قواد أمير المؤمنين وهو مكبوب على شطرنج بين أيديهم ، فقربنى وساءلنى وأخذ الكتاب وأمرنى بالجلوس . قال : فقال له على بن هشام ، أو بعض من حضر : قربت هذا هذا العبد وأجلسته ؟ فقال له : إنه أديب وإنه شاعر وهو عبد من هو عبده . قال فقالوا : إن كان شاعراً فليقل فى أينا إليه أحب أبياتاً . قال ذلك إليه. قال : فقلت تأذن جعلنى الله فداك فى شىء قد حضرنى . قال : هاته ، فأنشده :

أَبُو دُلَفٍ فتى العرَب وفارِسُها لَدَى الكُرَب
وهُوبُ الفضة البَيْضا ء والعِينَات والذهب
أَحَبُّكُمْ إلى قلـــبى وإن كُنْتمْ ذَوِى حَسَب

قال : فكتب جواب الكتاب ، وتشوور القوم ، وعدت بالجواب إلى مولاى فلما قرأه قال لى : أحدثت ثم حدثا ؟ قلت : لا . قال : لتصدقنى عن المجلس ، فحدثته بكل ما كان ، فأعتقنى وولدى وامرأتى ، ووهب لى المنزل الذى كنت أنزله ، وأمر لى بخمسمائة درهم .

فخرجت من عنده فإذا إخوانى وأصحابى على الباب ليهنئونى ، وإذا برسول أبى دلف وأحد وكلائه قد وافى ، فسألنى عن حالى فأخبرته ، فأخرج إلى كيساً

فدفعه إليّ ، وقال : وجهني أبو دلف وقال لى إن أصبته مملوكا فاشتره ، وإن أصبته حراً فادفع إليه هذه الدنانير .

حدثني مسعود بن عيسى بن اسماعيل العبدى قال : حدثني موسى بن عبيد الله التميمي قال : كان أبو دلف أيام المأمون مُقيما ببغداد وكانت معه جارية أفادها من بغداد ، فاشتاق إلى الكرخ فخاطبها فى الخروج معه إلى الكرخ فأبت عليه ، فقالت : بغداد وطنى ، فلما عزم على الرحيل تمثل :

وسلامٌ عليكِ يا ظَبْيَةَ الكَرْ   خ أقَمْتُمْ وحانَ مِنَّا ارتحالُ
وَمَقامُ الكَريمِ فى بَلَدِ الهوْ   نِ إذا أمْكَنَ الرَّحيلُ مُحالُ
حَيْثُ لا رافعاً لسيْفٍ منَ الض   يمِ ، ولا للكُماةِ فيهِ مَجالُ
فى بلادٍ يذلُّ فيهـا عَزيزُ ال   قومِ حتّى ينالَهُ الأنذالُ

وحَدثني احمد بن القاسم العجلى قال : حدثني عبد الله بن نوح قال : قدم أبو دلف العجلى قدومه إلى بغداد فى أيام المأمون فجاءنى بعض فتياننا فقال : ارتحل إليه فإنى ضعيف الحال ، ولعله أن يرتاح لى بما يغنينى ، وقد عملت فيه أبياتاً ، فأتاه فطالب الوصول إليه ، قال : فلما دخل خبره بنسبه فرحّب به ثم استأذنه فى إنشاده فأذن له فقال :

إنى أتيتكَ واثقاً إذْ قِيلَ لى   أنْ نِعْمَ مَأْوَى اليائِسِ المَحْرُوب
يُعْطِى فَيُغْنى مَنْ حَباهُ بِسَيْبِهِ   بِشْرٌ إلى السُّؤال غيْرُ قَطُوب
وَرَجَوْتُ أن أحْظَى بِجُودِكَ بالْغِنى
وَأحُلُّ فى عَطَنٍ لَدَيْكَ رَحِيب
فَلَئِنْ رَجَعْتُ ببعض ما أمَّلْتُهُ   فَلَقَدْ أراحَ اللهُ كلَّ كُرُوبى
أوْ لاَ فَصَبْراً للزَّمان وَرَيبـه   صَبْرَ المحِبِّ على أذى المحبوب

فقال لى : كم الذى يغنيك ؟ فقلت : إنى لمختل مُعْتل ، وإنى إلى فضلك لفقير فسأل عنى بعض من عنده من أهلى فعرفنى ، فأمر لى بخمسة آلاف درهم ، وكتب إلى وكيله أن يشترى لى داراً . قال : فانصرف بأكثر أمنيته .

قال : وحدثنى على بن يوسف قال : كنت يوماً عند أبى دلف ببغداد ، فجاء الآذن فقال : جعيفران الموسوس بالباب ، قال: فقال إن فى العقلاء والأصحاب من يشغلنا عن الموسوس ، قال : قلت جعلت فداك ، أن يفعل فإن له لساناً . قال : فأذن له فدخل ، فلما مثل بين يديه قال :

يَا أَكْرَمَ الأُمَّة مَوْجوداً ... وَيَا أَعزَّ الناس مَفْقُودا
لَمَّا سَأَلْتُ الناسَ عن واحِدٍ ... أَصْبَحَ فى الأُمَّة محمودا
قَالُوا جميعاً : إنه قَاسِمٌ ... أَشْبَهَ آباءً لَهُ صِيدا
لو عَبَدُوا شيئاً سِوَى رَبِّهِمْ ... أَصبَحْتَ فى الأُمَّة مَعْبُودا

قال : فأمر له بكسوة فطرحت عليه ، وأمر له بمائة درهم . فقال له جعيفران : جعلت فداك ، تأمُر القهرمان أن يعطينى منها دراهم — قد ذكرها — كلما جئته دفع إلىَّ من الدراهم ما أريده حتى تنفد ؟ ! قال : نعم ، وكلما أردت حتى يفرق بيننا الموت .

قال : فأطرق جعيفران وبكى ، وأكب على إصبعه ، فقلت : مالك ؟ قال : فالتفت إلىَّ فقال :

يموتُ هذا الذى نَرَاه ... وكلُّ شَىْءٍ لَهُ نَفَادُ
لو أنَّ خَلْقاً لَهُ خُلُودٌ ... خُلِّدَ ذا الفَضْلِ الجوادُ

وانصرف . قال : فقال لى أبو دلف : يا أبا الحسن ، أنت كنت أعلم بصاحبك منا .

حدثنى أحمد بن يحيى أبو على الرازى قال : سمعت أبا تمام الطائى يقول : دخلنا على أبى دلف أنا ودعبل الشاعر وبعض الشعراء أظنه عمارة وهو يلاعب جارية له بالشطرنج فلما رآنا قال : قولوا فى هذا شعراً :

رُبَّ يَوْمٍ قَطَعْتُ لاَ بُمدَامٍ ... بَلْ بِشِطْرَنْجِنَا نُحيلُ الرِّخَاخا

ثم قال : أجيزوا ، فبقينا ننظر بعضنا إلى بعض ، قال : فلم لا تقولون :

وَسْطَ بُسْتَانِ قَاسمٍ فى جِنَانٍ ... قَدْ علَوْنَا مَفارشاً ونخاخا

وَحوَيْنَـــا من الظِّباءِ غزَالاً ... طَرُبٌ لَحْمُهُ يَفُوقُ المخاخا

فَنَصَبْنا لَهُ الشِّبَاكَ زمَاناً ... وَنَصبْنا مع الشِّباكِ فخاخا

فأَصدْنَاهُ بَعْدَ خَمْسَةِ شَهْرٍ ... وَسْطَ نَهْرٍ يَشخُّ ماءً شخاخا

قال : فنهضنا عنه ، فقال : إلى أين ، مكانكم حتى يكتب لكم بجوائزكم ؟ فقلنا : لا حاجة لنا فى جائزتك حسبنا ما نزل بنا منك فى هذا اليوم ، فأمر بأن تضعف لنا .

حدثنا محمد بن فرخان القلزمى ، قال : حدثنى أبو جشم محمد بن المرزبان ، قال : حضرت مجلساً للقاسم بن عيسى أبى دلف لم أر ولم أسمع مثله ، اجتمع فيه بنو عجل كلها قضها بقضيضها الأدباء منهم ، فسألهم القاسم بن عيسى عن أشجع بيت قالته العرب ؟ فقال أحدهم قول عنترة :

إذ يَتَّقُونَ بى الأسنَّةَ لَمْ أخمْ ... عَنْها وَلَـكِنِّى[1] تَضايَقَ مُقْدَمى

وقال أحد بنى القاسم بن عيسى قول الشاعر حيث يقول :

وَإنِّى إذَا الحَرْبُ العَوانُ تَوَكَّلُ ... بتَقْدِيمِ نَفْسٍ لاَ أحِبُّ بَقَاءَها

---

(١) فى الديوان لعنترة : **ولوانى** .

وقال آخر قول عمرو بن الإطنابة :

أَبَتْ لى عفَّتى وأبى بَلائى ... وأَخْذى الحمدَ بالثَّمنِ الرَّبيح
وَإنفاقى عَلَى المكْرُوه مالى ... وَضَرْبى هامَةَ الرَّجُل المُشِيح
وَقولى كلما جَشَأَتْ وَجاشَتْ ... مَكَانَكِ تحمْدَى أوْ تَستَريحى
لأُكسبهَا مآثر صَالحـاتٍ ... وَنفساً لا تقرُّ عَلَى القَبيح

وقال آخر : بل قول العباس بن مرداس السلمى :

أَشُدُّ عَلَى الكَتيبة لاَ أُبالى ... أَفيها كانَ حَتْفى أَوْ سِوَاها

ورجل من مزينة حيث يقول :

دَعَوْتُ بنى قُحافَةَ فاستَجَابوا ... فقُلْتُ رِدُوا فقَدْ طابَ الوُرُودُ

حتى ذكروا نحواً من مائتى بيت وعنده أبو تمام الطائى فقال : هذا والله أشعر من مضى ومن بقى حيث يقول :

فَأَثبتَ فى مُستنقع الموْت رِجْلَهُ ... وَقالَ لها منْ تحت أخمُصك الحَشْرُ
غَدَا غدْوَةً وَالحمْدُ حَشْوُ رِدائه ... فلمْ ينْصرفْ إلاَّ وأكفانُهُ الأجْرُ
وَقدْ كانَ فوتُ المَوْت سَهلاً فرَدَّهُ ... إليْهِ الحفاظُ البر وَالخُلُقُ الوَعرُ

قال : وحدثنى مسعود بن عيسى بن إسماعيل العبدى قال : أخبرنى صالح غلام أبى تمام قال : ورد على أبى دلف شاعر من أهل البصرة تميمى فنافر أبو تمام فأصلح أبو تمام شعراً أداه إلى أبى دلف ليكيد التميمى فأنشده :

إذا أُلجمتْ يوْماً لجيمٌ وَحوْلها ... بَنُو الحصْن نَجْلُ المحصَنات النَّجائب
فإنَّ المَنايا والصَّـوارمَ والقَنا ... أقاربُهُمْ فى الرَّوع دُونَ الأقارب
وإنْ فخرَتْ يوماً تميمٌ بقوْسها ... فخاراً عَلَى ما وطَّدتْ منْ مَناقب

فَأَنْتُمْ بذى قارٍ أمالَتْ سُيُوفُكم عُـــ
رُوشَ الذين اسْتَرْهَنُوا قَوْسَ حاجب

وكادَتْ بمغانيكُم تَهشُّ عِراصُها
فَتركَبَ منْ شوْقٍ إلىَ كُلِّ رَاكب

حدثنى أحمد بن القاسم قال : حدثنى نادر مولاى قال : خرج على بن جبلة إلى عبد الله بن طاهر وقد امتدحه بأشعار أجاد فيها إلى خراسان فلما وصل إليه قال له : يا على ، ألست القائل فى أبى دلف :

إنمَّا الدُّنْيا أبو دُلَفٍ بَيْنَ مَغْزاهُ ومُحْتَضَرِه
فَإِذَا ولَّى أبو دُلَفٍ وَلَّت الدُّنْيَا عَلَى أثَرِه

قال : بلى ، قال : فما الذى جاء بك إلينا وعدل بك عن الدنيا الذى زعمت ، ارجعْ من حيث جئت ، فمر بأبى دلف فأعلمه الخبر ، فأحسن صلته وجائزته وانصرف ، قال نادر : فرأيته عند القاسم بن يوسف ، وقد سألوه عن حاله فقال :

أبُو دُلَفٍ إنْ تَلْقَهُ تَلْقَ مَاجداً جَواداً كريماً رَاجحَ الحِلْمِ سَيِّدا
أبُو دُلَفَ الخَيْرَاتِ أكْرَمَ مُجْتَدٍ وَأبْسَطُ مَعْرُوفاً وَأنْدَاهُمُ يَدا
وَأصْبَرُ أيضاً عندَ مُخْتَلَفِ القَنَا وَأضْرَبُ بالمأثور عَضباً مُهَنَّدا
وَأقْدَمَ للطِّرْف الكَرِيم عَن الوغى إذا ما الكَمِىُّ الجَلْدُ خَامَ وَعَرَّدا
لَقَدْ سَلَفَتْ حقاً إلىَّ لَهُ يَدٌ فَمادَ فأوْلَى مِثْلَها ثمَّ جَدَّدا
أيادى تباعاً كلما سَلَفَتْ يَدٌ إلىَّ وَنُعْمَى مِنْهُ اتْبَعَها يَدَا
تُرَاثُ أبيه عَنْ أبيه وَجَدِّه وَكُلُّ امْرِىءٍ يجْرِى عَلَى ما تَعوَّدا
وَلَسْتُ بِشَاكٍ غَيْرَهُ لَنقيصةٍ وَلكنما المَمْدوحُ مَنْ كانَ أمْجَدا

حدثنى هارون بن عبد الله بن ميمون ، قال : حدثنى أبى ، قال : كنت عند الفضل بن العباس بن جعفر وعنده العكوك على بن جبلة فأنشده قصيدته التى يقول فيها فى أبى دلف :

ذَادَ وِرْدَ الغَىِّ عَنْ صَدره وارْعَوَى وَاللَّهْوُ من وَطَره
إنَّمَا الدُّنْيَا أبُو دُلَفٍ بَيْنَ مَغْزَاهُ وَمُحْتَضره
فإذا وَلّى أبُو دُلَفٍ وَلَّتْ الدُّنْيَا عَلَى أثَره

فقال على بن جبلة : يا أبا جعفر امرؤ القيس قال:

رُبَّ رَامٍ منْ بنى ثُعَلٍ مُخرِجٍ كَفَّيْه منْ سُتَره
فهْوَ لَا يَنْمِى رَمِيَّتُهُ مَالَهُ لَا عُدَّ منْ نَفَره

وقلت أنا :

وَدَمٍ أهْدَرْتَ منْ رَشَاء لَمْ يُرِدْ عَقْلٌ عَلَى هَدَره
ظَلَّ يَدْمَى لَهُ مرْشَفُه وَيُفَدِّينى عَلَى نَفَره

قال عبد الله بن عمرو : حدثنى محمد بن على ، قال : حدثنى محمد بن عبد الله بن الحسين أبو طالب الجعفرى ، قال : رأيت جماعة فى أيام المأمون يقتتلون على أخذ كتاب عبد الله بن عباس بن الحسن إلى أبى دلف ، فقال : إن هذا الرجل عليه نذر من ماله بسببنا ونحن أولى من صانه ، ولكن هذا كتاب أكتبه فى كل سنة إليه وأبيض اسم صاحبه وتقع القرعة لمن خرج اسمه فهو له ، فذكر لى بعض أصحابنا أن أبا دلف لما بلغه ذلك جعل له فى كل سنة مائة ألف درهم يوجه بها ليقسمها على من يراه ممن يهم بزيارته ، ومائة ألف له يصله بها ، قال : وكان سبب ما ضمنه أبو دلف لعباس بن حسن أن إسحاق الموصلى قال : حدثنى أبو دلف ، قال : دخلت على الرشيد فقال لى : كيف أرضك ؟ قال قلت : خراب يباب قد

أخذ بها الأكراد والأعراب ، قال : فقال له قائل : هذا آفة الجبل يا أمير المؤمنين فرأيتها قد أثرت فيه ، فقلت : يا أمير المؤمنين إن كان صدقك فإنى صاحب صلاح الجبل ، قال : فقال لى : وكيف ذلك ؟ فقلت : أكون سبباً لفساده كما زعموأنت على ، ولا أكون سبباً لصلاحه وأنت معى ، فلما خرجت قال له الشيخ إلى جانبه : يا أمير المؤمنين إن همته لترمى به بين وراشينه مرمى بعيداً ، فسألت عن الشيخ فقيل لى : العباس بن الحسن العلوى ، قال : فلقيته شاكراً وقلت : لله على أن لا تكتب إلى فى أحد إلا أغنيته ، قال : وقال محمد بن أحمد بن رزين : حدثنى الحسين بن على بن أبى سلمة وكان أخاً لأبى دلف ، قال : قصر بعض عمال أبى دلف فى أمره فبعث إليه من عزله وقيده وحبسه ، فكتب إلى أبى دلف من السجن كتاباً تنطع فيه ، وقعر وطول فكتب إليه أبو دلف :

يَا صَاحِبَ التَّطْوِيلِ فى كُتْبِهِ ... وَصَاحِبَ التَّقْصِيرِ فى فعله

وَرَاكِبَ الغَامِضِ مِنْ جَهْلِه ... وَتَارِكَ الوَاضِحِ مِنْ عَقْلِه

لَمْ يُخْطِ مِنْ أَلزَمَهُ قَيْدَهُ ... بَلْ صَيَّرَ القَيْدَ إِلى أَهْلِه

قَيَّدَهُ لِلحَبْسِ تَقْصِيرُهُ ... فَالقَيْدُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ رِجْلِه

واللهِ لَا فَارَقَهُ قَيْدُهُ ... أَوْ يَقْطَعَ التَّقْصِيرَ مِنْ أَصْلِه

ذكر اتصال يحيى بن أكثم بالمأمون

والسبب الذى له استوزره

قال : حدثنى أحمد بن صالح الأضخم ، قال : هل تدرى ما كان سبب يحيى أكثم ؟ قلت : لا ، وإنى أحب أن أعرفه ، قال يحيى بن خاقان هو وصله بالحسن ابن سهل وقربه من قلبه ، وكبره فى صدره حتى ولاه قضاء البصرة ثم استوزره المأمون فغلب عليه .

وحدثنى عبد الله بن أبى مروان الفارسى . قال : كان ثمامة سبب يحيى بن أ كثم فى قضاء البصرة مرتين ، وسبب تخلصه من الخادم الذى أمر بتكسيفه بالبصرة . ويقال إنه سطع خُصيته فى تعذيبه بالقصب ، ثم عزل من البصرة فنزل على ثمامة حتى ارتاد له داراً بحضرته ومات أحمد بن أبى خالد الأحول واحتيج إلى من يقوم مقامه . قال : فأراد المأمون ثمامة على اللزوم للخدمة فامتنع واعتل عليه وكره ذلك منه . قال : فأريد لى رجلا يصلح للخدمة . قال ثمامة : فذكرت يحيى فى نفسى ، ولم أبد ذلك للمأمون حتى لقيت يحيى فعقدت عليه أن لا يغدر وأن لا ينساها لى إن حسنت به حاله ، ولطفت له منزله . قال : فقال يحيى يا أبا معن ، أنا صنيعتك وابن عمك . فخبرنى سراج خادم ثمامة أنه بلغ من مقاربة يحيى لثمامة وطلب المنزلة عنده أنه جعل يتعلم القول بالاعتزال . قال : فلما حسن حال يحيى ووقع بينه وبين ثمامة ما وقع من الشر والمباينة والمحادثات عند المأمون فجرى لهم من المجالس فى الكلام والخلاف ما قد أثر وكتب . قال يحيى يوماً ياأمير المؤمنين بلغنى أن رجلا يزعم أنه يفرق بين ما اختلفت فيه الأمة فى حرفين . فقال له ثمامة يا أمير المؤمنين : إياى اعترى ولى فى قوله غناء . نعم أنا أفرق بين ما اختلفت فيه الأمة بحرفين إلا أنى أزداد حرفاً ثالثاً لتفهمه مع الخاصة . فقال المأمون : فقل . فما أراك بخارج منها . قال : يا أمير المؤمنين : لا تخلو أفعال العباد وما اختلف الناس فيه من ذلك أن تكون من الله ليس للعباد فيها صنع أو بعضها من الله وبعضها من العباد ، فإن زعم أنها من الله ليس للعباد فيها صنع كفر ونسب إلى الله كل فعل قبيح . وإن زعم أنها من الله ومن العباد جعل الخلق شركاء لله فى فعل الفواحش والكفر . وإن زعم أنها من العباد ليس لله فيها صنع صار إلى ما أقوله . قال : فما أجاب يحيى جواباً .

قال أحمد بن أبى طاهر : كان المأمون يحضر يحيى بن أ كثم وهو يشرب

فلا يسقيه ويقول : لو أراد يحيى أن يشرب ما تركته وربما وضعت الصحفة قدام المأمون فيها مطبوخ ويحيى يأكل معه فيقول له المأمون : فيها مطبوخ إنى لا أترك قاضى يشرب النبيذ[١] . وقال يحيى بن أكثم أظهر لكل قاض ما تريد أن توليه إياه ومره بكتمانه ثم انظر ما يفعل أولا وضع وضع عليهم أصحاب أخبار . فقال له المأمون : أوليك قضاء القضاة . وقال لغيره ما يريد أن يوليه فشاع ذلك كله إلا خبر يحيى فإنه أتاه أن الناس ذكروا أنه يريد الخروج إلى البصرة على قضائها فذمهم وقال له كيف شاع هذا وأمرت باكتراء السفن إلى البصرة . قال يحيى يا أمير المؤمنين : ليس يستقيم كتمان شيء إلا بإذاعة غيره وإلا وقع الناس عليه . قال : صدقت وحمده .

أخبار عبد الرحمن بن إسحاق القاضى

وبدء أمره وذكر اتصاله بالسلطان

قال أحمد بن أبى طاهر : وقال أبو البصير : كان عبد الرحمن بن إسحاق يختلف إلى ولد سماعة يأكل طعامهم فأتاهم يوماً فتغدى عندهم وأخذوا قلنسوته فتراموا بها فخرقوها فأغضبه ذلك فصار إلى أبيهم ليشكوهم فوجد عنده جماعة فاحتشم أن يشكوهم إليه بحضرة تلك الجماعة وانتظر أن يقوموا عنه فأتاه كتاب ذى اليمينين طاهر بن الحسين بذكر حاجته إلى قاض يكون فى عسكره ينظر فى أمورهم فقال له يا عبد الرحمن : هل لك أن تمضى إليه ؟ قال : نعم . فمضى إليه فجعله قاضياً فى عسكره واستمر به الأمر ودخل فى عداد القضاة فجاء أبوه فقال له : أوصلنى إلى الأمير فخاف أن يفضحه فوهب له مالا حتى انصرف عنه .

---

(١) ومن هنا يعلم أن الشراب الذى يتناوله المأمون هو النبيذ الذى اختلف فى شربه الفقهاء لا الخمر (ز) .

قال : وكان أبوه يجالسنا فيخرج ذكره فنقول : ما هذا ويلك ؟ فيقول خرج منه قاض : وقال أبو البصير عهدى بإسحاق أبى عبد الرحمن بن إسحاق وكان يقال له أبو إسحاق الوضوئجى إلى الغسانى بن أبى السمراء ومعه فصوص النرد يلاعبهم ويصفعونه .

ذكر شخوص المأمون إلى الشام

لغزو الروم .

قال أحمد بن أبى طاهر : ولما دخلت سنة خمس عشرة ومائتين عزم المأمون على الشخوص إلى الثغر . فحدثنى محمد بن الهيثم بن عدى . قال : حدثنى إبراهيم ابن عيسى بن بريهة بن المنصور قال : لما أراد المأمون الشخوص إلى دمشق هيأت له كلاماً مكثت فيه يومين وبعض آخر . فلما مثلت بين يديه قلت : أطال الله بقاء أمير المؤمنين فى أدوم العز ، وأسبغ الكرامة ، وجعلنى من كل سوء فداه إن من أمسى وأصبح يتعرف من نعمة الله له الحمد كثيراً عليه برأى أمير المؤمنين أيده الله فيه وحسن تأنيسه له حقيق أن يستديم هذه النعمة ويلتمس الزيادة فيها بشكر الله وشكر أمير المؤمنين مد الله فى عمره عليها . وقد أحب أن يعلم أمير المؤمنين أعزه الله أنى لا أرغب بنفسى عن خدمته أيده الله شىء من الخفض والدعة إذ كان هو أيده الله يتجشم خشونة السفر ، ونصب الظعن ، وأولى الناس بمواساته فى ذلك ، وبذل نفسه فيه أنا لما عرفنى الله من رأيه ، وجعل عندى من طاعته ومعرفة ما أوجب الله من حقه فإن رأى أمير المؤمنين أكرمه الله أن يكرمنى بلزوم خدمته ، والكينونة معه فعل . فقال لى مبتدئاً من غير تروية : لم يعزم أمير المؤمنين فى ذلك على شىء وإن استصحب أحداً من أهل بيتك بدأ بك وكنت المقدم عنده فى ذلك ولا سيما إذ أنزلت نفسك بحيث أنزلك أمير المؤمنين من نفسه وإن

ترك ذلك فعن غير قلى لمكانك ولكن بالحاجة إليك . قال : فكان والله ابتداؤه أكثر من ترويتي .

قال : وخرج أمير المؤمنين من الشماسية إلى البردان يوم الخميس صلاة الظهر لست بقين من المحرم سنة خمس عشرة ومائتين وهو اليوم الرابع والعشرون من آذار ثم سار حتى أتى تكريت . وفيها قدم محمد بن على بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب من المدينة فى صفر ليلة الجمعة فخرج من بغداد حتى لقى أمير المؤمنين بتكريت فأجازه وأمره أن يدخل عليه امرأته ابنة أمير المؤمنين فأدخلت عليه فى دار أحمد بن يوسف التى على شاطىء دجلة فأقام بها . فلما كان أيام الحج خرج أهله وعياله حتى أتى مكة ثم أتى منزله بالمدينة فأقام به .

قال : ثم رحل المأمون عن تكريت وسار حتى أتى الموصل ثم سار من الموصل إلى نصيبين ، ثم سار من نصيبين إلى حران ، ثم سار من حران إلى الرها ، ثم سار إلى منبج ثم سار من منبج إلى دابق ، ثم سار إلى أنطاكية ، ثم سار حتى أتى المصيصة ثم خرج منها إلى طرطوس ، ثم رحل من طرطوس إلى أرض الروم للنصف من جمادى الأولى . ورحل العباس بن المأمون من ملطية فأقام أمير المؤمنين على حصن يقال له قرة حتى فتحه عنوة وأمر بهدمه ، وذلك يوم الأحد لأربع بقين من جمادى الأولى .

قال : وقرىء للمأمون فتح ببغداد من بلاد الروم يوم الجمعة لعشر خلون من رجب ، وجاء المأمون بعد ذلك فتح قرة من بلاد الروم لثلاث عشرة بقيت من رجب وزادت دجلة يوم الأربعاء لغرة ذى الحجة حتى صار الماء على ظهور بيوت الرحى من الصراة ، وذلك فى وقت لم يكن تزيد فيه هذه الزيادة ، وتقطعت لذلك الجسور بمدينة السلام ، وزاد بعد ذلك أكثر من تلك الزيادة ثم نقص . قال :

ولما فتح المأمون حصن قرة وغنم ما فيه اشترى السبي بستة وخمسين ألف دينار ، ثم خلى سبيلهم وأعطاهم ديناراً ديناراً ، وخرج ابنه العباس على درب الحدث فى شهر رمضان وغدر به منويل الرومى الذى قدم عليه بغداد ودخل معه أرض الروم . فلما خرج العباس وكان استخلفه فيما افتتح من الحصون . فلما خرج من عنده غدر به وأخرج من كان خلفه عنده من المسلمين وأخذ ما كان عنده من السلاح وصالح ملك الروم . فلما خرج أمير المؤمنين من أرض الروم أقام بطرسوس ثلاثة أيام ثم سار منها حتى نزل دمشق فلم يزل بها مقيما إلى أن انقضت سنة خمس عشرة ومائتين ، فلما كان فى سنة ست عشرة ومائتين ورد الخبر على أمير المؤمنين أن ملك الروم قتل قوماً من أهل طرطوس والمصيصة وهم فيما ذكروا نحو من ألف وستمائة رجل وكان رئيسهم رجل يقال له أبو عبد الله المروروذى فلما بلغ المأمون ذلك خرج حتى دخل أرض الروم يوم الاثنين لإحدى عشرة بقيت من جمادى الأولى سنة ست عشرة ومائتين فلم يزل مقيما فيها إلى النصف من شعبان وهو اليوم الرابع والعشرون من أيلول . وذكر أنه فتح نيفاً وعشرين حصناً عنوة وصلحاً سوى المطامير . وأنه أعتق كل شيخ كبير وعجوز . وفى هذه السنة وثب أهل مصر على عمال أبى إسحاق أخى أمير المؤمنين فقتلوا بعضهم ، وذلك فى شعبان ، فلما خرج المأمون من أرض الروم وأتى كيسوم وأقام يومين أو ثلاثة ثم ارتحل إلى دمشق ثم خرج أمير المؤمنين من دمشق يوم الأربعاء لأربع عشرة بقيت من ذى الحجة إلى مصر .

قال : وكتب إلى إسحاق بن إبراهيم المصعبى أن يأخذ الجند بالتكبير إذا صلوا ، وإنهم بدءوا بذلك فى مسجد المدينة ، والرصافة يوم الجمعة لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة ست عشرة ومائتين حين قضوا الصلاة فأقاموا قياماً وكبروا ثلاث تكبيرات ثم فعلوا ذلك فى كل صلاة مكتوبة وصلى فى المدينة

والرصافة ، وباب إسحاق بن إبراهيم ، وباب الجسر ، وخرج عبد الله بن عبيدالله ابن العباس بن محمد بن عبد الله بن العباس والياً على اليمن من دمشق إلى بغداد حتى صلى بالناس يوم الفطر ببغداد ، وصار والى كل بلد يدخله إلى أن يصل إلى اليمن ، وأمر أن يقيم للناس الحج ، فخرج من بغداد يوم الاثنين لليلة خلت من ذى القعدة .

أخبار المأمون بالشام

قال : حدثنى محمد بن على بن صالح السرخسى ، قال : تعرض رجل للمأمون بالشام مراراً فقال : يا أمير المؤمنين ، انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم خراسان قال : أكثرت على يا أخا أهل الشام ، والله ما أنزلت قيساً عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق فى بيت مالى درهم واحد ، وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبتنى قط ، وأما قضاعة فسادة حرمها أن تنتظر السفيانى وخروجه فتكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث الله جل وعز نبيه صلى الله عليه وسلم من مضر ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شاريا ، أعزب فعل الله بك ، فلما كان سنة سبع عشرة ومائتين رحل أمير المؤمنين من مصر ووافى دمشق يوم الخميس لعشر بقين من شهر ربيع الأول .

ذكر مقتل على بن هشام المروزى

قال أحمد بن أبى طاهر : دخل عجيف بن عنبسة بعلى بن هشام بغداد لثلاث بقين من شهر ربيع الأول ، وخرج به إلى عسكر المأمون لست خلون من شهر ربيع الآخر ، وقرىء فتح البيضاء من مصر لليلة بقيت من شهر ربيع الآخر ، وقتل على بن هشام ، وأخاه الحسين بن هشام فى جمادى الأولى للذى بلغه من

سوء سيرته وقتله الرجال ، وأخذه الأموال ، وكان أراد أن يفتك بعجيف بن عنبسة حيث توجه إليه ويذهب إلى بابك ، وكان الذى ضرب عنق على : ابن الخليل ، والذى تولى ضرب عنق الحسين : محمد بن يوسف ابن أخيه بإذنه يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى ، ثم بعث برأس على بن هشام إلى بغداد وخراسان ، فقدم ترك مولى أبى الحسين إسحاق بن إبراهيم برأس على ليلة الخميس لسبع بقين من جمادى الآخرة فطافوا به ثم ردوه إلى الشام والجزيرة فطاف به كورة كورة ، فقدم به دمشق فى ذى الحجة ثم ذهب به إلى مصر ، ثم ألقى بعد ذلك فى البحر .

قال أحمد بن أبى طاهر : فحدثنى حماد بن إسحاق ، قال : حدثنى ابن أبى سعد ، عن أبيه ، عن إسحاق بن يحيى ، قال : لما قتل المأمون على بن هشام وأتى برأسه ، قال ونحن وقوف على رأسه : هو والله ما ترون لا تخطىء يد أحدكم رجله إلا ألحقته به ، وقلد طاهر بن إبراهيم الجبال ومحاربة الخرمية فخرج والياً عليها لخمس بقين من شعبان .

قال أحمد بن أبى طاهر : ولما قتل المأمون على بن هشام أمر أن تكتب رقعة وتعلق على رأسه ليقرأها الناس فكتب :

أما بعد : فإن أمير المؤمنين كان قد دعا على بن هشام فيمن دعا من أهل خراسان أيام المخلوع لمعاونته على القيام بحقه ، فكان ابن هشام ممن أجاب أسرع الإجابة ، وعاون فأحسن المعاونة ، فرعى أمير المؤمنين ذلك واصطنعه وهو يظن به تقوى الله وطاعته والانتهاء إلى أمر أمير المؤمنين فى عمل إن أسند إليه ، وفى حسن السيرة وعفاف الطعمة ، وبدأه أمير المؤمنين بالإفضال عليه فولاه الأعمال السنية ، ووصله بالصلات الجزيلة التى أمر أمير المؤمنين بالنظر فى قدرها فوجدها

أكثر من خمسين ألف ألف درهم فمد يده إلى الخيانة والتضييع لما استرعاه من الأمانة فباعده عنه وأقصاه ، ثم استقال أمير المؤمنين عثرته فأقاله إياها وولاه الجبل ، وآذربيجان ، وكور أرمينية ، ومحاربة أعداء الله الخرمية على أن لا يعود لمثل ما كان منه ، فعاود أقبح ما كان بتقديمه الدينار والدرهم على العمل لله ودينه وأساء السيرة ، وعسف الرعية ، وسفك الدماء المحرمة ، فوجه أمير المؤمنين عجيف بن عنبسة مباشراً لأمره داعياً إلى تلافى ما كان منه فوثب بعجيف يريد قتله فقوى الله عجيفاً بنيته الصادقة فى طاعة أمير المؤمنين حتى دفعه عن نفسه ولو تم ما أراد بعجيف لكان فى ذلك ما لا يستدرك ولا يستقال ولكن الله إذا أراد أمراً كان مفعولا ، فلما أمضى أمير المؤمنين حكم الله فى على بن هشام رأى ألا يؤاخذ من خلفه بذنبه ، فأمر أن يجرى لولده ولعياله ، ولمن اتصل بهم ، ومن كان يجرى عليهم مثل الذى كان جاريا لهم فى حياته ، ولولا أن على بن هشام أراد العظمى من عجيف لكان من عداد من كان فى عسكره ممن خالف وخان كعيسى ابن منصور ونظرائه ، والسلام .

أخبار المأمون بدمشق

قال : حدثنى على بن الحسن بن هارون ، قال : حدثنى سعيد بن زياد ، قال : لما دخلت على المأمون بدمشق قال : أرنى الكتاب الذى كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم لكم ، قال : فأريته ، قال : فقال : إنى لأشتهى أن أدرى أى شىء هذا الغشاء الذى على هذا الخاتم ، قال : فقال له أبو إسحاق المعتصم : حل العقد حتى تدرى ما هو ، قال : فقال : ما أشك أن النبى صلى الله عليه وسلم عقد هذا العقد ، وما كنت لأحل عقداً عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال

للواثق : خذه فضعه على عينك لعل الله أن يشفيك ، قال : وجعل المأمون يضعه على عينه ويبكى .

قال أبو طالب الجعفرى : قال : أخبرنى العيشى صاحب إسحاق بن إبراهيم ، قال : كنت مع المأمون بدمشق ، قال : وكان قد قل المال عنده حتى ضاق وشكا ذلك إلى أبى إسحاق المعتصم ، فقال له : يا أمير المؤمنين كأنك بالمال قد وافاك بعد جمعة ، قال : وكان حمل إليه ثلاثين ألف ألف من خراج ما كان يتولاه له ، قال : فلما ورد عليه ذلك المال قال المأمون ليحيى بن أكثم : أخرج بنا ننظر إلى هذا المال ، قال : فخرجا حتى أصحرا ووقفا ينظرانه ، وكان قد هيء بأحسن هيئة ، وحليت أباعره وألبست الأحلاس الموشاة ، والجلال المصبغة ، وقلدت العهن ، وجعلت البدر بالحرير الصينى الأحمر ، والأخضر ، والأصفر وأبديت رؤوسها .

قال : فنظر المأمون إلى شىء حسن واستكثر ذلك فعظم فى عينه ، واستشرفه الناس ينظرون إليه ، ويعجبون منه ، قال : فقال المأمون ليحيى : يا أبا محمد ينصرف أصحابنا هؤلاء الذين تراهم الساعة إلى منازلهم خائبين ، وننصرف نحن بهذه الأموال قد ملكناها دونهم إنا إذاً للئام ، ثم دعا محمد بن يزداد فقال : وقع لآل فلان بألف ألف ، ولآل فلان بمثلها ، قال : فوالله إن زال كذلك حتى فرق أربعة وعشرين ألف ألف ورجله فى الركاب ثم قال : ادفع الباقى إلى المعلى يعطى جندنا ، قال : فقال العيشى : فجئت حتى قمت نصب عينه فلم أرد طرفى عنها لا يلحظنى إلا يرانى بتلك الحال فقال : يا أبا محمد وقع لهذا بخمسين ألف درهم من الستة الآلاف الألف لا يختلس ناظرى ، قال : فلم يأت على ليلتان حتى أخذت المال .

قال محمد بن أيوب بن جعفر بن سليمان : كان بالبصرة رجل من بنى تميم ، وكان شاعراً ظريفاً، خبيثاً ، منكراً ، وكنت وأنا والى البصرة آنس به وأستحليه فأردت أن أخدعه فقلت : يا أبا نزلة أنت شاعر وأنت ظريف ، والمأمون أجود من السحاب الحافل ، والريح العاصف فما يمنعك ؟ قال : ما عندى ما يقلنى ، قلت : فأنا أعطيك نجيباً فارهاً ونفقة سابغة وتخرج إليه وقد امتدحته ، فإنك إن حظيت بلقائه صرت إلى أمنيتك ، قال : والله أيها الأمير ما أخالك أبعدت فأعد لى ما ذكرت .

قال : فدعوت له بنجيب فاره فقلت : شأنك به فامتطه ، قال : هذا أحد الحسنيين ، فما بال الأخرى ، فدعوت له بثلاثمائة درهم وقلت : هذه نفقتك ، قال : أحسبك أيها الأمير قصرت فى النفقة ؟ قلت : لا هى كافية وإن قصرت عن السرف ، قال : ومتى رأيت فى أكابر سعد سرفا حتى تراه فى أصاغرها ، فأخذ النجيب والنفقة ثم عمل أرجوزة ليست بالطويلة فأنشدنيها وحذف منها ذكرى والثناء على وكان مارداً ، فقلت له : ما صنعت شيئاً ، قال : وكيف ؟ قلت : تأتى الخليفة ولا تثنى على أميرك ولا تذكره ؟ قال : أيها الأمير أردت أن تخدعنى فوجدتنى خداعاً ، وبمثلنا ضرب هذا المثل : « من ينك العير ينك نيا كاً » ، أما والله ما لكرامتى حملتنى على نجيبك ، ولا جدت بمالك الذى ما رامه أحد قط إلا جعل الله خده الأسفل ، ولكن لأذكرك فى شعرى وأمدحك عند الخليفة ، قال : هذا ، قلت : أما فى هذا فقد صدقت ، فقال : أما إذا أبديت ما فى ضميرك فقد ذكرتك وأثنيت عليك ، فقلت : أنشدنى ما قلت فأنشدنى ، فقلت : أحسنت .

قال : ثم ودعنى وخرج ، قال : فأتى الشام وإذا المأمون بسلغوس ،

قال فأخبرنى قال : بينا أنا فى غزاة قرة قد ركبت نجيبى ذلك ، ولبست مقطعاتى وأنا أروم العسكر ، فإذا أنا بكهل على بغل فاره ما يقر قراره ، ولا يدرك خطاه . قال : فتلقانى مكافحة ومواجهة وأنا أردد نشيد أرجوزتى فقال : سلام عليكم ، بكلام جهورى ، ولسان بسيط . فقلت : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، فقال : قف إن شئت . فوقفت ، فضوعت منه رائحة العنبر والمسك الأذفر ، قال : ما أولك ؟ قلت ، رجل من مضر ، قال : ونحن من مضر ، ثم ماذا ؟ قلت : رجل من بنى تميم . قال : ومن بعد تميم ؟ قلت : من بنى سعد . قال : هيه ، فما أقدمك هذا البلد ؟ قلت : قصدت هذا الملك الذى ما سمعت بمثله أندى راحة ، ولا أوسع باحة ، ولا أطول باعاً ، ولا أمد يفاعاً . قال : فما الذى قصدته به ؟ قلت : شعر طيب يلذ على الأفواه ، وتقتفيه الرواة ، ويحلو فى آذان المستمعين . قال : فأنشدنيه ، فغضبت وقلت : يا ركيك أخبرتك أنى قصدت الخليفة بشعر قلته ، ومديح حبرته تقول أنشدنيه ؟ ! قال: فتغافل والله عنها وتطأمن لها ، وألغى جوابها . قال : وما الذى تأمل فيه ؟ قلت : إن كان على ما ذكر لى عنه فألف دينار ، قال : فأنا أعطيك الف دينار إن رأيت الشعر جيداً والكلام عذبا ، وأضع عنك العناء وطول الترداد ، ومتى تصل إلى الخليفة وبينك وبينه عشرة آلاف رامح ونابل ؟ قلت : فلى الله عليك أن تفعل ؟ قال : لك الله علىّ أن أفعل . قلت : ومعك الساعة مال ؟ قال : هذا بغلى وهو خير من الف دينار ، أنزل لك عن ظهره . فغضبت أيضاً ؛ وعارضنى مرد سعد وخفة أحلامها فقلت : ما يساوى هذا البغل هذا النجيب ، قال : فدع عنك البغل ولك الله أن أعطيك الساعة الف دينار ، فأنشدته :

مَأْمُونُ يَاَ ذا المـــنن الشَّرِيفه
وصَاحِب المَرْتَبـــة المُنيفَه

وقائدَ الكَتِيبَة الكثيفه
هل لكَ فى أرْجُوزَةٍ ظَرِيفه
أظرَفَ مِنْ فِقهِ أبى حَنِيفه
لا والذى أنتَ له خَلِيفَه
ما ظُلِمَتْ فى أرْضِنا ضَعِيفه
أمِيرُنا مُؤْنَتُهُ خَفِيفه
وَما اجْتَبَى شيئاً سِوَى الوَظِيفه
فالذِّئْبُ وَالنَّعجَةُ فى سَقِيفَه
واللصُّ والتَّاجرُ فى قَطِيفَة

قال : فوالله ما عدا أن أنشدته فإذا زهاء عشرة آلاف فارس قد سدوا الأفق يقولون : السلام عليك أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، السلام عليك أمير المؤمنين .

قال : فأخذنى أفكل ، ونظر إلى بتلك الحال ، فقال : لا بأس عليك أى أخى قلت : يا أمير المؤمنين ، جعلنى الله فداك ، أتعرف لغات العرب ؟ قال : أى لعمر الله ، قلت : فمن جعل الكاف منهم مكان القاف ؟ قال : هذه حمير ، قلت : لعنها الله ولعن الله من استعمل هذه اللغة بعد هذا اليوم . فضحك المأمون وعلم ما أردت والتفت إلى خادم إلى جانبه فقال : أعطه ما معك . فأخرج إلى كيساً فيه ثلاثة آلاف دينار ، ثم قال : هاك ، ثم قال سلام عليكم ومضى فكان آخر العهد به .

قال : ولما صار المأمون إلى دمشق ذكر له أبو مسهر الدمشقى ووصف له علمه ، فوجه إليه من جاء به فامتحنه فى القرآن فأجابه وأقر بخلقه . فقال له المأمون ياشيخ

أخبرني عن النبي صلى الله عليه وسلم اختتن ؟ قال : لا أدرى ، وما سمعت في هذا شيئاً . قال : فأخبرني عنه أكان يُشْهد إذا تزوج أو زوج ؟ قال : لا أدرى ، قال اخرج قبح الله من قلّدك دينه .

قال : حدثني مخارق قال : كنا عند المأمون أنا والمغنون بدمشق وعَرِيب معنا فقال : غنى يا مخارق ، فقلت : أنا محموم ، فقال : يا عريب جسيه . فرفعت يدها إلى عضدى . فقال لها المأمون : قد اشتهيته ، تحبين أن أزوجك . قالت : نعم ، فقال : من تريدين ؟ قالت : هذا ، وأومت إلى محمد بن حامد فقالت : هذا ، فقال اشهدوا أنى قد زوجتها الزانية منه ، ثم قال له : كشحتك أحب إلى من أن تكشحني ، خذ بيدها ، فأخذ بيدها وقامت من المجلس إلى مضربه . فلما ولى المعتصم كتب إلى إسحاق بن إبراهيم : أن مر محمد بن حامد أن يطلق عريب فأمره فتأبى ، فكتب إليه أن اضربه ، فضربه بالمقارع حتى طلقها .

حدثني أبو موسى هارون بن محمد بن اسماعيل بن موسى الهادى ، قال : حدثني على بن صالح ، قال : قال لى المأمون يوماً : أبغى رجلا من أهل الشام له أدب ، يجالسني ويحدثني ، فالتمست ذاك فوجدته ، فدعوت بالشامي فقلت له : إنى مدخلك على أمير المؤمنين فلا تسأله عن شيء أبداً حتى يبتدئك ، فإنى أعرف الناس بمسألتكم يا أهل الشام ، فقال : ما كنت متجاوزاً لما أمرتني . فدخلت على المأمون فقلت : قد أصبت الرجل ، فقال : أدخله ، فدخل فسلم ثم استدناه ، وكان المأمون على شغله من الشراب فقال : إنى أردتك لمجالستي ومحادثتي . فقال الشامي : يا أمير المؤمنين ، إن الجليس إذا كانت ثيابه دون ثياب جليسه دخله لذلك غضاضة قال : فأمر المأمون أن يخلعَ عليه ؛ قال على : فدخلني من ذلك ما الله به عليم ، فلما خلع عليه ورجع إلى مجلسه قال : يا أمير المؤمنين ، إن قلبي إذا كان معلقاً بعيالى لم تنتفع بمحادثتي ، قال : خمسين الف درهم تحمل إلى منزله . ثم

قال : يا أمير المؤمنين ، وثالثة ، قال : وما هي ؟ قال : قد دعوت بشيء يحول بين المرء وعقله ، فإن كانت مني هنة تغتفرها . قال : وذاك . قال علي : فكأن الثالثة جلت عني ما كان بي .

حدثني أبو حشيشة محمد بن علي بن أمية بن عمرو قال : أول من سمعني من الخلفاء المأمون وأنا غلام وهو بدمشق ، وصفني له مخارق فأمر لي بخمسة آلاف درهم أتجهز بها ، فلما وصلت إليه أعجب بي وأكرمني ، وقال للمعتصم : يا أبا إسحاق ابن خدمك ، وخدم آبائك وأجدادك وكتّابهم ، حج جدك المهدي أربع حجج فكان أمية جد هذا زميله فيها ، وكان كاتبه على السر ، والخاتم ، وبيت المال ، وكان يشتهي من غنائي :

كانَ يَنهَى فَنهى حينَ انتهى وانجلَتْ عنهُ غَياباتُ الصِّبَا
خَلَعَ اللَّهْوَ وأضحَى مُسْبِلاً للنُّهى فضلَ قميصٍ وَرِدَا
كيفَ يَرْجُو البيضُ من أوّله في عُيُونِ البيضِ شيبٌ وجلا
كانَ كُحْلاً لِماقيها فقدْ صارَ بالشيبِ لَعينيها قذَا

الشعر لدعبل سمعته من دعبل ، والغناء لحمدان بن حسين بن محرز . قال : وكان المأمون أيضاً يشتهي من غنائي :

ويزيدني وَكَلاً عليه وحُرْقةً عذلُ النصيحِ وعَتْبُهُ من عاتب

الشعر لعبد الله بن أمية عمي والغناء لي .

قال : وكنا قدام أمير المؤمنين بدمشق فتغنى علويه :

بَرِئْتُ من الإسلام إن كان ذا الذي أتاكَ بهِ الواشُونَ عنّي كما قالوا
لكنهم لمّا رأوكَ سريعةً إليّ تَواصَوا بالنميمةِ وَاحتالُوا

فقال : يا علويه ، لمن هذا الشعر ؟ فقال : للقاضي ، فقال ، أي قاض ويحك ! !

قال : قاضى دمشق ، فقال : يا أبا إسحاق اعزله ، قال : قد عزلته ، قال : فليحضر الساعة ، فأحضر شيخ مخضوب قصير ، فقال له المأمون : من تكون ؟ قال : فلان بن فلان الفلانى ، قال : تقول الشعر ؟ قال : كنت أقوله ، فقال : يا علويه ، أنشده الشعر ، فأنشده ، فقال : هذا الشعر لك ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، ونساؤه طوالق وكل ما يملك فى سبيل الله إن كان قال الشعر من ثلاثين سنة إلا فى زهد أو معاتبة صديق . فقال : يا أبا إسحاق اعزله ، فما كنت أولى رقاب المسلمين من يبدأ فى هزله بالبراءة من الإسلام ؛ ثم قال : اسقوه ، فأتى بقدح فيه شراب فأخذه وهو يرتعد ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما ذقته قط ، قال : فلعلك تريد غيره ؟ قال : لم أذق منه شيئاً قط ، قال : فحرام هو ؟ قال : نعم ، يا أمير المؤمنين ، فقال : أولى لك بها نجوت ، اخرج . ثم قال : يا علويه ، لا تقل برئت من الإسلام ولكن قل :

حُرِمْتُ مُنَاىَ مِنْكَ إن كان ذا الذى أتاك به الواشون عنى كما قالُوا

قال : كنا مع المأمون بدمشق فركب يريد جبل الثلج فمر ببركة عظيمة من برك بنى أمية وعلى جانبها أربع سروات وكان الماء يدخلها سيحاً ويخرج منها فاستحسن المأمون الموضع فدعا ببزماورد ورطل وذكر بنى أمية فوضع منهم وتنقصهم ، فأقبل علويه على العود واندفع فغنى :

أولئك قومى بعد عزّ وثروةٍ تفانوا فألاّ أذرف الدمْع أكمدا

فضرب المأمون الطعام برجله ، ووثب وقال لعلويه : يا ابن الفاعلة لم يكن لك وقت تذكر فيه مواليك إلا فى هذا الوقت . فقال : مولاكم زرياب عند موالى يركب فى مائة غلام وأنا عندكم أموت من الجوع ، فغضب عليه عشرين يوماً ثم رضى عنه . قال : زرياب مولى المهدى صار إلى الشام ثم صار إلى المغرب إلى بنى أمية هناك .

قال احمد بن أبى طاهر : وكتب ملك الروم إلى المأمون : أمّا بعد ، فإن اجتماع المختلفين على حظهما أولى بهما فى الرأى مما عاد بالضرر عليهما ، ولست حرياً أن تدع لحظ يصل إلى غيرك حظاً تحوز به لنفسك وفى علمك كاف عن إخبارك ، وقد كنت كتبت إليك داعياً إلى المسالمة ، راغباً فى فضيلة المهادنة لتضع أوزار الحرب عنا ويكون كل لكل ولياً وحزباً ، مع اتصال المرافق ، والفسح فى المتاجر ، وفك المستأسر ، وأمن الطرق والبيضة فإن أبيت فلا أدب لك فى الخمر ولا أزخرف لك فى القول، فإنى لخائض إليك غمارها .آخذ عليك أسدادها شأن خيلها ورجالها ، وإن أفعل فبعد أن قدمت المعذرة ، وأقمت بينى وبينك علم الحجة والسلام » .

قال : فكتب إليه المأمون . أما بعد : « فقد بلغنى كتابك فيما سألت من الهدنة ودعوت إليه من الموادعة ، وخلطت فيه من حال اللين بالشدة مما استعطفت به من سرح المتاجر ، واتصال المرافق ، وفك الأسارى ، ورفع القيل والقال ، فلولا ما رجعنا إليه من إعمال التؤدة ، والأخذ بالحظ من تقليب الفكرة ، وألا أعتقد الرأى عن مستقبله ، إلا عن اصطلاح ما أوثره فى متعقبه لجعلت جواب كتابك خيلا تحمل رجالا من أهل البأس والنجدة والجد والنصر ، يقارعونكم عن ثكالكم ويتقربون إلى الله جل وعز بدمائكم ، ويستقلون فى ذات الله ما نالهم من ألم شركم ، ثم أوصل إليهم من الأمداد وأبلغ لهم كافياً من العدة والعتاد ، هم أظمأ إلى موارد المنايا منكم إلى السلامة من مخوف معرتهم عليكم موعدهم : « إحدى الحسنيين[١] » عاجل غلبة ، أو كريم منقلب غير أنى رأيت أن أتقدم إليك الموعظة إلى أن يثبت الله عز وجل بها عليك الحجة من الدعاء لك ولمن معك إلى الوحدانية ، والدخول فى شريعة الحنيفية : فإن أبيت ففدية توجب ذمة وتثبت نظرة ، وإن تركت ذلك ففى يقين المعاينة لمعاونتنا ما يغنى عن الإبلاغ فى القول ، والإغراق فى الصفة والسلام على من اتبع الهدى » .

---

(١) سورة التوبة ٥٢

أخبار الشعراء فى أيام المأمون

ومن وفد عليه منهم، وذكر ما امتدح به من الشعر

حدثنى أبو بكر محمد بن عبد الله بن آدم بن ثابت بن جشم العبدى : قال : حدثنا عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير . قال : وفدت إلى المأمون مقدمه من خراسان فأوصلنى إليه على بن هشام وكان نزولى عليه فأنشدته ، وأجازنى ، وملأ يدى وكان على لى مؤثراً ، محباً ، وكان يجرى على فى كل يوم ما يقيمنى ويقيم أضيافى . قال : فمازحنى يوما . وقال لى وقد أنشدته مدحًا فيه ها هنا من هو أقرب لك منى رجلان قلت : من هما ؟ قال : خالدبن يزيد بن مزيد ، وتميم بن خزيمة بن خازم فقلت له : والله ما أتيت واحداً منهما ولا عرفته . قال : فأنا أبعث معك من يقف بك عليهما ، فبعث معى رجلا من أصحابه فعرفنى منزلهما . فبدأت بتميم فتقدمت إلى بابه . فقلت : أعلموه أن بالباب عمارة بن عقيل . قال : فتراخى عنى الحجبة وقيل لى إنه أرسل إليه بعض غلمانه فأخبروه فقال : تغافلوا عنه . فقال للرسول الذى كان معه دلنى على منزل خالد . قال : فمضى معى فلما وقفت بالباب أخبر خالد بمكانى فخرج إلىّ نفسه فقال : أيهم هو ؟ فأومأ إلى فدنا منى . قال : وأراد عمارة أن ينزل فأمسكه خالد واعتنقه ومسح وجهه وأنزله وأدخله ودعا بالطعام والشراب ثم قال لى : يا أبا عقيل ما آكل إلا بالدين فاعذرنى وهذه خمسة أثواب خز خذها إليك ولا تخدع عنها فإنها قد قامت على بمال ، وهذه ألف درهم خذها إلى أن يوسع الله على ، فخرج عمارة وهو يقول :

أأترُكُ إنْ قلّتْ دَراهمُ خالدٍ ... زيارَتَه إنّى إذًا للئيمُ
فليْتَ بثَوْبَيْه لنا كانَ خالدٌ ... وكانَ لبكْرٍ بالثراء تميمُ
فيُصبحَ فينا سابقٌ مُتمهِّلٌ ... ويُصبحَ فى بكْرٍ أغمُّ بَهيمُ

وَقَدْ يُسْلِعُ المرْءُ اللَّئيم اصْطناعَهُ وَيَعْتَلُّ نَقْدُ المرء وَهْوَ كريمُ

قال فشاع شعر عمارة فى الناس وبلغ تميم بن خزيمة فركب إلى أشراف بنى تميم فقال : انظروا ما قد فعل بى عمارة وفضل خالداً على وقتلنى المعنى الذى جاء به فى قوله :

فَليتَ بثوبَيْه لنا كَان خالدٌ وكَان لبكرٍ بالثَّراء تميمُ

قال : فاجتمعت بنو تميم إلى عمارة فقالوا قطع الله رحمك تجىء إلى غلام من ربيعة فتتمنى أن يكون فى قومك مثله ، وترغب عن تميم وأبوه خزيمة بن خازم من سادة العرب وصاحب دعوة بنى العباس وأسمعوه فقال :

أَصَنُّوا بما قَدَّمتُ شَيْبَانَ وائلٍ بطرفِهمُ علَى أَصَنَّ وارغَبُ
أأَنْ سُمْتُ بِرْذَوْنًا بَطارف غَضِبْتُم علَى وَمَا فى السُّوق والسَّوْم مُغْضبُ
وَفى الخَيل وَهْىَ الخيلُ تُنْسَبُ كلُّها مُكدٌّ وَجَيَّاشُ الأجارى مُشْهبُ
وَمَا يَسْتَوى البرْذَوْنُ ضَلَّتْ حُلومُكم وَلاَ السَّابقُ الطِّرْفُ الجوَادُ المجرَّبُ
فَإنْ أَصْرمتْ أَوْ أَنجبَتْ أُمُّ خالدٍ فَحصرُ الزِّنَاد هُنَّ أوْرَى وَأَثْقَبُ

قال : فلقى عمارة ابناً لمروان بن أبى حفصة وكان بلغه أنه هجا خالداً لينتصر لتميم فى الطريق فقيل له هذا ابن أبى حفصة فقال له :

فَعِرْضُكَ لاَ يُوفى كَرِيمًا بعِرْضه فَهلْ يُوفِين منكَ الجزَازَ الُمصَمَّمُ

كَأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ فَوارسَ وَائلٍ   إِذَا أَسْرَجُوا للحَرْبِ يَوْمًا وَأَلْجَمُوا

قال : ولقى خالداً عمارة فقال له : ابن خزيمة بينى وبينك أو سوأته أن يكون فى قومى مثل تميم وفى قومك مثلى . قال : اخترت بنفسى عافاك الله فلا تلمنى على الاختيار وكأن خالداً وجد من ذلك . قال : وبلغ المأمون خبرهما فأرسل إلى خالد بمال وقال : مثلك من العرب فليصن عرضه لا من يذله بخلا ولؤمًا .

حدثنى أبو على السليطى من بنى سليط حى من بنى تميم قال حدثنى عمارة بن عقيل . قال : أنشدت المأمون قصيدة فيها مديح له فيها مائة بيت . فابتدأت بصدر البيت فبادرنى إلى قافيته فقلت : والله يا أمير المؤمنين ما سمعها منى أحد قط قال هكذا ينبغى أن يكون ، ثم أقبل على فقال : أما بلغك أن عمر بن أبى ربيعة أنشد عبد الله بن عباس قصيدته التى يقول فيها :

* تَشُطُّ غَدًا دَارُ جيرَاننا *

فقال ابن عباس :

* وللدَّارُ بَعْدَ غَدٍ أَبْعَدُ *

حتى أنشده القصيدة يقفيها ابن عباس . ثم قال : أنا ابن ذاك .

حدثنى أبو القاسم خليفة بن جروة قال : سمعت أبا مروان كارز بن هارون يقول : قال المأمون :

بعثتُكَ مُشْتَاقًا فَفُزْتَ بنظرة   وَأَغْفَلْتَنى حَتَّى أَسَأْتُ بكَ الظَّنَّا

فَنَاجَيْتُ مَنْ أَهْوَى وكُنْتُ مُباعداً

فَيَالَيْتَ شعرى عَنْ دُنُوكَ مَا أَغْنَا

أَرَى أَثَراً منْهُ بعَيْنَيْكَ بَيِّنًا

لَقَد أَخَذَتْ عَيْنَاكَ منْ عَيْنِه حُسْنَا

قال أبو مروان : وإنما عول المأمون فى هذا المعنى على قول العباس بن الأحنف حيث يقول :

إنْ تَشْقَ عَيْنِى بهَا فَقَدْ سَعدتْ عَيْنُ رَسُولى وَفُزْتُ بالخَبَر
وَكُلمَا جاءنى الرَّسُولُ لَهَا رَدَدْتُ عَمْداً فى طَرْفه نَظَرى
يَظْهَرُ فى وَجْهه مَحاسنُهَا قَدْ أثَّرَتْ فيه أحْسَنَ الأثَر
خُذْ مُقْلَتَىْ يَا رَسُولُ عَارِيَةً فَانظُرْ بهَا واحْتَكم عَلَى بَصَرى

قال . وأخبرنى موسى بن عبيد الله التميمى . قال : تذاكروا الشطرنج عند المأمون فتذاكروا قول خالد القناص فيها حيث يقول :

أرادَ بلاَ ذَحْلٍ أخٌ لى يَوَدُّنى وَيُعْظمُ حَقّى دُونَ كُلِّ وَدُود
مُحارَبَتى لَمْ يَأْلُ أنْ بَثَّ خَيْلَهُ وَأَلْقَحَ حَرْباً شَبَّهَا بوَقُود
فَأمحكنى والحَرْبُ أمَّا بَديُّهَا إذا وَرَدَ الأبطَالُ خَيرَ وَرُود
فَأحْسَنُ من عَذْرَاء مَيَّاسَة الخُطَى رَخيمَة دَلٍّ للرِّجَال صَيُود
وآخرُها شَمْطَاء كالغُول فُخمَةٌ شَبيهُهُ عرْنين بأمٍّ قُرُود

وقال آخر :

وَجيْشٌ فى الوَغَى بإزاء جَيْشٍ لَهُام جحْفَلٍ لجبٍ خَميس
يواقفُ بالمخـــائف ما يُبَالى بسَعْدٍ طَيْره أمْ بالنُّحُوس
تَرَاهُمُ يَبْذلُونَ لمـــدْرَهيهمْ إذَا حَمى الوغَى مُهَجَ النُّفوس
نُفُوسٌ لَيْسَ يَنْفَعُهَا نَعيمٌ وَلَيْسَ يَضُرُّهَا إعْدَامُ بُؤْس
وَلَيسوا باليَهُود ولا النَّصارى ولا العَرَب الصَّليب ولاَ المَجُوس

وقال آخر :

وَخيْل قَدْ جَعلتُ إزَاءَ خَيْل تُسَاقى بَيْنَهَا كَأسَ الذُّبَاح

بَمَيْمَنَةٍ وَمَيْسَرةٍ وَقَلْبٍ كَتَعْبِية الكتائب للنِّطَاح
لغير عداوةٍ كانَتْ قديماً ولكنْ للتلذُّذ والمراح

قال المأمون : ولكنى قلت فيها :

أرضٌ مُرَبَّعَةٌ حَمْراء من أدمٍ ما بَيْنَ إلفَيْن مَعْروفَين بالكرم
تَذاكرا الحَرْبَ فاحْتالا لها فطناً بغَيْرِ أن يأثما فيها بسفك دم
هٰذا يُغيرُ على هٰذا وَذاكَ على هٰذا يُغيرُ وَعَيْنُ الحَزْم لم تَنَم
فانظُرْ إلى فطن جالَتْ بمعْرِفَةٍ فى عَسْكَرَيْن بلا طَبْل وَلا عَلَم

قال أبو العتاهية : وجه إلىّ المأمون أمير المؤمنين يوماً فصرت إليه فألفيته مطرقاً مفكراً ، فأحجمت عن الدنو منه فى تلك الحال ، فرفع رأسه فنظر إلى وأشار بيده أن أدن فدنوت ، ثم أطرق ملياً ورفع رأسه ، فقال : يا أبا إسحاق شأن النفس الملل وحب الاستطراف ، تأنس بالوحدة كما تأنس بالألفة ، قلت : أجل يا أمير المؤمنين ولى فى هذا بيت ، قال : وما هو ؟ قلت :

لا يُصْلحُ النَّفْسَ إذْ كانَتْ مُقَسَّمَةً
إلاَّ التَّنقُّلُ منْ حالٍ إلى حال

حدثنى أبو نزار الضرير الشاعر قال : قال لى على بن جبلة : قلت لحميد بن عبد الحميد : يا أبا غانم إنى قد امتدحت أمير المؤمنين المأمون بمديح لا يحسن مثله أحد من أهل الأرض فاذكرنى له ، فقال : أنشدنيه ، فأنشدته فقال : أشهد أنك صادق وأخذ المديح فأدخله على المأمون ، فقال : يا أبا غانم ، الجواب فى هذا واضح إن شاء عفونا عنه وجعلنا ذلك ثواباً لمديحه لنا ، وإن شاء جمعنا بين شعره فيك وفى أبى دلف ، فإن كان الذى قال فيك وفيه أجود من الذى مدحنا به ضربنا ظهره ، وأطلنا حبسه ، وإن كان الذى قال فينا أجود أعطيناه بكل بيت من

مديحه ألف درهم ، وإن شاء أقلناه ، فقلت : يا سيدى ومن أبو دلف ومن أنا حتى يمدحنا بأجود من مديحك ؟ فقال : ليس هذا الكلام من الجواب عن المسألة فى أى شىء فاعرض ذلك على الرجل ، قال على بن جبلة : قال لى حميد : ما ترى ؟ قلت : الإقالة أحب إلى ، فأخبر المأمون فقال هو أعلم ، قال حميد : قلت لعلى : إلى شىء ذهب فى مدحك أبا دلف وفى مدحك لى ؟ فقال إلى قولى فى أبى دلف :

إنَّمَا الدُّنْيَـــا أبُو دُلَفٍ بَيْنَ مَغْـــزاهُ وَمُحْتَضَره
فإذَا وَلَّى أبُو دُلَفٍ وَلَّتِ الدُّنْيَا عَلَى أثَرِه

وإلى قولى فيك :

لَوْلاَ حُمَيْــدٌ لَمْ يَكُنْ حَسَبٌ يُعَـدُّ ولاَ نَسَبْ
يا وَاحِــدَ العَرَبِ الذى عَزَّتْ بعزَّته العَـــرَبْ

قال : فأطرق حميد ساعة ثم قال : يا أبا الحسن لقد انتقد عليك أمير المؤمنين المـأمون وأمر لى بعشرة آلاف درهم وحملان وخلعة وخادم ، وبلغ ذلك أبا دلف فأضعف لى العطية ، وكان ذلك منهما فى ستر لم يعلم به أحد إلى أن حدثتك يا أبا نزار بهذا ، قال أبو نزار : وظننت أن المأمون تفقد عليه هذا البيت فى أبى دلف :

تحدَّرَ ماءُ الْجُودِ منْ صُلْبِ آدم فأنْبَتَه الرَّحمانُ فى صُلْبِ قاسمْ

أخبرنى سليمان بن رزين الخزاعى ابن أخى دعبـل قال : هجـا دعبل المأمون فقال :

وَيَسومنى المَـأْمُون خطَّةَ عارف أوَمَا رَأى بالأمْس رَأْسَ مُحَمَّدِ
يُوفى عَلَى هام الخلائف مثل ما تُوفى الجبالُ على رُؤوس القَرْدَدِ
ويَحلُّ فى أكْناف كلِّ مُمنَّع حَتَّى يُذَلِّل شاهقاً لَمْ يُصْعَدِ

إن التِّرات مُسَهَّدٌ طُلاَّبُها فا كْفُفْ لُعَابَكَ عن لُعاب الأسْوَد

فقيل للمأمون : إن دعبلا قد هجاك ، فقال : هو يهجو أبا عباد لا يهجونى ، يريد حدة أبى عباد ، وكان أبو عباد إذا دخل على المأمون كثيراً ما يضحك المأمون ويقول له : ما أراد دعبل منك حيث يقول :

وَكأنَّهُ مِنْ دير هِرْقَلَ مُفْلتٌ حَرِدٌ يَجرُّ سلاَسِلَ الأقْيَاد

وكان المأمون يقول لإبراهيم بن شكلة إذا دخل عليه : لقد أوجعك دعبل حيث يقول :

إنْ كَانَ إبراهيمُ مُضْطَلعاً بها فَلَتَصْلُحَنْ مِنْ بَعْده لمخارق
وَلَتَصْلُحَنْ مِنْ بَعْدَ ذَاكَ لزلزلٍ وَلَتَصْلُحَنْ مِنْ بَعْدهِ لِلمارق
أنَّى يَكُونُ ولاَ يَكُونُ ولم يَكنْ لينالَ ذَلكَ فاسقٌ عَنْ فاسق

حدثنى محمد بن الحسن بن حفص المخرمى أن أعرابياً دخل على الحسن بن سهل فامتدحه ، فلما فرغ قال له : احتكم ، قال : وهو يظن أن الأعرابى همته همة صغيرة فقال : ألف ناقة ، فوجم لها الحسن ولم يكن فى سعة يومئذ ، وكره أن يفتضح فأجال الفكر فقال : يا أعرابى ، ليس بلادنا بلاد إبل ، ولكن ما قال امرؤ القيس:

إذَا لَمْ تَكُنْ إبلٌ فَمعزَى كَأنَّ قُرونَ جلتها العصىُّ

قد أمرت لك بألف شاة فالق يحيى بن خاقان ، قال : فلقى يحيى فأعطاه لكل شاة دينار فأخذ ألف دينار .

قال : وكان المأمون يبعث إلى أم جعفر فى كل سنة من ضرب السنة مال دنانير ودراهم فكانت تصل أبا العتاهية منها ، فجاء أبو العتاهية إلى مسلم بن سعدان كاتب أم جعفر وأنا قاعد أكتب بين يديه فأعطاه رقعة وسأله أن يدفعها إلىَّ

لأوصلها إلى أم جعفر وأنا غلام فأخذت الرقعة فأدخلتها إلى أم جعفر فقرأتها فإذا فيها :

زَعَمُوا لي أنَّ منْ ضَرْب السنه   جُدُداً بيضاً وَصُفْراً حَسَنَه

سككاً قَدْ أحدثَتْ لَمْ أرَهَا   مثلَ ما كُنْتُ أرَى كلَّ سَنَه

وكان صرد الخادم يتولى تفرقة صلة المأمون لها من هذه الدراهم والدنانير الجدد ، فأمرت بإحضار صرد فقالت له : لِمَ لَمْ تعط الجرار صلته من الدنانير والدراهم ؟ فقال : لم تبلغه النوبة ، قالت : فعجلها له ، فأعطانى مائة دينار وألفى درهم ، خرجت بهما فى صرتين حتى دفعتها إلى مسلم بن سعدان فدفعها إليه .

حدثنى أبو الشماخ قال : قال المأمون وعنده الزيدى ، والثقفى مولى الخيزران وإسماعيل بن نوبخت ، وتذاكروا الشعراء فقالوا : النابغة ، وقالوا : الأعشى ، وخاضوا فيهم ، فقال لا ، أشعرهم إلا واحداً كان خليعا الحسن بن هانى ، فقالوا : صدق أمير المؤمنين ، قال : الصدق على المناظرة أحسن من الصدق على الهيبة ، فقالوا : فيما قدمته ؟ قال بقوله :

يا شَقيقَ النَّفس من حكم   نمتْ عَنْ لَيْلَى ولَمْ أنَم

ثم قال : لم يسبقه إلى هذا البيت أحد :

ثم دَبَّتْ فى عُروقهم   كدَبيب البُرْء فى السَّقم

قال أبو الشماخ : كان المأمون منحرفا عن أبى نواس لميله إلى محمد ، أخبرنى موسى بن عبيد الله التميمى أن منصور النمرى ، والحسن بن هانىء وأبا العتاهية وأبا زغبة ، قال أبو زغبة شامى ، قيسى ، اجتمعوا فتذاكروا أبياتاً على وزن واحد ففضل أبو العتاهية عليهم فقال النمرى :

أُعَيْرُ كَيْفَ بِحَاجَـةٍ طَلَبَتْ إِلَى صُمِّ الصُّخُورِ
لِلَّهِ دَرُّ عِـدَتِكُمْ كَيْفَ انْتَسَبْنَ إِلَى الْغُرُورِ
وَلَقَـدْ تَبِيتُ أَنَامِـلِى يَجْنِينَ رُمَّانَ النُّحُـورِ

وقال أبو العتاهية :

لَهْفِى عَلَى الزَّمَنِ الْقَصِـيرِ بَيْنَ الْخَوَرْنَقِ وَالسَّـدِيرِ
إِذْ نَحْنُ فِى غُـرَفِ الْجِنَـانِ نَعُومُ فِى بَحْرِ السُّرُورِ

وقال الحسن بن هانيء :

وَعَظَتْكَ وَاعِظَةُ الْقَتِـيرِ وَعَلَتْكَ أُبَّهَـةُ الْكَبِيرِ
وَرَدَدْتَ مَا كُنْتَ اسْتَعَرْ تَ مِنَ الشَّبَابِ إِلَى الْمُعِيرِ
وَلَقَـدْ تَحُـلُّ بِعَقْوَةِ الْـ بَابِ مِنْ بَقَرِ الْقُصُورِ
صُـوَرٌ إِلَيْكَ مُؤَنَّثَا تُ الدَّلِّ فِى زِيِّ الذُّكُورِ
أَرْهَفْنَ إِرْهَـافَ الْأَسِـ نَّةِ وَالْحَمَائِلِ وَالسُّيُورِ
أَصْـدَاغُهُنَّ مُعَقْـرَبَا تٌ وَالشَّوَارِبُ مِنْ عَبِيرِ

ولا أحفظ ما قال أبو زغبة ففضلوا أبا العتاهية ، وأبو نواس عندى أشعرهم .

حدثنى محمد بن عيسى بن عبد الرحمن ، قال : خرج إبراهيم بن العباس ، ودعبل ورزين فى نظرائهم من أهل الأدب ورجاله إلى بعض البساتين فى خلافة المأمون فلقيهم قوم من أهل السواد من أصحاب الشوك قد باعوا ما معهم من الشوك فأعطوهم شيئاً وركبوا تلك الحمر فأنشأ إبراهيم يقول :

أُعِيضَتْ بَعْدَ حَمْلِ الشَّوْ كِ أَوْقَاراً مِنَ الْحُرَفِ
نَشَاوَى لَا مِنَ السُّكْرِ وَلَكِنْ مِنْ أَذَى الضَّعْفِ

فقال رزين :

فَلو كُنْتُمْ عَلى ذَاكَ تَؤُوُونَ إلى قَصْفِ
تَسَاوتْ حالُكم فيه ولَمْ تمنوا على الخسف

فقال دعبل :

فإذْ فاتَ الذى فاتَ فَكُونُوا من ذَوى الظرْف
وَمُرُّوا نَقْصِف اليَوْمَ فإنّى بائعٌ خُفى

حدثنى محمد بن الهيثم الطائى قال : حدثنى القاسم بن محمد الطيفورى ، قال : شكا اليزيدى إلى المأمون خلة أصابته ، ودينا لحقه ، فقال له : ما عندنا فى هذه الأيام ما إن أعطيناكه بلغت به ما تريد ، فقال : يا أمير المؤمنين إن الأمر قد ضاق على ، وإن غرمائى قد أرهقونى ، قال : قدم لنفسك أمراً تنال به نفعاً ، فقال : لك منادمون فيهم من إن حركته نلت منه ما أحب فأطلق لى الحيلة فيهم ، قال : قل ما بدا لك ، فقال : إذا حضروا حضرت فأمرت فلانا الخادم يوصل إليك رقعتى فإذا قرأتها فأرسل إلىّ دخولك فى هذا الوقت متعذر ، ولكن اختر لنفسك من أحببت قال : فلما أن علم أبو محمد جلوس المأمون واجتماع ندمائه إليه وتيقن أنهم قد ثملوا من شربهم أتى الباب فدفع إلى الخادم رقعة قد كتبها فأوصلها له إلى المأمون فقرأها فإذا فيها :

يا خَيْرَ إخْوانٍ وَأصْحَاب هٰذا الطُّفَيْلى لَدَى البـاب
فَصَيِّرُونى واحـداً منكم أوْ أخْرِجُوا لى بَعْضَ أصْحَابى

قال : فقرأها المأمون على من حضره فقال : ما ينبغى أن يدخل الطفيلى على مثل هذه الحال فأرسل إليه المأمون : دخولك فى هذا الوقت متعذر فاختر لنفسك من أحببت تنادمه ، فقال : ما أرى لنفسى اختياراً غير عبد الله بن طاهر فقال له

المأمون : قد وقع اختياره عليك نصر إليه . قال يا أمير المؤمنين ، فأكون شريك الطفيلي . قال : ما يمكن رد أبي محمد عن أمرين ، فإن أحببت أن تخرج وإلا فافد نفسك . قال : فقال يا أمير المؤمنين : له على عشرة آلاف درهم . قال : لا أحسب ذلك يقنعه منك ومن مجالستك . قال : فلم يزل يزيده عشرة عشرة ، والمأمون يقول لا أرضى له بذلك حتى بلغ المائة . فقال له المأمون : فعجلها له . قال : فكتب له بها إلى وكيله ووجه معه رسولا . وأرسل المأمون إليه : قبض هذه فى هذه الحال أصلح لك من منادمته على مثل حاله وأنفع عاقبة .

حدثنى محمد بن الحسن قال : أخبرنى عبد الله بن محمد مولى بنى زهرة . قال : دخل أبى على المأمون ، وقد ولاه القضاء فقال : أتروى شيئاً من الشعر ؟ قال : نعم : قال أنشدنى : فأنشده :

سَكَنٌ يَبْقَى لَهُ سَكَنُ ... مَا بِهذا يُؤْذِنُ الزَّمَنُ
نَحْنُ فى دَارٍ يُخَبِّرُنَا ... بِبِلاَهَا نَاطِقٌ لَسِنُ
كُلُّ حَىٍّ عِنْدَ مِيتَتِه ... حَظُّهُ مِنْ مَالِه كَفَنُ
إِنَّ مَالَ المَرْءِ لَيْسَ لَهُ ... مِنْهُ إِلاَّ فِعْلُهُ الحَسَنُ

قال : فدعا المأمون بدواة فكتبها . قال : وقال المأمون لعبد الله بن طاهر : ليس فيك عيب إلا أنك تحب الشعر وأهله . وقد أمرت أحمد بن يوسف يضم إليك رجلا فى ناحيتنا هو عندى أشعر من جرير . فضم إليه أبو العميثل وهو : عبد الله بن خويلد . كان أمر الرشيد أن يبتاع له خويلد هذا فسبق العباس بن محمد فاشتراه نصير له خوله الذين كانوا للعباس بن محمد بنفيد وأيلة . وقال أبو العميثل قدم على المأمون بخراسان أيام الفضل بن سهل فخرج أبو العميثل خلف عبد الله بن طاهر إلى مصر فقال قصيدة يصف فيها المنازل مثل قصيدة أبى النواس فى الخصيب يصف المنازل فأول قصيدة أبى العميثل :

خليلى إن الهم لى غير وازع　　وقلبى عميد قلب هيمان نازع
ألم تر أنى كلما هبت الصبا　　أصب ويقضينى شؤون المدامع
جعلت هوى حشو قلب مشايع　　على الهم والوجناء حشو البراذع

قال وكان أبو العميثل ولد فى البدو ، ونشأ فى البدو وكان فى بنى القين ابن جسر قال : وشعره فى ألف جلد .

قال إسحاق الموصلى : قال أبو موسى فى عريب جارية المأمون وكانت تعشق جعفر بن حامد ويتعشقها فلما وجدت من المأمون غفلة وضعت على فراشها مثال رخام تحت الإزار يحسب من رآه من بعيد أنها نائمة ، وكان جعفر بن حامد قد نزل إلى جانب قصر المأمون فصعدت إلى السطح فتدلت فى زبيل فلما قضى نهمته منها قعدت فى الزبيل فصعدت فرجعت إلى مكانها وطلبها المأمون قبل أن ترجع على فراشها فلم يجدها ، فعلم إلى أين صارت ، فقال أبو موسى :

قاتل الله عريبا　　فعلت فعلا عجيبا
ركبت والليل داج　　مركبا صعبا أريبا
لنظيم جعلت ذ　　لك مكسا لا هيوبا
مخة لو حركت خف　　ت عليها أن تذوبا
رعت الليل فلما　　اقتضى النوم الرقيبا
مثلت فوق حشايا　　ها لكى لا يسترببا
بدلا منها إذا نو　　دى باسم لا يجيبا
ومضت يحملها الخو　　ف قضيبا وكثيبا
فتدلت لمحب　　فتلقاها حبيبا
جذلا قد نال بالذ　　يا من الدنيا رغيبا
أيها الظبى الذى يخ　　رج عيناه القلوبا

والذى يأكلُ بعضاً بعضَهُ ملحاً وطيباً
كُنتَ نصباً لذئابٍ فلقدْ أطمعتَ ذيباً
وكذا الشاةُ إذا لمْ يكُ راعيها لبيبـــا
لا يبالى رعيـــةُ المرْ ءِ إذا كانَ عشيبا
فليقلْ منْ شاء ما شا ءِ إذا كانَ أديبا

قال : كان المأمون قد ولى يحيى بن أكثم قضاء البصرة فحضره جحشويه الشاعر وشهد رجلين عنده من أهل العدالة والصلاح بمال على معية ، ويقال على غيره . ولمعية مع يحيى أحاديث طريفة . واسم أحد الرجلين اللذين شهدا عند يحيى جوين والآخر عداس ، على غلام أنهما رأياه يلاط به وادعى الغلام أنهما قذفاه بالزنى فأراد أن يحدهما فقال جحشويه :

أنطقنى الدّهرُ بعدَ إخراسِ بحادثاتٍ أطلْنَ وسْواسى
يا بؤسَ للدّهرِ لا يزالُ كما يرفعُ ناساً يحطّ منْ ناسِ
لاَ أفلحتْ أمةٌ وحُقّ لها بطولِ لعنٍ وطولِ إتعاسِ
ترْضى بيحيى يكونُ سائسها وليسَ يحيى لها بسوّاسِ
قاضٍ يرَى الحدّ فى الزّناءِ ولاَ يرَى علَى منْ يلوطُ منْ باسِ
يحكمُ للأمردِ الظّريفِ علَى مثلِ جُوَيْنٍ ومثلِ عدّاسِ
فالحمدُ للهِ كيفَ قدْ ظهرَ الـ جُودُ وقلّ الوفاءُ فى النّاسِ
أمـــيرُنا جائرٌ وقاضينا يلُوطُ والرّأسُ شرُّ ما راسِ
لوْ قصدَ الرّأسُ وانتقامَ لقدْ قامَ علَى القصدِ كلُّ مرْتاسِ
ما أحسنُ الجوْرَ ينقضى وعلَى النّاسِ أميرٌ منْ آلِ عبّاسِ

وقال مصعب بن الحسن : حدثنى أبو خالد القناديلى قال : شهدت المأمون

وعنده عبادة المخنث وقد أمر بيحيى بن أكثم وقد وضع السرج، وشدوا حزامه ولببه فقال بعض الشعراء يهجو يحيى بن أكثم :

أرّقه برحُ الهوى وسدمه   وملّه الحبُّ فبات يألمه
طوراً يعاتبه وطوراً يشتمه   مثلُ الحريقِ فى الحشا يضرمه
ففاضت العينُ بدمع تسجمه   نمّت عليه كلُّ شوقٍ يكتمه
وباحَ بالحبِّ الذى يجمجمه   وباتَ والقلبُ يسامى همّه
مَنْ لمحبٍّ قد تراه يرحمه   أصبح بالبأساء عارٍ أنعمه
طالَ تصابيه وطالَ سقمه   وبلى الجسمُ ودقّتْ أعظمه
يشهد لى اللهُ على مَنْ يظلمه   يمنعه طعمَ الكرى ويحرمه
وإنما له يضرم مَنْ لا يضرمه   أصبح هذا الدينُ رثّاً رممه
عطّله الجور وطالَ قدمه   سحّت من الجور عليه ديمه
فباد معنى ربعه وأرسمه   إلّا بقايا قومه وجمّه
أوطنه الجورَ فأضحى معلمه   يرودُ فيه شاءه ونعمه
مَنْ يشهدُ الجورَ فنحنُ نعلمه   أنوكَ قاضٍ فى البلاد نعلمه
يقولُ حقّاً لا تغيثْ ترجمه   مذْ ولى الحكم أبيحَ حرمه
وانتهكتْ من القضاء حرمه   واضطربتْ أركانه ودعمه
واللهُ يبنيه ونحنُ نهدمه   ياليتَ يحيى لم يلدهُ أكثمه
ولمْ تطأ أرضَ العراق قدمه   ملعونةٌ أخلاقه وشيمه
لا خلقه عفٌّ ولا مقدّمه   يأتى ويؤتى وهو لا يستطعمه
أىُّ دواةٍ لمْ يلقها قلمه   وأىُّ بحرٍ لم يردهُ علمه
دربه بالرهز حتّى أحكمه   وأىُّ خشفٍ لم يبتْ يستطعمه
ينكحه هذا وهذا يعكمه   كلاهما يأتى كثيراً مأثمه

والله والله لَقَدْ حَلَّ دَمُهُ لَوْ أن للدين عاداً يدعمه
يَعْدِلُ عنهُ المَيْلُ أوْ يقومُه لَكان قَدْ رنَّ عَلَيْه مأثمه
أرْجُو وَيقضى اللهُ لا يُسلِّمُهُ من وجْه هذا ولكنْ يقصمه
بالسَّيف إذْ حلّتْ عَلَيْه نقمه [(١)]

حدثنى محمد بن عبد الله صاحب المراكب ، قال : أخبرنى أبى ، عن صالح ابن الرشيد . قال : دخلت على المأمون ومعى بيتان للحسين بن الضحاك . فقلت يا أمير المؤمنين : أحب أن تسمع منى بيتين . قال : أنشدهما فأنشده صالح :

حَمْدنَا الله شُكراً إذْ حَبَانا بنَصرِكَ يا أميرَ المؤمنينا
فأنْتَ خَلِيفَةُ الرَّحمان حقّاً جَمَعْتَ سَماحةً وجَمَعْتَ دِينا

فاستحسنهما المأمون وقال : لمن هذان البيتان يا صالح ؟ قلت : لعبدك يا أمير المؤمنين الحسين بن الضحاك . قال : قد أحسن ، قلت : وله يا أمير المؤمنين ما هو أجود من هذا . قال : وما هو؟ فأنشدته :

أَيَبْخلُ فَرْدُ الحسْن فَرْدُ صفاته عَلَيَّ وَقَدْ أفْرَدْتُه بهوى فَرْد
رَأى اللهُ عَبْدَ الله خَيْرَ عبادِه فَملَّكهُ واللهُ أعْلَمُ بالعَبْد

قال : عمارة بن عقيل . قال لى عبد الله بن أبى السمط : علمت أن المأمون لا يبصر الشعر . قال : قلت ومن ذا يكون أعلم منه فوالله إنك لترانا ننشده أول البيت فيسبقنا إلى آخره . قال إنى أنشدته بيتاً أجدت فيه فلم أره تحرك له . قال : قلت وما الذى أنشدته ؟ قال أنشدته :

---

(١) هكذا فى الأصل .

أضْحَى إمَامُ الهدى المأمون مُشْتَغلا

بالدِّينِ ، والنـاسُ بالدُّنيَا مَشاغيلُ

قال : فقلت له إنك والله ما صنعت شيئاً ، وهل زدت على أن جعلته عجوزاً فى محرابها فى يدها سبحتها ، فمن القائم بأمر الدنيا إذا تشاغل عنها وهو المطوق بها ، هلا قلت فيه كما قال عمك جرير فى عبد العزيز بن الوليد :

فَلاَ هُو فى الدنيا مُضيعٌ نصيبَهُ ولا عَرَضُ الدنيا عن الدِّين شاغله

قال : وحدثنى احمد بن محمد اليزيدى قال : جاءنى أبى فقال : يا بنى ، لقينى ياسر رجله فقال: أجب أمير المؤمنين ، فدخلت على المأمون وعنده جماعة من أصحابه فقال إنى أمرت من يحضرنى ينشدنى ما يخطر بقلبه مما يستحسنه ، فكل أنشد ، فأنشدنى ما يخطر مما تستحسنه ، فأنشدته :

عُتِّقَتْ حَتَى لوِ اتَّصَلَتْ بلســانٍ ناطقٍ وَفَمِ

لاحْتَبَتْ فى القَوْمِ مائِلَةً ثمَّ قَصَّتْ قِصَّـةَ الأمم

فقال المأمون : الذى أردت :

وتَمَشَّت فى مَفَـــاصِلِهمْ كتمشى البُرْء فى السَّقَم

ثم نكث الأرض باصبعه فانصرف من بحضرته وخرجت معهم فلحقنى ياسر ، فقال : ارجع ، فرجعت ، فقال : يا أبا محمد ، اشتهيت أتعرف الأفياء فلم يزل يذهب من فىء إلى فىء حتى أفضى إلى الرواق فرفع السجف فإذا عريب ومحمد بن حامد البوزنجردى فقال : تطعم أبا محمد شيئاً ، فقلت : قد أكلت ياأمير المؤمنين ، فشرب المأمون رطلين ، وقال : اسق أبا محمد ، فلما هممت بشربه قال : هات له عشرين الف درهم ، قال : وأنشدك بيتين خير لك من عشرين الف . فقلت : ما زال أمير المؤمنين يؤدب ويفيد ، فأنشدنى :

إنى وَأنتَ رَضِيعا قَهوَةٍ لَطُفَتْ عن العِيَانِ وَرَقتْ فى مَدَى الوَهْمِ
لم نَغتذِى غَيرَ كأسٍ حُزْتُ دَرَّتها
والكأسُ حُرمَتُها أولى مِنَ الرَّحِمِ

حدثنى عبد الله الربيع بن سعد بن زرارة ، قال : حدثنا محمد بن إبراهيم السبارى قال : لما قدم العتابى على المأمون مدينة السلام أذن له . فدخل عليه وعنده إسحاق ابن ابراهيم الموصلى ، وكان شيخاً جليلا ، فسلم فرد عليه السلام وأدناه وقربه حتى دنا منه فقبل يده ثم أمره بالجلوس فجلس ، وأقبل عليه يسائله عن حاله فجعل يجيبه بلسان طلق ؛ فاستطرف المأمون ذلك منه ، فأقبل عليه بالمداعبة والمزح ، فظن الشيخ أنه استخف به فقال : يا أمير المؤمنين ، الإبساس قبل الإيناس ، قال : فاشتبه على المأمون فى الإبساس ، فنظر المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم ثم قال : نعم يا غلام الف دينار ، فأتى بها فوضعت بين يدى العتابى ، وأخذوا فى المفاوضة والحديث ، وغمز عليه إسحاق بن إبراهيم فأقبل لا يأخذ العتابى فى شيء إلا عارضه إسحاق بأكثر منه ، فبقى متعجباً ثم قال : يا أمير المؤمنين ، ائذن لى فى مسألة هذا الشيخ عن اسمه ؟ قال : نعم ، فسله ؛ قال : يا شيخ ، من أنت ، وما اسمك ؟ قال : أنا من الناس ، واسمى كل بصل ! قال : أما النسبة فمعروفة ، وأما الاسم فمنكر ، وما كل بصل بين الأسماء ؟ ! قال له إسحاق : ما أقل إنصافك ؟ وما كل ثوم من الأسماء ، والبصل أطيب من الثوم ؟ فقال العتابى : لله درك ، ما أحجك ! ! يا أمير المؤمنين ما رأيت كالشيخ قط تأذن لى فى صلته بما وصلنى به أمير المؤمنين فقد والله غلبنى . فقال له المأمون : بل هذا موفر عليك ونأمر له بمثله . فقال له إسحاق بن ابراهيم : أما إذ أقررت بهذه فتوهمنى تجدنى . قال : والله ما أخالك إلا الشيخ الذى يتناهى إلينا خبره من العراق ، ويعرف بابن الموصلى ، قال : أنا حيث ظننت ، فأقبل عليه بالتحية والسلام ، فقال المأمون وقد طال الحديث بينهما

أما إذ اتفقتما على الصلح والمودة فقوما فانصرنا متنادمين، فانصرف العتابى إلى منزل إسحاق بن إبراهيم الموصلى فأقام عنده .

حدثنا محمد بن عبد الله بن جشم الربعى قال : أخبرنا عمارة بن عقيل ، قال : قال لى المأمون يوماً وأنا أشرب عنده : ما أخبثك يا أعرابى ! قال : قلت وماذاك يا أمير المؤمنين وهمتنى نفسى ، قال : كيف قلت :

قالت مُفَدَّاةُ لَمَّا أن رَأَتْ أرَقى　　　والهمُّ يَعْتادنى من طيفِهِ لَمَمُ

نهبْتَ مالكَ فى الأدْنَيْنِ آصِرَةً　　　وفى الأباعِدِ حتى حفَّكَ العَدَمُ

فاطلُبْ إليهمْ تَرَى ما كُنتَ من حَسَنٍ

تُسْدِى إليهم فقــدْ باتتْ لهم صرَمُ

فقلتُ عَذْلَكِ قد أكثرْتِ لائمتى　　　ولم يَمُتْ حاتمٌ هَزْلاً ولا هَرِمُ

فقال لى : أن رميت بنفسك إلى هرم بن سنان سيد العرب ، وحاتم الطائى ، فعلا كذا وفعلا كذا . وأقبل ينثال علىّ بأفضالهما . قال فقلت : يا أمير المؤمنين ، خير منهما أنا مسلم وكانا كافرين ، وأنا رجل من العرب .

حدثنا محمد بن زكريا بن ميمون الفرغانى قال ، قال المأمون لمحمد بن الجهم : أنشدنى ثلاثة أبيات فى المديح ، والهجاء ، والمراثى ، ولك بكل بيت كورة ، فأنشده فى المديح :

يجودُ بالنفس إذْ ضنّ الجوادُ بها　　　والجودُ بالنفسِ أقصى غايةَ الجود

وأنشده فى الهجاء :

قَبُحَتْ مَناظِرُهُمْ فحين خَبَرْتهم　　　حسنت منـاظرهم بقُبْح المخبر

وأنشده فى المراثى :

أرادُوا لِيُخْفُوا قَبْرَهُ عن عَدُوِّه ... فَطِيبُ تُرابُ القَبْرِ دلَّ عَلَى القَبْرِ

وقال : حدثني أحمد بن محمد ، قال : أنشدني العباس بن أحمد بن المأمون في الجواري :

أتُوبُ إلى الرَّحمٰنِ من كلِّ ذَنْبِ ... سِوَى أنني للغانيات وَدُودُ

أخافُ إذا ماتُ أن يَشتَرِقني ... ترائبُ تبدو من ضُحًى وخُدُودُ

أخبار المغنين أيام المأمون

العباس بن أحمد بن أبان أبو القاسم الكاتب ، قال : أخبرني الحسين بن الضحاك قال : قال علّويه : أخبرك أنه مرَّ بي مرة ما أيست من نفسي معه لولا كرم المأمون ، وإنه دعا بنا فلما أخذ فيه النبيذ قال : غنوني ، فسبقني مخارق فاندفع فتغنى صوتاً لابن سريج في شعر جرير :

لمَّا تذَكَّرْتُ بالدَّيْرَيْنِ أرَّقَنِي ... صوتُ الدَّجاجِ وضَرْبٌ بالنَّواقيس

فقلتُ للرَّكْبِ قد جدَّ المسيرُ بنا ... يا بُعْدَ يَبْرِينَ من باب الفَرَاديس

قال : فجئ لي أن تغنيت ، وقد كان همَّ بالخروج إلى دمشق يريد الثغر :

الحينُ ساق إلى دمشق وَما ... كانت دمشـــقُ لأهلنا بَلَدا

قال : فضرب بالقدح الأرض ، وقال : مالك ، عليك لعنة الله . ثم قال : يا غلام أعط مخارقاً ثلاثة آلاف درهم ، وأخذ بيدي فقمت وعيناه تدمعان وهو يقول للمعتصم : هو والله آخر خروج ، ولا أحسبني أرى العراق أبداً . قال : فكان والله آخر الفراق عند خروجه كما قال .

قال الحسين : وأخبرني مخارق أنه دخل عَلَى الممون يوماً وبين يديه طبق عليه رغيفان ودجاجة ، قال فقال لي : تعال يا مخارق ، قال : فصيرت بركة قبائي في

منطقتى وغسلت يدى وجئت فجملت أقطع بين يديه الدجاجة وآكل حتى أتينا جميعاً على الدجاجة والرغيفين ، وقمت من بين يديه ، فلما جلسنا للنبيذ قال لى : يا مخارق غنى صوتاً كذا ، فغنيته فعبس فى وجهى وقال لعلويه : غنى هذا الصوت فغناه دون غنائى ، فضحك إليه وتبسم ودعا له بعشرة آلاف درهم فوضعت بين يديه ، ثم سألنى أن أغنيه صوتاً آخر فغنيته واجتهدت ، ففعل مثل فعله الأول ، وأمر علويه فغناه ففعل كذلك ودعا له بعشرة آلاف درهم ثم قال: غنى فغنيته ففعل كفعله الأول ثم قال لعلويه: غنه فغناه فدعا له بعشرة آلاف درهم، ثم قام إلى الصلاة ، فقال لى علويه وأصحابنا : ألك ذنب ؟ فقلت : لا والله ، إلا أنى دخلت فدعانى إلى الغداء فأكلت معه ، فقال لى علويه : ويلك ! ألم يكن فى بيتك رغيف فتأكله قبل مجيئك ؟ ! قال : ثم انصرفنا من ذلك المجلس فأمر أن أحضر الدار كل يوم حتى حضرت شهراً لا يأذن لى . فلما استوفيت ثلاثين يوماً أذن لى فدخلت وبين يديه طبق مثل ذلك الطبق وعليه دجاجة ورغيفان ، فسلمت فرد السلام ، ثم قال : ادن يا مخارق ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، لا والله لا أعود لمثلها أبداً . قال : فضحك حتى استغرق ثم قال لى : ويلك ! أظننت بى بخلا على الطعام ؟ لا والله ، ولكنى أردت تأديبك لمن بعدى ، لأن الملوك والخلفاء لا يؤاكلها خدمها وأخاف أن تتعود هذا من غيرى فلا يحتملك عليه ، تعال الآن فكل فى أمان ، قال قلت لا أفعل والله . قال : فدعا لى بطعام ، وحضر المغنون فقال لعلويه : غنى ، فغناه فأعرض عنه ، ثم قال لى : غنِّ فغنيت ، فأمر لى بعشرة آلاف درهم ، ثم لم يزل يفعل كذلك حتى استوفيت ثلاثين ألفاً كما وهب لعلويه .

حدثنا محمد بن على بن طاهر بن الحسين أبو العباس قال : كان المأمون يوماً يشرب وبيده قدح إذ غنت بذل الكبيرة :

ألا لا أرى شيئاً ألذّ من الوعد ومن أملى فيه وإن كان لا يُجْدِى

قال : فقالت مكان « الوعد » : « ألذ من السحق » ، فوضع المأمون القدح

من يده ، والتفت إليها فقال : بلى ، النيك ألذ من السحق يا بذل ! ! . ثم قال : أتمى صوتك

وَمِنْ غَفْلَة الوَاشى إذا ما أتيْتُها ... وَمِنْ نظرى أبْيَاتها خالياً وَخدى
ومن ضَحْكةِ فى المُلتقى ثم سَكْتة ... وكلتاهما عِنْــدى ألذُّ مِنَ الخُلدِ

أخبرنى سعيد بن عبد الرحمن بن مقرن ، قال : بلغ المأمون أن عبيد الله بن أبى غسان محبوس بدين عليه ، فسأل عمرو بن مسعدة عما عليه من الدين فأخبره بمبلغه فأمر بقضائه عنه ، وقال لعمرو قل له عنى : إياك بعد هذا أن تدان ، وأقصر عن الإسراف . قال : فقال لعمرو قل له : يا أمير المؤمنين ، كيف يسرف من خبزه خشكار ، ونبيذه دوشاب ، ومغنيه عمرو الغزال ؟ !

وأنشدنى سعيد بن عبد الرحمن لبعض الرقاشيين فى عمرو الغزال ، وفى على بن أمية وذلك أن الشعر له :

يا ربِّ خُذْنى وخُذْ عليًا وخذ ... يا ريحُ ما تَصْنَعــينَ بالدِّمَن
عَجِّلْ إلى النّار بالثلاثة والــ ... ــرّابعُ عمرو الغزَال فى قَرَن

حدثنى أبو محمد عمر بن محمد بن عبد الملك بن أبان قال : حدثنى احمد بن عبد الملك بن أبان قال : حدثنى احمد بن عبد الله بن أبى العلاء قال : كنت عند صالح ابن الرشيد ومعنا الحسين بن الضحاك فى خلافة المأمون ، وكان يهوى يعنى صالحاً خادماً له ، فغاضبه فى تلك الليلة فتنحى عنه وكان جالساً فى صحن له حوله نرجس كثير فى قمر طالع حسن فقال : قل للحسين بن الضحاك يقول فى مجلسنا وما نحن فيه أبياتاً يغنى فيها عمرو ، قال فقال الحسين :

وَصفَ البدرُ حُسنَ وَجْهكَ حتى ... خِلتُ أنى وَمَا أراهُ أرَاكا
وإذا مَا تَنفَسَ النرجسُ الغَــ ... ــضُّ توَهمْتهُ نسيمَ نشَاكا

خُدَعُ المنَا تُقلبنى فيـ سك بإشْراق ذا وبهجة ذا كا
لأدُومنَّ ما حَييتُ عَلَى الو دِّ لهذا وذاكَ إذ حكيا كا

قال : وقال لى تغن فيها ، فتغنيت فيها من ساعتى .

حدثنى محمد بن عبد الله بن طهمان ، قال : أخبرنى الحسين بن المرزبان النحاس قال : كان المأمون إذا غنى بالصوت يشتهيه استعاده ولم يسمع غيره . قال : وكان إذا اشتهى المأمون من الطعام شيئاً أكله ولم يأكل غيره .

حدثنى بعض أصحابنا عن إسحاق بن حميد كاتب أبى الرازى . قال : انصرف علويه الأعسر المغنى من مجلس المأمون فقال لنا : إنه دار صوت فى هذه الليلة فى مجلس أمير المؤمنين وهو بيت واحد ، فسأل عنه كل من فى المجلس فلم يعرف له أحد منهم ثانياً فهل تعرفونه ، فقلت : ما هو ؟ فقال :

تخيَّرتُ من نَعمانَ عود أراكةٍ لهندٍ ، فمن هذا يُبلِّغُهُ هِنْـدا

فلم نعرفه فقال : أحب أن تطلبونه ، فطلب عند أهل المعرفة ببغداد فلم يقدر عليه ، فلما ولى أبو الرازى كور دجلة ثم نقل منها إلى البصرة ، ونقل إلى اليمامة والبحرين فلما خرجنا وكنت مع أبى الرازى فى قبة اندفع الحادى يحدو بنا للمرقش الأكبر ويقال للمجنون :

خليلىَّ عُوجا باركَ اللهُ فيكما وإن لم تكُنْ هندٌ لأرضكما قصدا
وقولا لها ليسَ الضلالُ أجازَنا ولكننا جُزْنا لحاجتِنا عَمْـدا
تخيَّرتُ من نعمان عُـود أراكة لهند ، فمن هذا يبلِّغُهُ هندا
وَأبطِشُهُ سيفى لكيما أُقيمهُ فلا أَوَداً فيه استَبَان ولا حَصْدا
ستبلغُ هنـداً أن سَلِمْنا وَسلَّمَتْ قلائصُ يَقطعْنَ الفَلاَةَ بنا وَجْدا
فلما أنخنا العيسَ قد طالَ سَيْرُها إليهم وَجدنا بالقرى منهم حَشدا

فناوَلْتُها المِسْوَاكَ والقلبُ خائفٌ ... وقلتُ لها ياهندُ هل مثلُ ذا يُهْدَى
وأقبلتُ مُجْتازاً مُوَدٍّ رسالةً ... فقامَتْ تجرُّ المَيْسَنانيَّ والبُرْدا
تُعَرِّضُ للحيِّ الذين أُرِيدُهُمْ ... وما التَمَسَتْ إلاَّ لتقتُلَنى عمدا
فما شِبْهُ هِنْدٍ غيرَ أدْماءَ خاذِلٍ ... من الوحش مُرْتاعٍ تُرَاعِى طَلاً فَرْدا
وما نُطفةٌ من مُزْنَةٍ فى وَقِيعةٍ ... عَلَى مَتْنِ صخرٍ فى صَفَا خالطت شهدا
بأطيبَ مِنْ رَيَّا عُلالةِ ريقِها ... غداةَ هضابُ الطَلِّ فى روضة تَنْدَى

حدثنى الفضل بن العباس بن الفضل ، قال : قال لى إسحاق بن إبراهيم الموصلى طالت جفوة المأمون بى فلم اكن أدخل عليه ولا أحضر مجلسه ، فأضر ذلك بى فأتيت علويه ، وكان علويه لا يفارق المأمون لمنادمته ؛ فقلت له ويلك هل فيك خير؟ فقال لى علويه : يا سيدى ففيمن الخير إذاً؟ فقلت له : قد علمت تناسى أمير المؤمنين لى وشده جفائه ، وقد والله أجحف ذلك بى فهل لك إلى شىء أعرضه عليك ، يا علويه ؟ فقال لى : قل يا سيدى ما أحببت ، قال إسحاق فقلت له ، قد قلت بيتين مليحين ، وقد صنعتهما بلحن مليح ، فأردت إذا صرت إلى منادمة المأمون فغنيت صوتين أو ثلاثة أن تغنى هذا الصوت فإنه سيسألك ، قال علويه : نعم وكرامة ، قال : فمكثت أطرح عليه الصوت أياماً حتى أحكمه وجوَّده ، فلما أن جلس المأمون للهوه غنى علويه هذا الصوت وهو :

يا سَرْحَةَ الماء قد سُدَّت مَوَارِدُهُ ... أمَا اليكَ سبيلٌ غيرُ مَسْدُودِ
لحائمٍ حَامَ حتى لا حِيَامَ به ... مُحَلَّإٍ عن طريق الماء مطرود

قال : فلما أن سمعه المأمون قال : يا علويه ، لمن هذا الشعر وإيش هذا الصوت؟ قال : فقال له : يا أمير المؤمنين ، هذا المجفو المطرود عبدك إسحاق بن إبراهيم الموصلى ، قال : عَلَىَّ به الساعة ، قال إسحاق : فأتانى الرسول فصرت إلى المأمون فلما أن رآنى وسلمت عليه ، قال لى : ادن ، فلم يزل يدنينى حتى مست ركبتى

ركبته ، ثم قلت يديه ورجليه ، ثم أمر لى بمائة الف درهم ، وألزمنى خدمته ، وما زلت آخذ جوائزه فى كل قليل حتى توفى .

حدثنى سليمان بن على بن نجيح ، قال : حدثنى أبى قال : حدثنى صالح بن الرشيد قال : كنا عند المأمون ، وعقيد ، وعمرو بن بانة ، وعيسى بن زينب ، فغنى عقيد بشعر عيسى بن زينب ، وعيسى حاضر ، وكان نديماً للمأمون ، وكان شاعراً :

لكَ عندى فى كلِّ يومٍ جديد ‏ ‏ طرفةٌ تستفادُ يا ابن الرَّشيد
يا عَمُودَ الإسلام خَيْرَ عمود ‏ ‏ والذى صيغَ مِنْ حياءٍ وَجُود
فتنفستُ ثم قلتُ كذا كُـ ‏ ‏ لُّ مُحِبٍّ صَبِّ الفؤادِ عميد
إذ تَغَنّى عمرو بن بانَةَ إذْ ذا ‏ ‏ كَ وهو قابضٌ بأيْرِ عقيد

قال : فقال المأمون لعقيد قف فذكر فخشاء(١)

قال احمد بن طاهر : قال إسحاق الموصلى : قدم المأمون وكنت أدخل وعلىّ طويلة وأنا فى السواد ، فذكر المأمون ذاك ، فقيل له إنى أتيه على الخلفاء ، ولا أغنيهم . فقال له صالح وأبو عيسى : كذبوك ، ابعث إليه ، فجئت فغنيته :

يا شرْعَةَ الماءِ قد سُدَّتْ مواردُهُ ‏ ‏ أما إليكَ طَرِيقٌ غيرُ مَسْدُود

ثم غنى علويه :

لعبْدَة الدّارُ ما تُكَلِّفُ الدّارُ

فقال : لمن هذا ؟ فقال علويه : لإبراهيم . فقال لى : هكذا ؟ فقلت : هو لأبى وقد أخطأ فيه ، فأنكر عليه فقال : رده أنت . فرددت الصوت فقبلنى وضمنى إليه ، وأمر لى بخمسين الف درهم .

---

(١) هكذا فى الأصل . والصواب : فتلك فحشاء .

قال احمد بن أبي طاهر : قال أبو الحسن موسى بن جعفر بن معروف ، حدثني علويه قال : أمرني المأمون وأصحابي أن نغدو عليه لنصطبح ، فغدونا فلقيني عبدالله ابن اسماعيل صاحب المراكب مولى عريب فقال :

« يا أيها الرجل الظالم المعتدى أما ترحم ولا ترق ولا تستحى ! عريب هائمة تحتكم عليك فى كل ليلة ثلاث مرات » .

قال أبو الحسن : قال لى علويه : وكانت عريب أحسن الناس وجهاً ، وأظرف الناس وأفكه وأحسن غناء منى ومن صاحبي ، يعنى مخارق ، قال فقلت :أم المأمون زانية مر حتى أجيء . قال : فحين دخلت قلت له استوثق من الأبواب فإنى أعرف الناس بفضول الحجاب . فأمر بالأبواب فأُغلقت ودخلت فإذا عريب جالسة على كرسى عظيم تطبخ بين يديها ثلاث قدور من دجاج فلما رأتنى قامت إلىّ فعانقتنى وقبلتنى وأدخلت لسانها فى فمى ثم قالت : ما تشتهى أن تأكل ؟ فقلت : قدراً من هذه ، فأفرغت قدراً منها بينى وبينها فأكلنا ، ثم دعت بالنبيذ فصب رطلا فشربت نصفه وسقتنى نصفه ، فما زلنا نشرب حتى سكرنا ، ثم قالت : يا أبا الحسن أخرجت البارحة شعر أبى العتاهية ، فاخترت منه شعراً غنيت فيه فقلت : ما هو ؟ فقالت :

وإنى لَمُشْتَاقٌ إلى ظلِّ صاحب   يروقُ ويَصْفُو إن كدرْتُ عليه

عذيرى من الإنسان لا إن جَفَوته   صَفا لى ولا إن كنتُ طوعَ يديه

فصيرناه مجلسنا ، فقالت : بقى علىّ فيه شيء فأُصلحه . فقلت : ما فيه شيء ، فقالت بلى ، فصححناه جميعاً ، ثم جاء الحجاب فكسروا فاستخرجونى فأُدخلت على المأمون فأقبلت أرقص من أقصى الإيوان وأصفق بيدى وأغنى الضرب فسمع وسمعوا ما لم يعرفوه فاستطرفوه ، فقال المأمون : ادن يا علويه رد على الصوت ، فرددته سبع مرات ، فقال : أنت الذى تشتاق إلى ظل صاحب يرقّ لك ، ويصفو إن

كدرت عليـه ؟ ؟ فقلت : نعم ، قال : نخـذ منى الخلافة ، وأعطنى هذا الصاحب بدلها .

سمعت عمرو بن بانة يقول : كنت يوماً عند صالح بن الرشيد فقال لى صالح : لست تطرح على جوارى وغلمانى ما أستجيده . قال : فقلت : ويلك ما أبغضك ابعث إلى منزلى فجىء بالدفاتر ، فجاءنى بالدفاتر فأخذ دفتراً منها ليتخير فمر بشعر الحسين بن الضحاك :

أطلْ حُزْناً وابكِ الأمينَ محمـداً بحُزْنٍ وإنْ خفْتَ الحسامَ المهنـدا
ولا فرحَ المأمونُ بالملك بَعْدَهُ ولا زالَ فى الدُّنيا طَرِيداً مشرَّدا

فقال : أنت تعلم أن المأمون يجيئنى فى كل ساعة فإن قرأ هذا ما يكون ؟ ثم دعا بسكين فحـكه ، وصعد المأمون من الدرجة ورمى صالح بالدفتر ، فقال المأمون : يا غلام ، الدفتر . فأتى به فنظر فيه فوقف على الحك فقال المأمون : إن قلت لكم ما كنتم فيه تصدقونى ؟ قلنا : نعم ، قال : ينبغى أن يكون أخى قال لك ابعث فجىء بدفاترك لنتخير ما نطرح فوقف على هذا الشعر ، فكره أن أراه فأمر بحكه وقال لى : غنه ، فقلت يا أمير المؤمنين الشعر للحسين بن الضحاك والغناء لسعيد بن جابر ، فقال : وما يكون ؟ غنه ، فغنيته ، فقال : رده ، فرددته ثلاث مرات فأمرلى بثلاثين الف درهم وقال : حتى تعلم أنه لم يضرك ، والحسين بن الضحاك الذى يقول فى سعيد بن جابر :

* يا سَعيدُ وأينَ منى سعيدُ *

قال إسحاق الموصلى : كانت لى صناجة كنت بهامعجباً ، واشتهاها أبو إسحاق فى أيام المأمون فبينا أنا ذات يوم فى منزلى إذا أتانى رسول المأمون فقلت ذهبت والله صناجتى تجده قد ذكرها له فبعث إلى فيها فمضيت وأنا مثخن فدخلت فسلمت فرد السلام ونظر إلى تغير وجهى فقال لى اسكن ، فسكنت . وسألنى عن صوت فقال : أتدرى لمن هو ؟ فقلت أسمعه ثم أخبر به إن شاء الله ، فأمر جارية من وراء

ستارة فغنته وضربت فإذا هى قد شبهته بالقديم فقلت : زدنى معها عوداً آخر ففعل فقلت : يا أمير المؤمنين هذا الصوت محدث لامرأة ضاربة ، فقال : من أين قلت ذاك ؟ قلت : لما سمعت لينه علمت أن صار بنائه ضاربة فقد حفظت أجزائه ومقاطعه ثم طلبت عوداً آخر فلم أشكك ، فقال : صدقت ، الغناء لعريب .

قال حماد بن إسحاق الموصلى : قال إسحاق : سألنى المأمون يوماً عن مخارق وعلويه كيف هما فى صنعة الغناء ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين مثلهما مثل رجل لم يكن يحسن غير ألف ب ت ث فدخل على قوم أميين فسموه كاتباً ، ولكن هاذين بقيا إلى دهر ماتت أهل الصناعة المتقدمين فصارا عند أهله مغنيين وما غنيا وهما عند القديم إلا مثل الكذابة عند الوشى الإسكندرانى .

حدثنى بعض أصحابنا قال : كنا فى منزل محمد بن داءود بن إسماعيل بن على الهاشمى وكان عالما بالفقه وبالغناء جميعاً ووصفه يحيى بن أكثم بالفقه للمأمون ، ووصفه أحمد بن يوسف الكاتب للمأمون بالغناء ، فقال المأمون : ما أعجب ما اجتمع فيه الفقه والغناء ، فكتبنا إلى إسحاق بن إبراهيم الموصلى ، وكان فى جواره نسأله أن يتحول إلينا ، فكتب إلينا جعلت فداكم قد أخذت دواء وأنا أخرج منه ثم أحمل قويريرتى وأصير إليكم وكتب فى أسفل كتابه :

أَنَا الشَّماطيطُ الذى حُدِّثْت به   مَتَى أُنَبَّـه للغـدَاء أَنْتَبَهْ
ثُم أُنَزَّى حَوْلَهُ واحْتَبِـــه   حَتَّى يُقَالُ شَرِهٌ وَلَسْتُ به

ثم جاء بعد ومعه بديح غلامه فتغدينا وشربنا وكان عندنا أحمد بن يوسف وذُكاء وصفير ، فغنى ذُكاء وهو ابن كامل صوتاً ، فاستحسنه إسحاق واستعاده وهو :

أَبْهار قدْ هَيَّجْتَ لى أَوْجاعا   وَتَرَكْتِنى عَبْداً لَـكُم مطْواعا

بحديثكَ الْحَسَنِ الذى لَوْ كلَّمتْ وَحْشُ الفَلاَةِ به لجئنَ سِرَاعا

فقال أبو إسحاق : ممن أخذت هذا الغناء ؟ فقال : من معاذ بن الطيب ، فقال : أحب أن تلقيه على بديح ، فألقاه عليه فلما صليت العصر انصرف أبو كامل وقال أبو جعفر أحمد بن يوسف يشرب وعنده قوم فأحتاج أن أذهب إليه فانصرف وتخلف صغير فغنى ، فقال له إسحاق : أنت والله يا غلام ماخورى ، وسكر محمد فى آخر النهار فغنى :

هَبُونى أغُضُّ إذا ما بَدَتْ وَأمْنَعُ طَرْفى فَلاَ أنظُرُ
فَكَيْف اسْتِتَارى إذا ما الدُّمُوعُ نَطَقْنَ (فَبُحْنَ) بما أضْمِرُ
فيامَنْ سُرُورى به شقوَةٌ وَمنْ صَفو عَيْشى به أكْدَرُ
فَلو لَمْ تَكُنْ فىَّ بُقْيا عَلَيْـ ك نَظَرْتُ لنفسى كما تَنْظُرُ

فالتفت إسحاق إلى محمد بن أيوب بن جعفر بن سليمان فقال : يا عبد الله أجرك الله فى ابن عمك إذ قد سكر يغنى قدام إسحاق .

نسخة كتاب أمير المؤمنين المأمون إلى أبى الحسين إسحاق بن إبراهيم فى المحنة وهو أول كتاب كتبه :

أما بعد : « فإن حق الله على أئمة المسلمين وخلفائهم الاجتهاد فى إقامة دين الله الذى استحفظهم ، ومواريث النبوة التى أورثهم وأثر العلم الذى استودعهم والعمل بالحق فى رعيتهم ، والتشمير لطاعة الله فيهم ، والله يسأل أمير المؤمنين أن يوفقه لعزيمة الرشد وصريمته ، والإقساط فيما ولاه الله من رعيته برحمته ومنته .

وقد عرف أمير المؤمنين ، أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو

الرعية وسفلة العامة ممن لا نظر له ، ولا رؤية ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته ولا استضاء بنور العلم وبرهانه فى جميع الأقطار والآفاق أهل جهالة بالله وعمى عنه وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والإيمان به ، ونكوب عن واضحات أعلامه وواجب سبيله ، وقصور أن يقدروا الله حق قدره ، ويعرفوه كنه معرفته ، ويفرقوا بينه وبين خلقه ، بضعف آرائهم ، ونقص عقولهم ، وخفائهم عن التفكير والتذكر ، وذلك أنهم ساووا بين الله تبارك وتعالى وبين ما أنزل من القرآن ، وأطبقوا مخضعين ، واتفقوا غير متجامعين على أنه قديم أول ، لم يخلقه الله ويحدثه ويخترعه ، وقد قال الله تبارك وتعالى فى محكم كتابه الذى جعله لما فى الصدور شفاء وللمؤمنين هدى ورحمة : (إنا جعلناه قرآناً عربيا)[1] فكل ما جعله الله فقد خلقه الله ، وقال : (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون)[2] وقال عز وجل : (كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق)[3] ، فأخبر أنه قصص لأمور أحدثها بعده ، وتلا بها متقدمها وقال : (الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير)[4] ، وكل محكم مفصل فله محكم مفصل ، والله جل وعز محكم كتابه ومفصله فهو خالقه ومبتدعه ، ثم هم أولئك الذين جادلوا بالباطل إلى قولهم ، ونسبوا أنفسهم إلى السنة وفى كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته مبطل قولهم ، ومكذب دعواهم ، يرد عليهم قولهم ونحلتهم ، ثم أظهروا مع ذلك أنهم هم أهل الحق والدين والجماعة ، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة ، فاستطالوا بذلك على الناس ، وغروا به الجهال حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب التخشع لغير الله ، والتقشف لغير الدين إلى موافقتهم عليه ،

---

(١) سورة الزخرف الآية ٢ .
(٢) سورة الأنعام الآية ١ .
(٣) سورة طه الآية ٩٩ .
(٤) سورة هود الآية ١ .

ومواطأتهم على سيء آرائهم تزينا بذلك عندهم وتصنعاً للرئاسة والعدالة فيهم ، فتركوا الحق إلى باطلهم ، واتخذوا دون هدى الله وليجة إلى ضلالتهم فقبلت بتزكيتهم لهم شهاداتهم ونفذت أحكام الكتاب بهم على دغل دينهم ، وبطل أديمهم وفساد نياتهم وتفننهم وكان ذلك غايتهم التى إليها أجروا ، وإياها طلبوا فى متابعتهم ، والكذب على مولاهم ، وقد أخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه : (أولئك الذين أصمهم الله وأعمى أبصارهم أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)[1] ، فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة ، ورؤوس الضلالة ، والمنقوصون من التوحيد حظاً ، والمخسوسون من الإيمان نصيباً وأوعية الجهالة ، وأعلام الكذب ولسان إبليس الناطق فى أوليائه، والهائل على أعدائه من أهل دين الله ، وأحق من اتهم فى صدقه ، وأطرحت شهادته ولم يوثق بقوله ولا عمله فإنه لا عمل إلا بعد يقين ، ولا يقين إلا بعد استكمال حقيقة الإسلام ، وإخلاص التوحيد ، ومن عمى عن رشده وحظه من الإيمان بالله وبتوحيده كان عما سوى ذلك من عمله والقصد من شهادته أعمى وأضل سبيلا ، ولعمر أمير المؤمنين إن أحجى الناس بالكذب فى قوله ، وتخرص الباطل فى شهادته من كذب على الله ووحيه ولم يعرف الله حقيقة معرفته ، وإن أولاهم أن يرد شهادة الله جل وعز على كتابه ، وبهت حق الله بباطله ، فاجمع من بحضرتك من القضاة واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك وابدأ بامتحانهم فيما يقولون ، وتكشيفهم عما يعتقدون فى خلق الله القرآن وإحداثه ، وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين فى عمله ، ولا واثق فيما قلده الله واستحفظه فى أمور رعيته من لا يوثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه ، فإذا أقروا بذلك

---

(١) سورة : محمد الآيتان ٢٥ - ٢٦ .

ووافقوا أمير المؤمنين فيه وكانوا على سبيل الهدى والنجاة فمرهم بنظر من بحضرتهم من الشهود على الناس ومسألتهم عن علمهم فى القرآن وترك الإثبات بشهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث ، ولم يروا الامتناع من توقيعها عنده واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك من قضاة أهل عملك فى مسألتهم والأمر لهم بمثل ذلك ثم أشرف عليهم وتفقد آثارهم حتى لا تنفذ أحكام الله إلا بشهادة أهل البصائر فى الدين والإخلاص للتوحيد واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون منك فى ذلك وكتب فى شهر ربيع الأول سنة ثمانى عشرة ومائتين .

قال : وكتب المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم وهو يخلفه ببغداد فى إشخاص سبعة نفر من الفقهاء منهم : محمد بن سعد كاتب الواقدى ، وأبو مسلم مستملى يزيد ابن هارون ، ويحيى بن معين ، وزهير بن حرب ، وأبو خيثمة ، وإسماعيل بن داود وإسماعيل بن أبى مسعود ، وأحمد بن الدورقى ، فأشخصوا فسألهم وامتحنهم عن خلق القرآن فأجابوا جميعاً أن القرآن مخلوق ، فأشخصهم إلى مدينة السلام وأحضرهم إسحاق داره فشهر أمرهم وقولهم بحضرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث ، فأقروا بمثل ما أجابوا به المأمون فخلى سبيلهم ، وكان إحضار إسحاق إياهم وأمرهم بأمر المأمون ، وكان المأمون بعد ذلك كتب إلى إسحاق ابن إبراهيم :

أما بعد : فإن من حق الله على خلفائه فى أرضه وأمنائه على عباده الذين ارتضاهم لإقامة دينه ، وحملهم رعاية خلقه وإمضاء أحكامه وسننه ، والائتمام بعدله فى بريته أن يجهدوا لله أنفسهم ، وينصحوا له فيما استحفظهم وقلدهم ، ويدلوا عليه تبارك اسمه وتعالى بفضل العلم الذى أودعهم ، والمعرفة التى جعلها فيهم ويهدوا إليه من زاغ عنه ، ويردوا من أدبر عن أمره ، وينهجوا لرعاياهم سمت نجاتهم ،

ويقفوهم على حدود إيمانهم وسبل فوزهم وعصمتهم ويكشفوا لهم عن مغطيات أمورهم ومشتبهاتها عليهم بما يدفع الريب عنهم ويعود بالضياء والبينة على كافتهم وأن يؤثروا ذلك من إرشادهم وتبصيرهم إذ كان جامعاً لفنون مصانعهم ، ومنتظما لحظوظ عاجلتهم وآجلتهم ويتذكروا ما الله مرصد به من مسائلتهم عما حملوه ، ومجازاتهم بما أسلفوه وقدموا عنده وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله وحده وحسبه الله وكفى به .

ومما بينه أمير المؤمنين بروبته وطالعه بفكره ونظره فتدس عظيم خطره وجليل ما يرجع فى الدين من وكفه وضرره ، ما ينال المسلمون بينهم من القول فى القرآن الذى جعله الله إماماً لهم ، وأثراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصفيه محمد صلى الله عليه وسلم باقياً لهم ، واشتباهه على كثير منهم حتى حسن عندهم ، وتزين فى عقولهم أن لا يكون مخلوقا فتعرضوا بذلك لدفع خلق الله الذى بان به عن خلقه ، وتفرد بجلالته من ابتداع الأشياء كلها بحكمته وإنشائها بقدرته والتقدم عليها بأوليته التى لا يبلغ أولاها ، ولا يدرك مداها وكان كل شىء دونه خلقاً من خلقه وحدثاً هو المحدث له وإن كان القرآن ناطقاً به ودالا عليه ، وقاطعاً للاختلاف فيه ، وضاهوا به قول النصارى فى ادعائهم فى عيسى بن مريم صلوات الله عليه أنه ليس بمخلوق ، إذ كان كلمة الله والله عز وجل يقول : (إنا جعلناه قرآناً عربيا)[١] وتأويل ذلك إنا خلقناه كما قال جل ثناؤه : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها)[٢] وقال : (وجعلنا الليل لباساً ، وجعلنا النهار معاشاً)[٣] . وقال :

---

(١) سورة الزخرف الآية ٢ .

(٢) سورة الروم الآية ٢١ .

(٣) سورة عم يتساءلون الآيتان ١١ - ١٢ .

وجعلنا من الماء كل شيء حي[1]) فسوى عز وجل بين القرآن وبين هذه الخلائق التي ذكرها في شية الصنعة ، وأخبر أنه جعله وحده فقال : (بل هو قرآن مجيد * في لوح محفوظ[2]) فقال ذلك على إحاطة اللوح بالقرآن ولا يحاط إلا بمخلوق . وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : (لا تحرك به لسانك لتعجل به[3]) وقال : (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث[4]) وقال : (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته[5]) وأخبر عن قوم ذمهم بكذبهم أنهم قالوا : (ما أنزل الله على بشر من شيء[6]) ثم أكذبهم على لسان رسوله فقال لرسوله : (قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى[7]) فسمى الله تعالى القرآن قرآناً وذكراً وإيماناً ونوراً وهدى ومباركا وعربياً وقصصاً فقال : (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن[8]) وقال : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله[9]) وقال : (قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات[10]) وقال : (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه)[11] فجعل له أولا وآخراً ودل عليه أنه محدود مخلوق وقد عظم هؤلاء الجهلة بقولهم في القرآن الثلم في دينهم والحرج في أمانتهم وسهلوا السبيل لعدو الإسلام واعترفوا بالتبديل والإلحاد على قلوبهم حتى عرفوا ووصفوا خلق الله وفعله بالصفة التي هي لله وحده وشبهوه به والأشباه أولى بخلقه ، وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقال حظاً في الدين ، ولا نصيباً من الإيمان واليقين ولا يرى أن يحل أحداً منهم محل الثقة في أمانة ولا عدالة ولا شهادة ولا صدق في قول ولا حكاية

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٣٠ (٢) سورة البروج الآيتان ٢١ — ٢٢
(٣) سورة القيامة الآية ١٦ (٤) سورة الأنبياء الآية ٢
(٥) و(٦) و(٧) سورة الأنعام الآيات ٢١ — ٩١ (٨) سورة يوسف الآية ٣
(٩) سورة الاسراء الآية ٨٨ (١٠) سورة هو الآية ١٣
(١١) سورة فصلت الآية ٤٢

ولا توليته لشىء من أمر الرعية وإن ظهر قصد بعضهم وعرف بالسداد مسدد فيهم فإن الفروع مردودة إلى أصولها . ومحمولة فى الحمد والذم عليها ، ومن كان جاهلا بأمر دينه الذى أمره الله به من وحدانيته فهو بما سواه أعظم جهلا ، وعن الرشد فى غيره أعمى وأضل سبيلا[1])] . . . [2]من كل فتنة فإنه إن يفعل فأعظم بها نعمة وإن لم يفعل فهى الهلكة وليس لأحد على الله حجة . ونحن نرى أن الكلام فى القرآن بدعة يشارك فيها السائل والمجيب فيتعاطى السائل ما ليس له ، ويتكلم المجيب بما ليس عليه وما أعرف خالقاً إلا الله وما دون الله فمخلوق، والقرآن كلام الله فانته بنفسك وبالمختلفين فى القرآن إلى أسمائه التى سماه الله بها تكن من المهتدين ، وذر الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون بما كانوا يعملون . ولا تسم القرآن باسم من عندك فتكون من الضالين جعلنا الله وإياك من (الذين يخشونه بالغيب وهم من الساعة مشفقون)[3] .

حدثنى سعيد العلاف القارىء قال : أرسل المأمون وهو فى بلاد الروم فحملت إليه وهو بالبدندون فكان يستقرئنى فدعانى يوماً فجئت فوجدته جالسا على شاطىء البدندون وأبو إسحاق المعتصم جالس من يمينه فأمرنى فجلست قريبا منه فإذا هو وأبو إسحاق مدليان أرجلهما فى ماء البدندون فقال : يا سعيد ، دل رجليك فى هذا الماء وذقه فهل رأيت ماء قط أشد برداً ولا أعذب ، ولا أصفى صفاء منه ففعلت فقلت يا أمير المؤمنين ، ما رأيت مثل هذا قط . قال : أى شىء يطيب أن يؤكل ويشرب هذا الماء عليه ؟ فقلت :أمير المؤمنين أعلم ، فقال :رطب الأزاذ . فبينا نحن نقول هذا إذ سمع وقع لجم البريد فالتفت فنظر فإذا بغال من

---

(١) ما بين المربعين إكمال لمرسوم المأمون من تاريخ ابن جرير (ز)
(٢) وقبل هذا بياض ونقص فى الأصل لم يمكن إكماله (ز)
(٣) سورة الأنبياء

بغال البريد على أعجازها حقائب فيها الألطاف . فقال لخادم له : اذهب فانظر هل في هذه الألطاف رطب ؟ فإن كان رطبا فانظر فإن كان فيها أزاذاً فأت به فجاء يسعى بسلتين فيهما رطب أزاذ مكتوب عليها آزاذا[١] فأمر بفتحهما فإذا رطب أزاذ كأنما جنى من النخل تلك الساعة فأظهر شكراً لله وكثر تعجبنا منه جميعا فقال : ادن فكل . فأكل هو وأبو إسحاق وأكلت معهما وشربنا جميعا من ذلك الماء فما قام منا أحد إلا وهو محموم فكانت منية المأمون من تلك العلة ، ولم يزل المعتصم عليلا حتى دخل العراق ولم أزل عليلا حتى كان قريبا الآن .

ذكر من مات فى أيام المأمون ببغداد وغيرها

من سنة أربع ومائتين وما بعدها من السنين إلى آخر أيامه وولايته من الفقهاء

فى سنة أربع ومائتين مدخل المأمون بغداد مات : الحسن بن صالح بن أبى الأسود الفقيه لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ليلة الجمعة . ومات فى هذه السنة : السندى بن شاهك مولى أمير المؤمنين ببغداد لست خلون من رجب وكان يكنى أبا نصر ، وكانت وفاته بعد دخول المأمون بأربعة أشهر وثلاثة عشر يوماً .

ومات : عبد العزيز بن الوزير بن ضابى الجروى وهو محاصر بالاسكندرية من أهل الأندلس ، وقد سألوه أن ينظرهم بقية يومهم فامتنع وأمر بنصب المجانيق عليهم فانكسر سهم المنجنيق فرجع عليه فقتله فى آخر ذى الحجة وكان يكنى أبا الأصنع .

قال أبو حسان : وفيها مات السرى بن الحكم وهو والى مصر ، وفيها مات محمد بن عبيد الطنافسى ويكنى أبا عبد الله ، ومات العباس بن المسيب سلخ شوال من هذه السنة .

قالوا : ومات فى سنة ست ومائتين : يزيد بن هارون الواسطى بواسط فى غرة

---

(١) كلمة فارسية .

شهر ربيع الآخر ، ومات شبابة بن سوار الفزارى بالمدائن . ومات عبد الله بن
نافع الصائغ فى رمضان .

قال الخوارزمى : ومات شبيب بن حميد لسبع خلون من ذى القعدة سنة
أربع ومائتين . وفى سنة خمس ومائتين مات عبد الله بن الحرشى لغرة ربيع
الآخر . ومات عقبة بن جعفر بن محمد بن الأشعث فى ربيع الآخر من هذه السنة .

وفى سنة سبع ومائتين مات حجاج بن محمد أبو محمد الأعور مولى سليمان
ابن مجالد فى شهر ربيع الآخر .

قال أبو حسان : وكان موت يزيد بن هارون فى سنة سبع ومن قال فى سنة
ست أخطأ . وقال أبو حسان : مات فى سنة سبع محمد بن عمر الواقدى ببغداد .
ومات يعقوب بن المهدى يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان
ومات عبد الله بن بكر السهمى . ومات أبو النضر هاشم بن القاسم الملقب
قيصر . ومات : يونس بن محمد المعلم . ومات الأسود بن عامر شاذان
أبو عبد الرحمن . ومات الهيثم بن عبدى أبو عبد الرحمن بفم الصلح غرة المحرم .
ومات وهب بن أبى حازم بالمنجشانية منصرفه من الحج وحمل فدفن بالبصرة .
ومات عمر بن حبيب القاضى العدوى فى شهر . . .

فهارس الكتاب

١ — الموضوعات والمباحث الهامة
٢ — الرجال والنساء والقبائل والملل وغير ذلك مرتب على حروف الهجاء
٣ — البلدان والأماكن مرتب على حروف الهجاء
٤ — القوافى وأسماء الشعراء

فهرس المواضيع والأبحاث الهامة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

فهرست

الرجال والنساء والقبائل والملل[1]

---

(١) وضعنا بين الأسماء علامة = بمعنى انظر

(خ)

(د)

(ذ)

(ش)

(ص)

(ط)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

فهرست

أسماء البلدان والأماكن

(ن)

(و)

(ى)

فهرست

القوافى وأسماء الشعراء

تم بحمد الله وتوفيقه

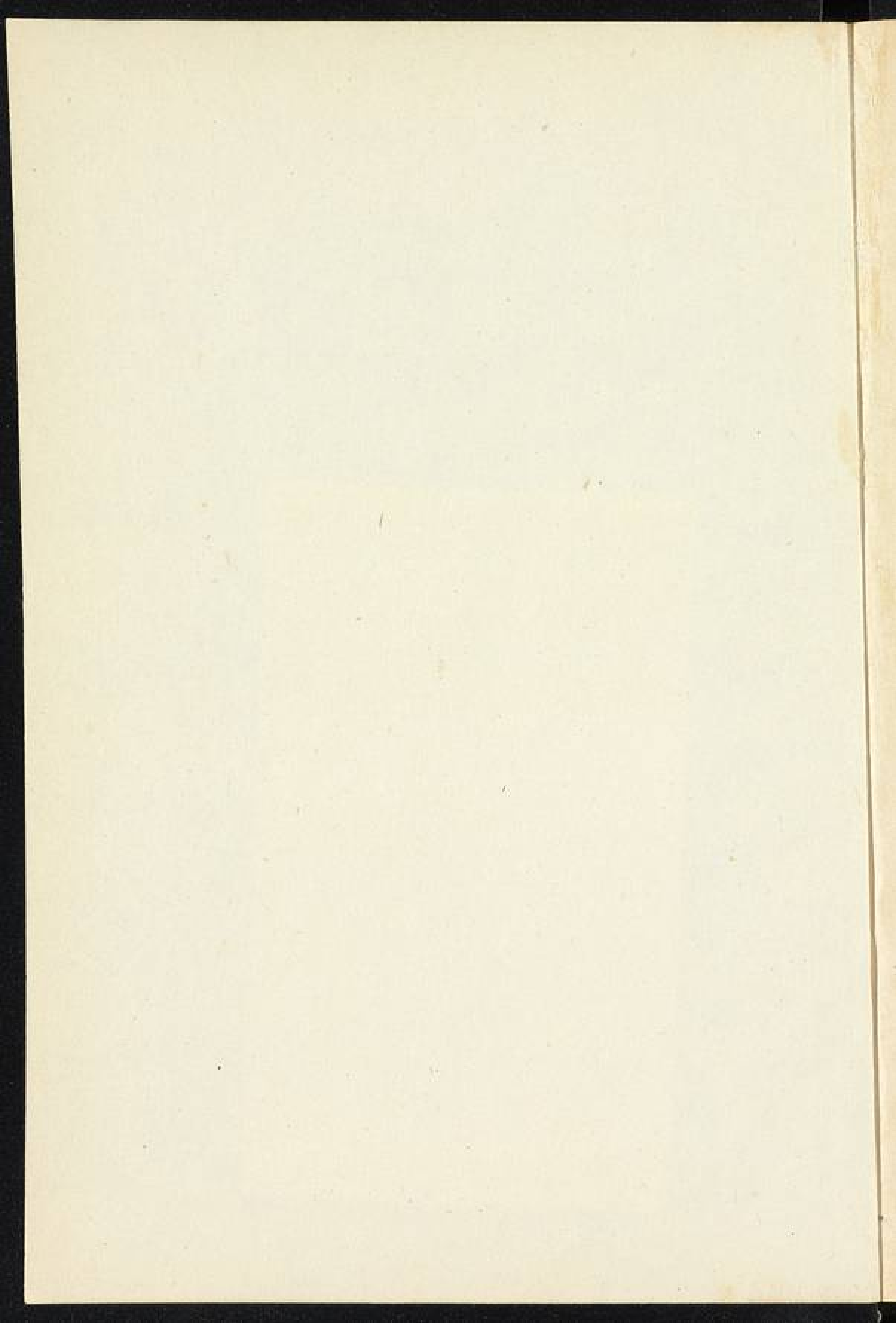
BAGHDAD

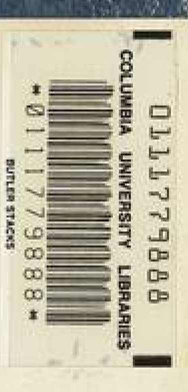
Fi Tarikh Él Khilefa Él-Abbassia

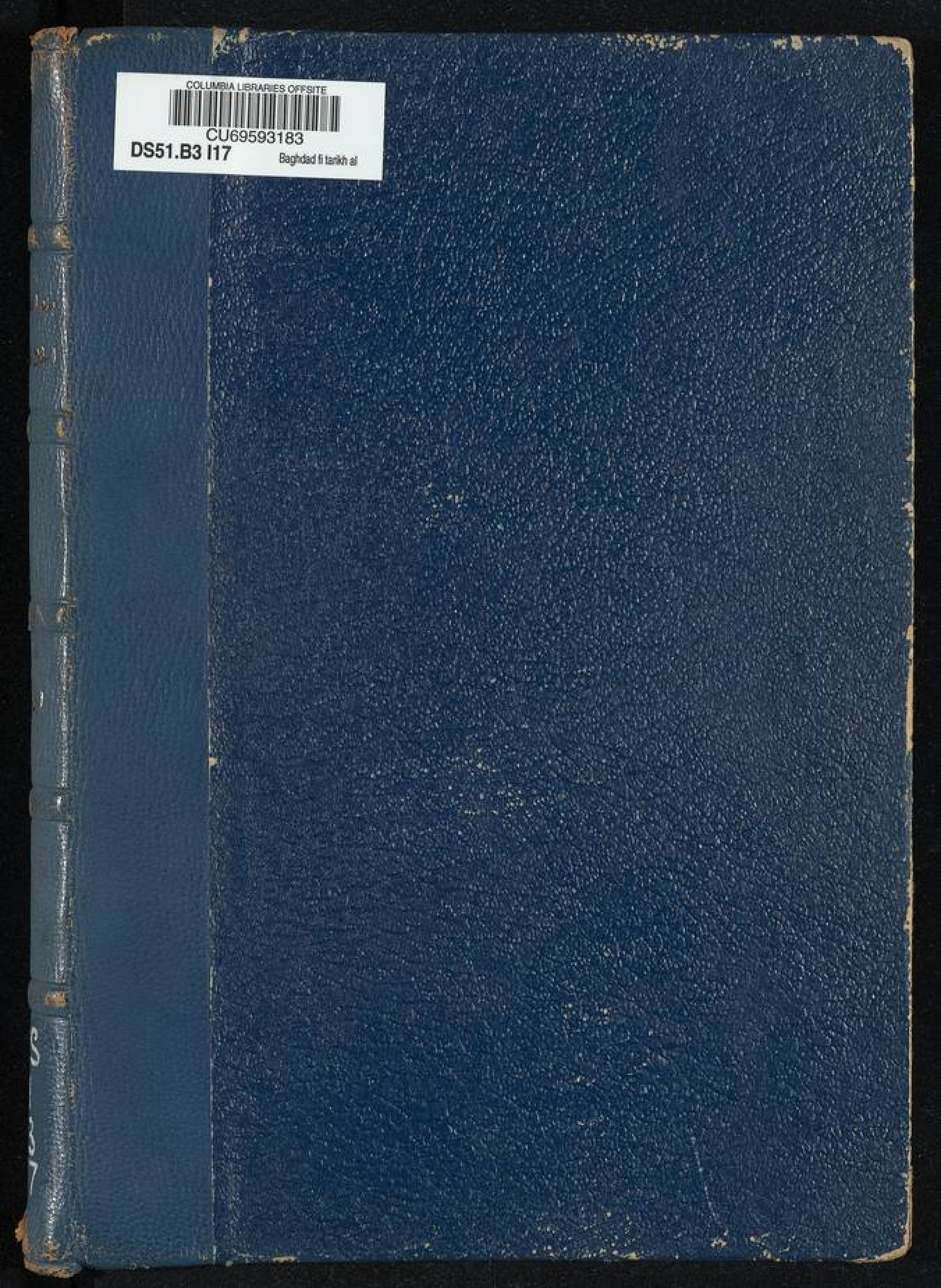
By

ABUL FAOL AHMAD IBN TAHIR EL KATEB
EL MAAROF (D 280 H) BIBN TAYFOUR

1968 — 1388




0111779888
COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0111779888
BUTLER STACKS


COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU69593183
DS51.B3 I17
Baghdad fi tarikh al